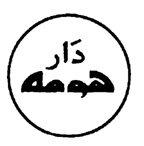
إبراهيم العيد بشي

تاريخ مختصر
لأهمّ حضارات الشّرق القديمة

دراسة حضاريّة في قبل التّاريخ وعبر التّاريخ



صنف: 4/234
– الإيداع القانوني: 183/2007
– ردمك : 8-044-65-9961-978

www.editionshouma.com

المقدّمة

يعتبر موضوع حضارات الشرّق القديمة في الحوض الشرّقيّ والجنوبيّ للبحر المتوسّط، خلال أهم المراحل منذ قبل التاريخ وحتى المراحل التاريخية، من الموضوعات بالغة الأهميّة في التاريخ الحضاري. واكتسب ذلك أهمية خاصة في إبراز أهم المظاهر الحضارية من خلال تقسيم عصور قبل التاريخ ومراحله التي كانت تعتبر تجسيدا لمراحل سابقة تمثلت في العصور الجيولوجية والعصور الجليدية، وأهم المراحل التي تطور فيها الإنسان بداية من عصر الإنسان الماهر إلى غاية الإنسان المعاصر وإنسان كرومانون. يضاف إلى ذلك حضارة العصور الحجرية التي تعبر في حقيقتها عن ملامح نشاط الإنسان التي تبرز أهميته أكثر تحديد العصور قبل الكتابة من خلال أدواته الحجرية حتى ظهور المدنيات القديمة وأهم الأسس التي تقوم عليها من تطورات تقنية، وبيئيّة مساعدة ونمو سكاني وتنظيم اجتماعي في القرن الرابع قبل الميلاد في المدن الأولى مما أدى إلى اكتشاف الكتابة وتطورها وانتشارها من أجل مساعدة الإنسان على حفظ معاملاته الاقتصادية والثقافية وتدوين قوانينه وتشريعاته.

تظهر أهمية هذا الموضوع أيضا في كشف رصيد الشعوب الأولى الحضاري، التي كان لها الفضل في ذلك من سومريين ومصريين وعرب وبربر وفينيقيين وغيرهم. ولما كانت دراسة التاريخ الحضاري من أشمل الدراسات التاريخية وأصعبها، فضلا عن الحضارة المصرية القديمة التي بحث فيها الكثيرون فقد بات من الصعوبة بمكان أن يضيف باحثُ مهما كانت قدراته الشيء الكثير إليها، غير أن هذه الدراسة قد تناولت بعض جوانب هذه الحضارة بنوع من التبسيط في ظروف الدولة ونظامها السياسي في عصر الدولة القديمة

من بداية ظهور الأسرة الأولى والثانية وهذه الفترة المعروفة بـ (العهد العتيق) وقد استمرّ حكم الأسرات المصرية من الثالثة إلى غاية أسرات الدولة الحديثة. هذا فضلا عن فترة الغزو الأجنبي لمصر ونهاية حكم أسراتها. وأهمّ المظاهر الحضارية من خلال النظام السياسي والسلطة الدينية التي ترتبت عن الحضارة الفرعونية. كما كان من الصعوبة بمكان دراسة التكوين الحضاري في منطقة بلاد الرافدين منذ الحكم السومري القديم والأكدي إلى غاية العهد البابلي الحديث. هذا فضلا عن أهم ملامح الحضارتين الإغريقية والرومانية في منطقة الشرق الأدنى القديم. لأن الموضوع يتناول في مجمله دراسة المنطقة من حيث التعرض للأرض والإنسان والحضارة للدول والممالك التي قامت فيها، وعلاقتها مع بعضها، من الناحية السياسية. والتعرف على أهم المراكز الحضارية التي قامت في منطقة الشرق القديم. ومدى إسهام الإنسان في المنطقة في الحضارة البشرية بشكل عام.

إبراهيم العيد بشّي المحمديّة في2005/11/10

التمهيد

تقسيم عصور قبل الكتابة

دَرَجَ الباحثون على تقسيم تاريخ الإنسان على أساس تطوره الحضاري إلى قسمين رئيسين : القسم الذي سبق معرفة الكتابة والقسم الذي عرف الكتابة، وأطلقوا على الأول اسم "قبل التاريخ " وأطلقوا على الثاني اسم "العصر التاريخي" على اعتبار أن الإنسان في هذا القسم من مرَاحله توصلّ إلى التدوين وبذلك وجد التاريخ، إلاّ أنّ تسمية القسم الأول باسم "قبل التاريخ" لا تتفق مع ما يعرف من أن تاريخ الإنسان يبدأ منذ لحظة ظهوره على الأرض ومن الأفضل أن يطلق عليه اسم "عصر قبل ظهور الكتابة والتدوين" أو "العصر قبل التاريخي "للتفرقة بينه وبين" العصر التاريخي" أو "عصر الكتابة والتدوين" وعلى كل فإن اصطلاح "قبل التاريخ" أصبح من الشيوع بحيث لا يشك أحد في المقصود به.

وخلاصة القول أن تطلق عبارة العصور التاريخية على الفترة التي تلت ظهور الكتابة وامتدّت حتى الوقت الحاضر. وتقسم هذه العصور إلى العصر القديم، والوسيط والحديث والمعاصر. وقد سميت بالعصور التاريخية لأننا نستطيع التعرف عليها من خلال الكتابات المتنوعة والمتعددة. أما عبارة "عصور قبل التاريخ" فتطلق على فترة قبل ظهور الكتابة والتي تمتد في القدم إلى بداية ظهور الإنسان على سطح الأرض وانفصاله عن عالم الحيوان. وقد سميّت بعصور قبل التاريخ لأننا نتعرف عليها ليس من خلال الكتابة التي لم تكن معروفة بعد. وإنما من خلال الآثار والأدوات والنّقوش والهياكل العظمية وغير ذلك من الأشياء التي خلّفها الناس الأوائل وعثر عليها المنقّبون في الحفريات الأثرية ويقسم العلماء عصور قبل التاريخ إلى ثلاثة عصور هي :

1- العصر الحجري. 2- العصر البرنزي. 3- العصر الحديدي. وقد اعتمد العلماء في هذا التقسيم على نوع المادة الرئيسية التي استخدمها الإنسان في صناعة أدواته في كل عصر من العصور، والتي كانت في أول الأمر من الحجر ثم أصبحت من البرنز ثم من الحديد. وبما أن العصر الحجري امتد فترة طويلة من الزمن (أكثر من مليون سنة) وحدثت خلاله تطورات اقتصادية واجتماعية بارزة، فقد عمد العلماء على تقسيمه إلى عدة مراحل لتسهيل دراسته. وهكذا قسم العصر الحجري إلى ثلاثة عصور رئيسية هي :

1- العصر الحجري القديم (الباليوليتي) ويقسم بدوره إلى عصرين :

أ- العصر الحجري القديم الأدنى : ويمتد منذ ظهور الإنسان على سطح الأرض إلى حوالي الألف الأربعين.

ب- العصر الحجري القديم الأعلى : ويمتد من الألف الأربعين إلى الألف الثانية عشرة قبل الميلاد.

2- العصر الحجري المتوسط (الميزوليتي) : ويمتد من الألف الثانية عشرة إلى الألف الخامسة قبل الميلاد.

3- العصر الحجري الحديث (النيوليتي) : ويقسم بدوره إلى عصرين :

أ- العصر الحجري الحديث الأدنى : ويمتاز باستعمال الأدوات الحجرية فقط .

ب- العصر الحجري الحديث الأعلى : ويمتاز باستعمال الأدوات الحجرية إلى جانب الأدوات المعدنية من النحاس والبرنز. ويمتد (النيوليتي) من الألف الخامسة إلى مطلع الألف الأولى قبل الميلاد. كما مر الإنسان بمراحل حضارية مختلفة وإن اختلف أسلوب حياته في هذه المراحل، وعلى هذا تعدّدت

تقسيمات الباحثين في تاريخ الإنسان وحضاراته واختلفت وجهات نظرهم في هذا الشأن على أن أشهر هذه التقسيمات نوعان : تلك التي قسمت تاريخ الإنسان حسب المادة التي صنع منها أدواته إلى دورين :

"دور استعمال الحجر"، "دور استعمال المعادن" وهذا الأخير مازلنا نعيش فيه إلى اليوم

وتلك التي تقسمه على أساس اقتصادي وفق مرحلتين :

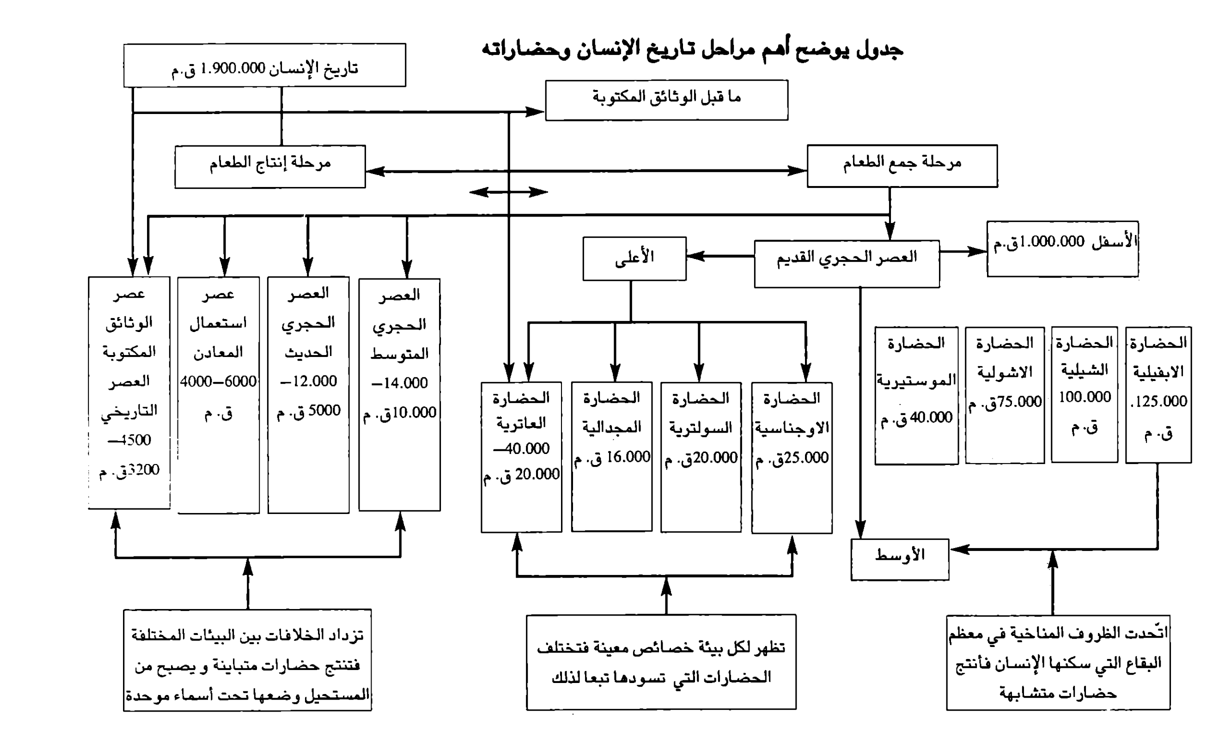
"مرحلة جمع الطعام" و"مرحلة إنتاج الطعام"، وقد نضيف إلى ذلك فنعتبر أول إنتاج للطّعام ثورة صناعية يطلق عليها "مرحلة الثورة الصناعية الأولى" لما صاحب هذا الإنتاج من صناعات جديدة كالفخار، تمييزا لها عن النهضة الصناعية التي حدثت في القرن الثامن عشر الميلادي التي يمكن اعتبارها الثورة الصناعية الثانية و فيها بدأت "حركة التّصنيع"، ومع كل هذا فمازال مختلف الباحثين يقسمون تاريخ البشر حسب أسس متباينة وفق اختصاصاتهم والدراسات التي يهتمون بها، هذه التقسيمات جميعها تهدف إلى تيسير دراسة تاريخ الإنسان والأدوار الحضارية التي مرّ بها، إلاّ أنه ينبغي أن ندرك بأنه لا توجد حدود زمنية فاصلة بين قسم وآخر في كل من هذه التقسيمات التي لا يخلو أيٌّ منها من نقائص ولكنها على كل حال تتيح لنا تتبع المراحل التي مر بها الإنسان في تاريخه الطويل، وهي وإن اختفت في الأسس التي بنيت عليها تتفق فيما بينها إلى حد كبير بحيث يمكن مطابقة أحد الأقسام في أي من هذه التقسيمات على مراحل واضحة المعالم في التقسيمات الأخرى إذ من الممكن مثلا التوفيق بين "مرحلة جمع الطعام" والجزء الأول من "دور استعمال الحجر" الذي يعرف باسم" الدور الحجري القديم" وبين "مرحلة إنتاج الطعام" و"الجزء الأخير من عصر استعمال الحجر" و"دور استخدام المعادن " اي أنها تبدأ بأوائل "الدور الحجري الحديث" وتستمر إلى وقتنا الحالي وذلك

إذا ما تغاضينا عن فترة الانتقال بين "الدور الحجري القديم" و "الدور الحجري الحديث" وهي التي يطلق عليها اسم "الدور الحجري المتوسط"، وإن كان البعض يجعل "مرحلة إنتاج الطعام" قاصرة على الفترة التي مرت على الإنسان ابتداء من "الدور الحجري الحديث إلى بداية العصر التاريخي" وأما الشعوب التي عاشت في فترة قبل التاريخ أو قبل التدوين (ترجع هذه الفترة إلى حوالي مليوني سنة)، إلا أنهم لم يبدأوا تسجيل تاريخهم إلاّ بعد اختراعهم للكتابة منذ حوالي 5500 سنة قبل الميلاد تقريبا والفترة التي لم يتعلّم فيها البشر الكتابة تسمى كما أسلفت قبل التاريخ. وشعوب قبل التاريخ ساعدوا في صنع الحضارة وجعلوها أمرا ممكنا.

كان أُولُ البشر يصيدون الحيوانات ويجمعون النباتات الصالحة للأكل، وبمرور الوقت تمكنوا من زراعة المحاصيل وتربية الحيوانات كمصادر للغذاء، ثم أصبحوا مزارعين. واخترع البشر الأُولُ الأدوات البسيطة وتعلموا كيف يشعلون النار. وقد تمكنوا من تلوين أول الرسوم وشكلوا أقدم الفخار كما أقاموا أولى المدن. نظرا لأن القدماء لم يحفظوا سجلات مكتوبة، اتجه العلماء للبحث عن العظام والأدوات وغيرها من مخلفات قبل التاريخ ويعتبر ذلك من أهم مصادر التاريخ المادية، ومنها درس العلماء والباحثون هذه المخلفات ليعرفوا شيئا عن حياة الشعوب الغابرة. من قوم عاد وثمود، ولوط وصالح وبقايا ما يسمى بالحضارة العاترية والمولحية والفقصية والسيبلية عندنا. وحتى الشيلية والأشولية والموسترية عند الغرب. وتلك المصادر المكتشفة التي تمت دراستها مصنوعة من الحجر، ولذا سميت كل تلك بالعصور الحجرية . غير أن العلماء لم يبدأوا التأكد من قدم التاريخ البشري إلا بحلول القرن التاسع عشر الميلادي، فقد اكتشف العظام البشرية المتحجرة بالقرب من "دسلدورف" بألمانيا عام 1856 م. ولم يتمكن العلماء من تحديد ما إذا كانت هذه المتحجرات عظام شخص معاصر أم ترجع لشكل من أشكال الإنسان القديم هذا على حدّ

زعم افتراضهم، وفي عام 1879 م تمكنت طفلة صغيرة لأول مرة، من اكتشاف نموذج لفنون قبل التاريخ. فعندما كانت تتجول في كهف التامرا بإسبانيا بصحبة والدها وجدت رسوم ملوّنة لحيوانات ضخمة شبيهة بالعجول على سقف الكهف. وقد اختلف العلماء في تحديد عمر هذه الرسوم وبعد ذلك بقليل تم اكشاف عدد آخر من الرسوم في بعض الكهوف في أوربا. وعندما حفر المنقّبون تحت أرضيات هذه الكهوف، وجدوا أدوات حجرية وعظام الحيوانات التي تم رسمها في اللوحات التي نشاهدها اليوم في كل من مناطق التاسيلي، ناجر والأهقار ومنطقة النعامة والجلفة وعرفت تلك المشاهد التي تضمنتها الرسوم في هذه المناطق بالفنون الصخرية لأن معظمها مرسوم على الصخور. كما وجدت في بعض الكهوف عظام بشرية جنبا إلى جنب مع عظام الحيوانات المتحجرة وفي القرن العشرين اتفق معظم الخبراء، على أن ذلك يمثل دليلا على أن الإنسان عاش في أزمان قبل التاريخ. كما أن التمركز الحضاري في العالم القديم وجد في منطقة العروض المدارية التي كانت المكان المفضل في مناخها وبيئاتها لنمو الحضارات وبداية دخول الإنسان في مقدمات العصور التاريخية وقد كان من الثابت اليوم في أسبقية كل من مصر وبلاد مابين النهرين الأكثر وضوحا لتوفر المعلومات عنهما لكثرة الأبحاث الأثرية التي أجريت فيهما نسبيا. بينماالأقطار الأخرى لمنطقة الشرق الأدنى القديم فقد لا تتوفر معلومات عنها بالقدر الكافي ولايفهم من تقديمنا لدراسةحضارة على أخرى أنها تفوق غيرها في الأهمية أو أنها أسبق من غيرها من الحضارات التي لايسمح هذا المقام بتقديمها في هذا المختصر لأهم الحضارات القديمة في مرحلة قبل التاريخ وعبر التاريخ.

جدول يوضح أهم مراحل تاريخ الإنسان وحضاراته



الفصـــل الأوّل

العصور الجيولوجية والعصور الجليدية ومراحل تطور الإنسان.

- العصور الجيولوجية والعصور الجليدية

  العصور الجيولوجية

  العصور الجليدية

- مراحل تطور تاريخ الإنسان.

الإنسان الماهر، والمنتصب، والإنسان أطلنثريوس موريطانيكوس، والإنسان العاقل وإنسان نياندرتال، وإنسان بكين وسولو، وإنسان روديسيا والإنسان المعاصر، وإنسان كرومانيون.

أ- العصور الجيولوجية والعصور الجليديّة

1 – العصور الجيولوجية

بالرغم من أن الإنسان قد ظهر في زمن متأخر نسبيا على سطح الأرض إلا ان العصور الجيولوجية شملت كلّ هذه الفترة التي استمرت من أقدم الأزمنة (الدهر الأقدم) الذي يعرف بالزّمن- الأركي أو الأيوزوي. ويأتي بعده الزمن الأول أو الباليوزوي وهذا الزمن ينقسم بدوره إلى عصور منها : الكامبري، الأردفيشي، السيلوري، والديفوني، الفحمي، البرمي. وأما الزمن الجيولوجي الثاني يعرف بـ (الميزوي) وينقسم إلى عصور منها : الترياسي، الجوراسي، الكرتاسي. وأما الزمن الثالث يعرف بـ (الكاينوزوي أو الترياسي) وينقسم هذا الزمن بدوره إلى عصور منها : الأيوسين، الأوليجوسين، الميوسين، البليوسين. وأما الزمن الرابع وهو الأحدث من كل الأزمنة يعرف بـ "البليوستوسين". الذي ظهر فيه الإنسان.

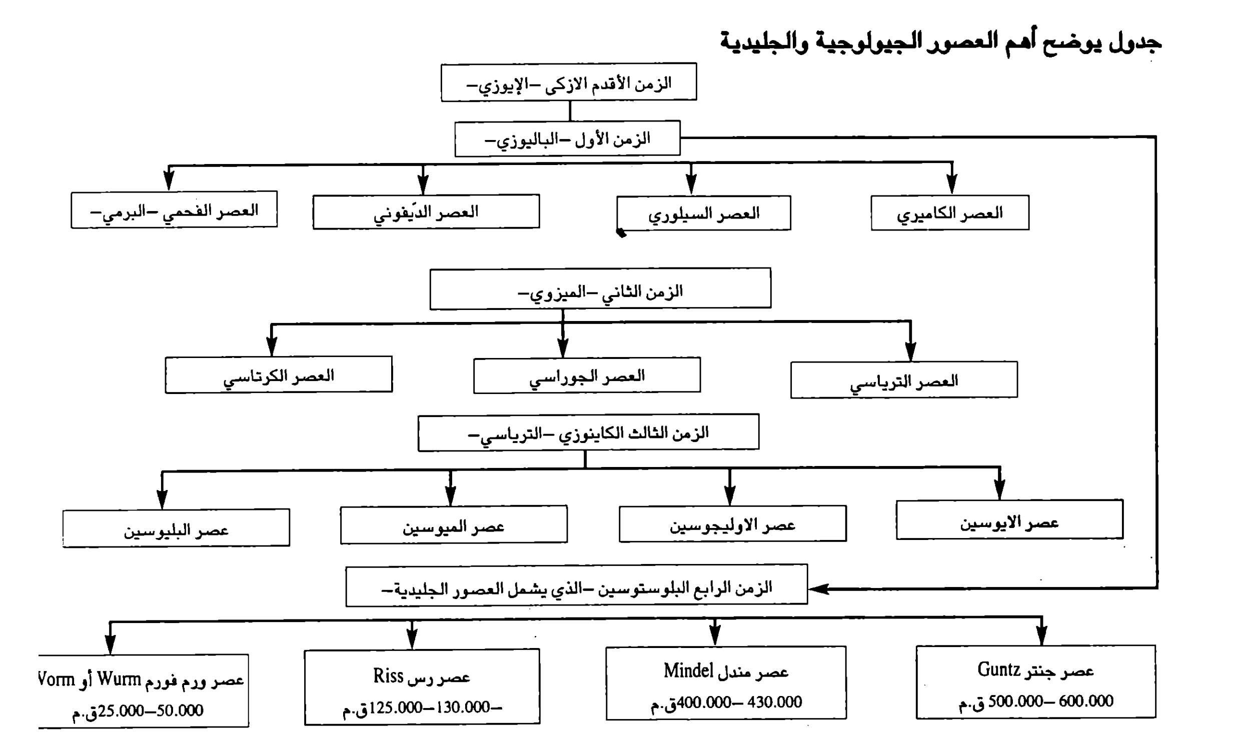
2 – العصور الجليدية

وتشمل الفترة التي حدثت فيها الذبذبات في الزمن الرابع وسمي كل دور تقدم فيه الجليد باسم أحد وديان الألب حيث عثر على الأكوام الجليدية في تلك الوديان وفي هذه العصور الجليدية عرف العصر الجليدي الأول بـ "جنز" Guntz ويوافق هذا العصر حوالي 600.000 أو 500.000 سنة قبل الميلاد.

والعصر الجيولوجي الثاني مندل Mindel الذي يوافق 430.000 أو 400.000 ق. م وتستمر هذه الدورة الجليدية إلى غاية 370.000 سنة قبل الميلاد.

ويتضمن هذا العصر الدورة الدافئة الأولى التي تستمر من 370.000 –

جدول يوضح أهم العصور الجيولوجية والجليدية



الذي يعرف بـرس – Riss وتظهر الدورة الدافئة الثانية فيه بوضوح في الفترة من 100.000– 40000 ق. م. أما العصر الجيولوجي الرابع (Wurm أو Worm) فورم فيوافق 50.000 ق. م ويستمر إلى غاية 25.000 – أو 18.000ق. م. وبذلك يمثل الدورة الدافئة الثالثة. وبعد ذلك ازدادت الاختلافات المناخية بعد هذا العصر الرابع والأخير حيث تراجع الجليد فكان لكل مكان على سطح الأرض ظروفه المناخية الخاصة به وبذلك ظهر التباين لتلك الحضارات التي سادت خلال العصر الحجري القديم الأعلى. ثم أخذ الجفاف في التزايد والظهور في العروض الوسطى و المدارية . على إثر ذلك اشتدّ تباين الظروف الطبيعية حتى تميزت البيئات المحلية التي كانت مشابهة لبعضها البعض وأصبحت لكل منطقة ظروفها الخاصة بها، وحسب افتراض وتقدير الباحثين فإنّ الحياة لم تبدأ على سطح الأرض منذ نشأتها، وحين بدأت كانت عبارة عن كائنات بسيطة التكوين ثم أخذت الكائنات المعقدة في الظهور، وبعد ذلك وجدت كائنات شبيهة الإنسان ولكنها – حسب افتراضهم –كانت أقرب إلى القردة العليا ثم ظهرت كائنات تعد أسلافا للإنسان الحديث.

إلا أنّ –حسب زعمهم– تلك المخلوقات الشبيهة بالإنسان وهذه الأسلاف انقرضت قبل الإنسان الحديث ولا يوجد من الأدلة القاطعة ما يؤكد صلتها به. وقد حاول الباحثون ولايزالون العثور على ما يعتبرونه الحلقة المفقودة بينها وبين الإنسان ولكن لم يتحقق ذلك حتى الآن. وقد عاش الإنسان قبل التاريخ في عالم يختلف تماما عن عالم اليوم، فقد ظهر– على ما يبدو– لأول مرة في حدودي مليوني سنة مضت تقريبا في وقت كانت فيه الأرض باردة عندما غطّى الانتشار الجليدي تدريجيا أجزاء من القارات الشمالية، كما غطى الجليد كل القطب الجنوبي، ولم تبق من المناطق الدافئة إلا قارة إفريقيا، وجنوب شرقي آسيا ومعظم وسط جنوب أمريكا. ويبدأ تاريخ البشرية منذ ظهور

أما عمر البشرية فيقدر بأكثر من مليون سنة تقريبا. وقد طرحت قضية أصل الإنسان على بساط البحث منذ القدم ولا تزال تطرح حتى في الوقت الحاضر، كما وضعت في هذا الشأن عدة نظريات مختلفة. فحتى القرن التاسع عشر سادت بصورة عامة نظرية تقول : أن اللّه خلق الإنسان على شكله الحالي. ولكنّ بعض المفكرين القدامى كانوا قد وضعوا فرضيات تقول : أن الإنسان نشأ من الطبيعة. أما العالم "داروين" فقد درس الاكتشافات الأثرية الحديثة ووضع نظرية تقول : أن أصل الإنسان قرد، وتطور الإنسان من القرد تطورا بيولوجيا حتى اكتسب صفاته الحالية، كما أن العالم "انجلس" يقول : أن العمل هو العامل الأول والرئيسي في تطور القرد إلى الإنسان. فعندما بدأ الإنسان الأول بصنع الأدوات أخذت أطرافه الأمامية تتحول تدريجيا إلى أيدي. وهكذا تشكلت الأيدي بنتيجة العمل ثم أصبحت أداة للعمل والإنتاج، كما تطورت في مجال العمل أيضا حنجرة الإنسان والأوتار الصوتية إذ أصبح من الضروري أن يقول الواحد للآخر شيئا ما، كتبادل الخبرة أو الاتفاق على عمل مشترك وهكذا فإن العوامل البيولوجية والاجتماعية أدت إلى انفصال الإنسان عن عالم الحيوان و تطوره إلى إنسان عاقل، وهناك أيضا عدة آراء مختلفة حول الموطن الأول للإنسان، فداروين يقول : كان الموطن الأول للإنسان في جنوب إفريقيا، ويؤيده في هذا الرّأي لفيف من العلماء ولكن فريق آخر من العلماء السوفييت المعاصرون فيقولون : كان الموطن الأول للإنسان في جنوب آسيا وفي الشمال الشرقي من إفريقيا وفي الجنوب الشرقي من أوروبا. ويعتمد هؤلاء العلماء جميعا في آرائهم على ما وجد من بقايا عظام الإنسان الأول في المناطق المذكورة. كذلك هناك عدة آراء مختلفة حول الظروف الطبيعية التي عاش فيها الإنسان الأول. "فداروين" ومع عدد من علماء عصره يقولون : أن الإنسان الأول عاش في غابات استوائية.

بينما يقول علماء آخرون : أن الإنسان الأول عاش في ظروف جبلية، كما أن البعض يقولون أن الإنسان الأول عاش في السهول وقد ظهر أوائل البشر في إفريقيا خلال هذه الفترة وأصبح المناخ باردا جدا في المناطق الشمالية وتمدد الجليد نحو المناطق الجنوبية في حدود 800.000 سنة. تقريبا واستمر هذا العصر إلى غاية 10.000 سنة كانت في هذه الفترة معظم الغطاءات الجليدية قد تكونت وانتشرت جنوبا خلال فترات يطلق عليها العصور الجليدية وكل واحدة من هذه العصور ربما استمرت لمدة نحو 100.000 سنة، وبالقرب من نهاية كل عصر جليدي كان يزداد دفء الأرض حيث تذوب الأجزاء الجنوبية من الغطاءات الجليدية، ويطلق على هذه الفترات الدافئة فترة بين العصرين الجليديين وتستمر الواحدة منها نحو 10.000 سنة فقط تقريبا. خلال العصور الجليدية، وبين الجليدية استوطن البشر الأوائل كل إفريقيا تقريبا وجنوب آسيا وجنوب أوروبا، وكذلك أجزاء من أستراليا. وقد تمكن بعض صيادي قبل التاريخ من دخول شمالي آسيا، كما انتقلوا من سيبيريا إلى ألاسكا، إلا أن معظم شعوب قبل التاريخ عاشوا في المناطق الدافئة حيث استوطنوا السهول العشبية بالقرب من الأشجار ومصادر المياه. تمكن الناس القدماء –على ما يبدو– من تعلم إشعال النار منذ نحو مليون ونصف المليون سنة مضت تقريبا. لكن حتى بعد أن تمكنوا من إشعال النار، لم تكن لديهم الملابس التي تمنحهم الدفء أثناء المناخ البارد. وحتى ولو توفر لديهم أي نوع من الملبوسات فإنها لم تكن تتعدى جلود الحيوانات ووبرها الطبيعي أو ربما مواد نباتية. ونتيجة لذلك لم يتمكنوا من العيش في معظم أنحاء آسيا وأوروباً وأمريكا الشمالية خلال العصور الجليدية. ولكن الغطاءات الجليدية ساعدت أناس قبل الكتابة على توفير مناطق ومساحات صالحة للاستيطان، فقد ساعد المناخ البارد خلال العصور الجليدية في تحويل بعض الأراضي ذات الغابات الكثيفة إلى أرض عشبية، وذلك في آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية. وأصبح المناخ في كثير من

المناطق الجافة ممطرا حيث تحولت الصحاري إلى أرض عشبية، وأصبحت الأخيرة موطنا لقطعان كثيرة من الحيوانات الضخمة كالجاموس والماموث وإيل الرنة والخيول المتوحشة، وغيرها من الحيوانات التي يمكن أن يصطادها الإنسان ويختارها لقائمة طعامه المفضل بعد أن عرف الناس كيفية حياكة وصناعة الملابس المقاومة للبرد، تمكنوا من العيش حتى في أطراف السهول القريبة مباشرة من غطاء الجليد. وقد ساعد الجليد في تمهيد أراض تصلح للإنسان بطريقة أخرى، ففي كل مرة تنمو فيها غطاءات الجليد تتحول كمية كبيرة من مياه المحيط إلى ثلوج. ونتيجة لذلك ينخفض مستوى البحار، وتظهر أراض جديدة صالحة للاستيطان. كما تكونت أيضا جسور أو معابر تربط بين مناطق كانت تفصل بينها المياه عادة. واحد من هذه المعابر على سبيل المثال بين سبيريا و ألاسكا، كما أن غيرها ربط بين أوروبا وبريطانيا، وشبه جزيرة الملايو مع الجزر الأندونسية. لقد مر الناس في قبل التاريخ عبر هذه الممرات، واستوطنوا أراض جديدة. وكانت الغطاءات الجليدية تذوب في الفترات الدافئة بين العصريين الجليديين حيث يرتفع مستوى البحار مرة أخرى ليغطي تلك المعابر الأرضية.

ب- مراحل تطور تاريخ الإنسان

وقد أطلق على الإنسان عدة أسماء لأنواع مختلفة حسب مراحل تطوره منها الإنسان الماهر، والمنتصب، والإنسان الأطلس الموريتاني، والإنسان العاقل، والإنسان نياندرتال، والإنسان بكين، وسولو، والإنسان روديسيا والإنسان المعاصر، وإنسان كرومانيون، إلخ.

1-الإنسان الماهر " هومو هبيليس"

الحياة أوفى من الموت وقبل كانوا يشبهون القرد الجنوبي الصغير، إلاّ أنهم تمتعوا بدماغ حجمه ضعف حجم دماغ القرد الجنوبي تقريبا ويرجع تاريخ أقدم أحافير الإنسان الماهر "هومو هبيليس" إلى حوالي 1.900.000 سنة فقد دلّ عليه اكتشاف جزء من جمجمته وجد بالقرب من "بحيرة رودلف" بحيرة توركانا حاليا " بكينيا عام 1972 م وعرفت بأحافير "كوبي فورا" وعثر عليها من قبل "ريتشارد" ليكي وهو كيني ورمز لها بـ UR 1470 ويلي الإنسان الماهر نوع آخر يسمى :

2 – الإنسان المنتصب "هومو اركتوس" Homo erectus

وقد عاش لأول مرة في إفريقيا منذ حوالي 1.600.000 سنة فقد بلغ طول الواحد حسب تقديرات العلماء من هؤلاء البشر حوالي 150 سم وله مقدمة رأس كبيرة ومنحدرة وفك كبير وحجم دماغه أكبر بقليل من حجم دماغ الإنسان الماهر "هوموهبيليس" ويبدو أن جماعات الإنسان المنتصب قد استخدمت آلات القطايع والفؤوس اليدوية وتعلمت إشعال النار وربما كانت أول البشر الذين ارتدوا ملابس بعد التغيير المناخي، كما كان الإنسان المنتصب "هومو اركتوس" أول نوع من الجنس البشري يهاجر من موطنه الأصلي وينتقل خارج

إفريقيا وقد تم اكتشاف أحافير (Fossiles) مهمة من نوع الإنسان المنتصب في جزيرة جاوة الأندونيسية في موقع "تربيل" بالقرب من "سور أكارتا" ويرجع تاريخ اكتشافه إلى 1891م من قبل الهولندي "يوجين دوبوا" : وكذلك بالقرب من "هايد ليبريدج" بألمانيا ويرجع تاريخ اكتشافه إلى سنة 1907م من قبل العالم الألماني "أوتوسكوبتنساك" على عمق 24 متر تخت سطح الأرض وترجع إلى فترة "البلاستوسين" وهذا الموقع الرملي يعرف "مور– Mauer" بالقرب من جنوب "هايد ليبريدج Heidelberg".

يضاف إلى ذلك الإنسان "بكين Pekin" في منطقة "زهاو كاودين" قرب بكين واكتشف هذا الموقع من قبل العالم الكندي "دفيد سون بلاك Black Davidson" في 1927 م وتوالت الأبحاث بعده بين سنة 1939م و1943م وأثبتت الحفريات أن تاريخ الإنسان يرجع إلى فترة البلاستوسين الأوسط.

3–الإنسان "اطلنثروبوس موريطانيكوس" Atlanthropus-Mauritanicus

الذي اكتشفت بقاياه من قبل الأستاذ " كاميل أرامبورغ" Arambourg Camille أستاذ المتحف الطبيعي في باريس حيث اكتشف في جوان من سنة 1945م هذه البقايا عبارة عن فكيين بشريين في رمال "تغنيف" التي تقع شمال معسكر بحوالي 22 كيلومتر في مقاطعة "وهران" وقدر هذا المكتشف أن هذه البقايا ترجع إلى البلاستوسيين الأوسط وتقدر بحوالي نصف مليون سنة مضت ولي الإنسان المنتصب النوع المسمى :

4 – الإنسان العاقل " هومو سابينز" Homo Sapiens

ويبدو أن العلماء لم يحددوا ذلك الزمن أو تلك الفترة على وجه اليقين وكيف حل الإنسان العاقل مكان الإنسان المنتصب؟ حيث أن التحول قد تم في

..ال للإنسان العاقل المبكر يتمثل في مجموعة من الناس يطلق عليهم مجموعة ..نياندرتال.

5 – إنسان "نياندرتال" L'homme de Néanderthal

الذين عاشوا في فترة العصر الحجري القديم الأوسط Moyen Paléolithique وانتشروا في أجزاء من إفريقيا وآسيا وأوروبا حوالي 150.000 ... واختفى في حوالي 50.000 سنة مضت وللرجال والنساء من نوع نياندرتال ا...ام ضخمة و يبلغ طول الفرد أكثر من 150 سم ولهم دماغ بحجم الإنسان الحديث أو أكبر فقد يبلغ حوالي 1550 سم^3 بينما يبلغ حجم دماغ الإنسان الحالي حوالي 1400 سم^3 وهؤلاء النياندرتاليون اصطادوا الأسماك والطيور كما فعلوا ال... نفسه بالنسبة للحيوانات الكبيرة مثل الجاموس والفيلة وقد صنعوا الأدوات .. الشظايا الحجرية وفؤوس ونسبت إلى الثقافة الموستيرية أين اكتشفت أول ..ة في موقع جنوب فرنسا يعرف بهذا الاسم "موسترية" Le Moustier والإنسان "نياندرتال" عامة ينسب إلى موقع في وادي "نياندر" قرب "دسلدروف" بألمانيا. ا...ف عام 1856م من قبل العالمان "جوهان فوهروث وهيرمان" كما كان بعض الناس الذين عاشوا في إفريقيا وجنوب آسيا قبل أو خلال فترة الإنسان نياندرتال كانوا يشبهون الإنسان الحديث أكثر من الإنسان نياندرتال فقد كانت ...هم رفيعة ولهم أوجه صغيرة وأياديهم وأرجلهم أطول مقارنة بالإنسان النياندرتال لقد دلت على ذلك أحافير بشرية في عدة أماكن منها اثنتان يبلغ ...رهما أكثر من 130.000 سنة تم العثور عليهما في وادي نهر "أمو" جنوبي "أثيوبيا" وقد اكتشفت سنة 1967م من قبل الفرنسي كاميل رامبورغ Camille Arambourg الذي أشرنا إليه سلفا في موقع "تيغنيف" شرق معسكر و"...وبنز".

6 – إنسان "بكين وسولو"

عرف بهذا الاسم لأن هناك مجموعة أخرى من الأحافير تم العثور عليها يقدر عمرها حوالي 65000 سنة وجدت في "سولو" بجاوه لأنه اكتشف في موقع يسمى فقاندوق قرب سور كارتا في اندونيسيا في عام 1931م ويبلغ حجم هذه الجمجمة حوالي 1100سم^3 واكتشفت من قبل العالم الهولندي "س. تيرهار وأوبينورث".

7–إنسان "روديسيا" L'Homme Rhodésie

كذلك وجدت أحفورة لفرد أكثر قربا من الإنسان الحديث يسمى الإنسان روديسيا فقد اكتشف في سنة 1921 م في موقع يعرف ببروكن هيل Broken hill إلى الشمال من روديسيا قرب لوساكا في زامبيا واكتشفت من العالم البريطاني "آرثر سمث وودوارد" ويبلغ حجم جمجمة هذا الإنسان حوالي 1300 سم^3 ويعتقد العلماء أن هذه الأحفورة أقدم من أحافير الإنسان النياندرتال.

8 –إنسان المعاصر L'Homme Moderne

بدأ في الظهور منذ حوالي 40.000 سنة مضت. وجد الكثير من العظام المتحجرة تؤرخ لهذه الفترة وما بعدها وتشير كل هذه الأحافير إلى أن هؤلاء البشر المعاصرون يختلفون قليلا عن البشر المعاصرين، ويصف العلماء البشر المعاصرين باسم الإنسان المعاصر هومو سبابنز Homo Sapiens اكتشف أقدم الأحافير للإنسان المعاصر في كهف بوردر على الحدود بين جنوب إفريقيا و"سوازيلاند" ويبلغ عمرها حوالي 90.000 سنة قبل الميلاد على الأقل.

9 – إنسان "كرومانيون" L’Homme de cro - Magnon

وقد عاش في كل من شمال إفريقيا، و غرب ووسط إفريقيا ووسط آسيا وأوروبا ويبلغ طول الفرد منهم 170سم أو 182سم ويمثلون الأسكندنافيين اليوم في بنيتهم فقد تبلغ جمجمته حوالي 1660سم، قد اكتشف في بلاد الغال سنة 1823م ومثلهم مثل الإنسان نياندرتال فقد صنعوا الأدوات والشظايا واصطادوا الأسماك والطيور والحيوانات الضخمة وغيرها.

وقد يتضمن التعرف على أناس قبل التاريخ تزيد معرفة العلماء شيئا فشيئا عن أناس قبل التاريخ عن طريق دراستهم للناس الذين يعيشون اليوم في مجتمعات غير صناعية ومنعزلة مثل ما قام به العالم الأمريكي "ول ديورانت" صاحب قصة الحضارة من دراسة في إشارته في هذا الصدد قائلا : (إن الناس في بعض جزر جنوب المحيط الهادي، ما زالوا يعيشون مثل أسلافهم في فترة قبل التاريخ. ولكن العلماء يجمعون معظم معلوماتهم عن القدماء عن طريق دراستهم للأحافير وغيرها من المصادر المادية قصد التعرف على أناس قبل التاريخ. فالأثريون ينقّبون في الأرض بحثا عن الأحافير والأدوات وغيرها من الأشياء. وعلماء النبات يدرسون نباتات قبل التاريخ كما يتعرف علماء الحيوان على حيوانات تلك الفترة. أما علماء الأرض مثل الجيولوجيين فيدرسون طبقات الأرض التي توجد فيها الأحافير .وكل هؤلاء العلماء يطلق عليهم علماء الإنسان (انثروبولوجيون) إذا كان كل اهتمامهم ينصب على دراسة البشر وطرق حياتهم. ومنذ ذلك التاريخ اكتشف العلماء المخلفات التي ساعدهم على جمع تفاصيل حياة الإنسان القديم إلا أن العديد من الأسئلة مازال عالقةً حولها. فقد يزعم بعض العلماء الذين يدرسون قبل التاريخ من غير المسلمين أن البشر تطوروا من مخلوقات شبيهة بالإنسان عاشت أكثر من أربعة ملايين سنة مضت. ولكن العلماء اكتشفوا بقايا عظمية (أحافير) لعدد من مئات البشر فقط، وهي

غير كافية، هذه العيّنة لا تمدّنا بمعلومات مفصلة عن تطور البشر، وقد حاول بعض العلماء تحديد أصل الإنسان عن طريق تحليل الاختلافات في الدم والمورّثات (الجينات) بين الإنسان المعاصر والقردة الراقية. وقد اتبعوا هذا المنهج لأن العظام المتحجرة – حسب زعمهم– تشير إلى أن البشر والقردة انحدروا من جد مشترك. وتشير تحليلاتهم إلى أن أسلاف البشر بدأوا التطور في اتجاه مختلف عن اسلاف الغوريلا والشمبانزي منذ حوالي ستة أو سبعة ملايين سنة مضت. وهذه أمور ظنّية واجتهادات تفتقر إلى الأدلة العلمية اليقينية. ومن المعروف أن هذه النظرية لا يقرّها الدّين الإسلامي، وقد حدد القرآن الكريم الصورة الحقيقية لخلق البشر بدءا من آدم عليه السلام. وأقسم اللّه تعالى بأنه خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل، في قوله : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ (التين : 4) وذكر التصوير وحسن الصورة في كثير من الآيات، وقال أيضا : ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ (الإسراء : 70). وتكريم الإنسان يتمثل في خلقه على أحسن الهيئات وأكملها يمشي قائما منتصبا على رجليه ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه وجعل له سمعا وبصرا وفؤادا وعقلا ومنطقا وفضلّه على سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد خلقهم مختلفي الصور والألسنة والألوان منذ النشأة الأولى جتى يصنع الحضارة.

الفصـــل الثاني

حضارة العصور الحجريـة

- الحضارة.
- حضارة العصور الحجرية.

حضارة العصر الحجريّ القديم الأدنى.

حضارة العصر الحجريّ القديم الأوسط.

حضارة العصر الحجريّ القديم الأعلى.

حضارة العصر الحجريّ الوسيط (الميزوليت).

حضارة العصر الحجرى الحديث (النيوليتي).

عصر المعادن الأولى.

1- الحضـارة

الحضارة هي حصيلة مجهود الإنسان عبر تاريخه الطويل، نطلق اسم الحضارة على مجتمع ما تميز بطابع خاص وتجانس خاص. ولا نطلق كلمة حضارة على المجتمعات الحضارية فقط بل حتى المجتمعات البدائية لها حضارتها الخاصة بها. والفرق في القيمة فرق يتمثل في أنّ الحضارات البدائية محافظة ترجع إلى محاكاة الأسلاف أما الحضارة الراقية فإنها تقلد الأقلية الخلاّقة المبدعة من النخبة. فقد قلّد المسلمون النبي صلّى اللّه عليه وسلم والخلفاء الراشدين والصحابة والعلماء والفقهاء ومشايخ الإسلام والقادة الفاتحين في الوصول إلى الجوهر المحدد وعليه تميزت الحضارة الإسلامية وكان لابد أن تتميز بين حضارات الشرق وحضارات الغرب ذلك أنها انطلقت وسارت واستهدفت غايتها من زاوية خاصة، هي التوحيد الذي هو لبّ الإسلام وجوهره، حيث الفصل بين الخالق والمخلوق، وما يقتضي هذا من صلة هي طريق تحقيق إرادة الخالق في كونه الذي تعمره مخلوقات أكثرها مسؤولية الإنسان.

وحين التزمت الحضارة الإسلامية بالشكل الذي يفرضه الإنطلاق من مبدإ التوحيد، وما يقتضيه من تناسق وبعد عن التناقض، وحين انطلقت الحضارة الإسلامية من مضمون يلتزم بتتبع إرادة اللّه وغايته في الطبيعة، وفي المجتمع، مؤمنة بدور الإنسان في هذا الكون تحملا للمسؤولية، وتعميرا لكون الله، واستشعارا بضرورة وحدة الأمة الإسلامية، أقول حين انطلقت هذه الحضارة ملتزمة بما ذكرنا كان لها الجوهر الذي ميزها عن غيرها بالسبق والاصالة في مجالات العلوم الإنسانية والفنون. وبالتالي أصبحت لها هويتها المستقلة التي أثرت أكثر مما تأثرت بغيرها من حضارات وثقافات مختلفة.

لا شكّ أن جوهر الحضارة الإسلامية هو الإسلام. ولا شكّ أن جوهر الإسلام هو التوحيد. الذي بدأت البشرية تدرك قيمته في خلاصها عن طريق الدعوة إلى العولمة وإقامة فضاءات تلغى فيها حدود القطريات والقوميات الصغيرة وتظهر تلك الفضاءات الإقليمية وتقوم على أبعاد جغرافية واقتصاديّة وتصبح متقاربة من الناحية السياسية والثقافية على خلاف المفاهيم السابقة التقليدية التي كانت تعرف الحضارة بأنها نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون وهي تبدأ كما أشار "ول ديورانت" حيث ينتهي الاضطراب والقلق لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وإزهارها. والحضارة مشروطة بطائفة من عوامل هي التي تستحث خطاها أو تعوق مسراها وأولها العوامل الجيولوجية ذلك أن الحضارة مرحلة تتوسط عصرين من جليد فتيار الجليد قد يعاود الأرض في أي وقت فيغمرها من جديد بحيث يطمس منشئات الإنسان بركام من ثلوج وأحجار ويحصر الحياة في نطاق ضيق من سطح هذه الأرض وشيطان الزلازل ويظهر طوفان مثل تسونامي المدمر الذي زحف على منطقة آسيا في نهاية 2004م. ونحن على طموح كبير في التوسع في بناء وتشييد حواضرنا في غفوته، وربما تحرك حركة خفيفة كما تحركت في جنوب شرق آسيا فابتلعنا في جوفه غير آبه. وثانيها العوامل الجغرافية فحرارة وجفاف الأقطار الصحراوية والاستوائية وما يجتاح تلك الأقطار من جراد وطفيليات لا تقع تحت الحصر لا تهيئ للمدنيّة أسبابها فما يسود تلك الأقطار من جفاف وتصحر وقلة في مصادر المياه التي هي أساس الحياة. وفي المناطق التي تتوفر فيها المستنقعات والرطوبة التي تسبب الخمول

و الأمراض. وما تُعرف به تلك المناطق كما أشار إلى ذلك "ول ديورانت" قائلا : فقد
...مو تلك الحضارة من خلال هذا الموقع وتصل إلى نضوج مبكّر وانحلال مبكر من
...انه أن يصرف الجهود عن كماليات الحياة التي هي قوام المدنية ويستنفدها
...ميعاً في إشباع الجوع وعملية التناسل بحيث لا تذَرُ للإنسان شيئاً من الجهد
...ذله في ميدان الفنون وجمال التفكير. والمطر كذلك عامل ضروري إذ الماء وسيلة
الحياة بل قد يكون أهم للحياة من ضوء الشمس ولما كانت السماء متقلّبة الأهواء
...ير سبب مفهوم فقد قضي بالجفاف على أقطار ازدهرت يوماً بالسلطان والعمران
...ال "نينوى" و"بابل" أو قد تسرع الخطى نحو القوة والثراء بمدائن هي فيما يبدو
...مين بعيدة عن الطريق الرئيسي للنقل والاتصال مثل المدن في بريطانيا العظمى
أو خليج "ببُوجت" وإذا كانت تربة الأقليم تجود بالطعام أو المعادن وإذا كانت
أنهاره تهيئ له طريقاً هينة للتبادل مع غيره وإذا كان شاطئه مليئاً بالمواضع التي
تصلح مرافئ طبيعية لأسطوله التجاري ثم إذا كانت الأمة فوق هذا كله تقع على
الطريق الرئيسية للتجارة العالمية كما كان حال "قاو" و"تنبكتو" و"غات" و"ورقلة"
و"غدامس" و"أثينا" و"قرطاجنة" و"فلورنسة" و"البندقية"، إذن فالعوامل
الجغرافية على الرغم من أنّه يستحيل أن تخلق المدنية خلقاً إلا أنها تستطيع أن
تبتسم في وجهها وتهيئ سبيل ازدهارها. والعوامل الاقتصادية أهمّ من ذلك فقد
يكون لشعب مؤسسات اجتماعية منظمة وتشريع خلقي رفيع بل قد تزدهر فيه
صغريات الفنون كما هي الحال مع الهنود الأمريكيين ومع ذلك فإنه إن ظلّ في
مرحلة الصيد البدائية واعتمد في وجوده على ما عسى أن يصادفه من قنائص فإنه
يستحيل أن يتحول من الهمجية إلى المدنية تحولاً تاماً قد تكون قبيلة البدو كبدو
بلاد العرب على درجة نادرة من الفتوّة والذكاء وقد تبدي من ألوان الخلُق أسماها
كالشجاعة والكرم والشيّم لكن ذكاءها بغير الحد الأدنى من الثقافة الذي لا بد منه
ولتدبير اطراد موارد القوت ستنفقه في مخاطر الصيد ومقتضيات التجارة بحيث لا

وترفها وأول صورة تبدّت فيها الثقافة هي الزراعة إذ الإنسان لا يجد لتمدّنه فراغاً ومبرراً – إذا استقر في مكان يفلح تربته ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه مورداً لطعامه في هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة – وأعني بها مورداً محققاً من ماء وطعام – ترى الإنسان يبني لنفسه الدُّور والمعابد والمدارس ويخترع الألات التي تعينه على الإنتاج ويستأنس الكلب والحمار والخنزير ثم يسيطر على نفسه آخر الأمر فيتعلم كيف يعمل في نظام واطراد ويحتفظ بحياته أمداً أطول ويزداد قدرة على نقل تراث الإنسانية من علم وأخلاق نقلاً أميناً. إن الثقافة لترتبط بالزراعة كما ترتبط المدنية بالمدينةً إن المدنية في وجه من وجوهها هي رقة المعاملة ورقة المعاملة هي ذلك الضرب من السلوك المهذب الذي هو في رأي أهل المدن – وهم الذين صاغوا حكمة المدنية – من خصائص المدينة وحدها ذلك لأنه تتجمع في المدينة – حقاً أو باطلاً – ما ينتجه الريف من ثراء ومن نوابغ العقول وكذلك يعمل الاختراع وتعمل الصناعة على مضاعفة وسائل الراحة والترف والفراغ وفي المدينة يتلاقى التجار حيث يتبادلون السلع والأفكار وها هنا حيث تتلاقى طرق التجارة فتتلاقح العقول يُرهف الذكاء وتُستثار فيه للثقافة البدائية، وجدنا هناك كل عنصر من عناصر المدنية إلا عنصرين : هما الكتابة والدولة فكل أوضاع الحياة الاقتصاديّة وُضعت لنا أصولهاُ في هذه المرحلة : الصيد والسّماكة الرعي والزراعة النقل والبناء الصناعة والتجارة وشؤون المال وكذلك كل الأنظمة السياسية البسيطة نبتت جذورها في هذه المرحلة : العشيرة والأسرة و القرية والجماعة والقبيلة وكذلك ترى الحرية والنظام – هذان المحوران المتضادان اللذان تدور حولهما المدنيةً كلها – قد تلاءما وتوافقا لأول مرة في هذه المرحلة فبدأ حينئذ القانون وبدأت العدالة وقامت أسس الأخلاق : تدريب الأطفال وتنظيم الجنسين وتلقين الشرف والحشمة وقواعد السلوك والولاء وكذلك وضعت أسس الدين واستخدمت آماله ومخاوفه في تأييد الأخلاق وتدعيم المجتمع وتطور الكلام إلى

[illegible] وفوق هذا كله كانت هذه المرحلة صورة لعهد تم فيه إبداع عجيب فنظام [illegible] من فوضى وطريق بعد طريق يُشَقُّ من حياة الحيوان لينتهي إلى الإنسان المتمدن فبغير هؤلاء "الهمج" وما أنفقوه من مائة ألف عام في تجريب وتحسُّس لما [illegible] المدنيةُ النهوض فنحن مَدِينون لهم بكل شيء تقريباً، كما يرث اليافع [illegible] أو إن شئت فقل كذلك أنه اليافع المتحلّل كما يرث هذا اليافع سبيله إلى الثقافة والأمن والدّعة من أسلاف أميّين وَرَثّوه ما ورّثوه بكدحهم الطويل.

أنواع الحضارات نوعان؛ حضارة متصلة وحضارة غير متصلة :

والحضارات المتصلة في العالم القديم 21 حضارة، وهي تأخذ من [illegible] والحضارات المنفصلة ست حضارات وهي التي لا صلة لها بالحضارات التي سبقتها وقامت على مجهودها الذّاتي، والأرض المناسبة تستجيب للتحدي استجابة ظافرة إذا توجه لها الإنسان بعناية وهنا دوافع تتصل بطبيعة البيئة المناسبة وسيثير تفاعلها الخلاف من ناحية القيمة، وهو ما وصلت إليه البشرية من رقى في مظاهرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومن ناحية المنشأ هناك حضارات نهرية : كالمصرية والسومرية والصينية والهندية وهناك حضارات هضبة : كحضارة البتراء وحضارة الأناظول وهناك حضارات [illegible] كالحضارة اليونانية واليابانية، إلخ.

ويبدو من المعلومات المتوفرة لدينا عن سيرة الإنسان التي تزيد على المليون سنة، أنه لم يشتغل بالزراعة قبل 25 ألف سنة، فقد كان صيادا مولعا بالاكتساب والنهم، تشغله مؤونة الغذاء غير المؤكدة، وليستغل غنيمته قبل أن [illegible] وكان بطبيعته تلك مشاكسا ميّالا للقتال، ويتخذ أكثر من زوجة لمواجهة الأخطار، ولا تزال هذه الخصائص هي السمات الأساسية للإنسان من أجل البقاء وكانت الزراعة تحولا كبيرا في حياة الإنسان، ولعله استغرق في ذلك

2 – حضارة العصور الحجرية

أ – حضارة العصر الحجري القديم الأدنى Lower Paleolithic

عرفت العصور قبل التاريخية بالعصور الحجرية، لأن الإنسان استعمل فيها آلات حجرية تشبه تلك التي عثر عليها في أوروبا وإفريقيا وآسيا وهي عبارة عن أدوات وفؤوس حجرية، تجمع أهم المراجع المتخصصة على أن الناس عاشوا معظم العصر الحجري معتمدين كلية على الصيد وجمع النبات في غذائهم منذ نحو مليوني سنة. أما الفترة الممتدة من ظهور أوائل البشر إلى غاية 8000 ق. م. عندما عرفت الزراعة وسيلة للعيش، تسمى هذه الفترة "العصر الحجري القديم" "الباليوليتيك" وحتى بعد أن عرف الناس تأمين غذائهم من الزراعة استمر كثيرون في الاعتماد على الصيد كغذاء. وصيادو العصر الحجري الذين عاشوا بعد 8000 سنة ق. م. يسمون ناس أو شعوب العصر الحجري الوسيط " الميزوليتيك" هذا العصر عرف فيه الإنسان عدم الاستقرار بحيث عاش صيادو قبل التاريخ بمجموعات متنقلة من مكان إلى آخر بحثا عن الغذاء.

أما العصر الحجري الحديث الذي عرف ب"النيوليتيك" عرف فيه الإنسان الاستقرار، واستئناس الحيوان وتخزين المحاصيل الزراعية، وتشييد المنازل في قرى وحول الإنسان من مرحلة الجمع والالتقاط إلى مرحلة الإنتاج والتخزين وعرف كذلك الفن، كما تتفق بداية العصر الحجري الحديث كما اسلت مع تقهقر الجليد الحالي الذي بدأ حسب رأي علماء الآثار منذ سنة 10.000 قبل الميلاد في آسيا وحول سنة 5000 سنة قبل الميلاد في أوروبا، وأما في إفريقيا عامة وبلاد المغرب العربي خاصة حوالي سنة 6000 قبل الميلاد إلخ. وقد أشارت الدراسات الأثرية إلى مظاهر حضارات فترة قبل التاريخ في بلاد المغرب العربي خلال فترات قبل التاريخ فقد شهدت تعاقب عدة حضارات : وقد ظهرت خلال هذه العصور عدة ثقافات بشرية أهتم بها علماء الغرب في معظم إشاراتهم

المختلفة منها أقدم ثقافة عرفت بالأبيفيلية الحضارة السابقة للحضارة الشيلية، والحضارة الأشولية، والحضارة الموستيرية. ففي الحضارتين الشيلية والأشولية كانت المجموعات البشرية لا تبتعد كثيرا عن المناطق التي نشأت وظهرت فيها. وقسمت تلك العصور من قبل العلماء إلى أدوار منها :

وإذا تركنا جانبا التقسيمات : كالعصر الحجري. والعصر البرنزي. والعصر الحديدي لعصور قبل التاريخ واتبعنا التوقيت الزمني من الناحية الجيولوجية نجد أن الإنسان ظهر على سطح الأرض في بداية ما يسمى (في علم الجيولوجية) بالدور الرابع ـ أي عندما بدا الجليد الذي كان يغطي شمال آسيا وأوروبا وأمريكا ينحسر عن تلك المناطق وأصبح المناخ فيها دافئا وفي ذلك الزمن أي في أوائل العصر الحجري القديم الأدنى لم يكن الإنسان يتميز كثيرا عن الحيوان لقد كان يعيش كالقرود على الأشجار بلا لباس ولا مأوى. ولكن الإنسان أخذ يتميز عن الحيوان عندما بدأ يستخدم أدوات العمل، رغم أن تلك الأدوات كانت في أول الأمر بدائية جدا وتصنع بصورة رئيسية من حجر الصوان ود كان الإنسان يحصل على قوته عن طريق جمع المأكولات الجاهزة في الطبيعة من ثمار وخضر وربما حتى الفواكه وغير ذلك وعلى صيد الحيوانات المتنوعة و في حالات الجوع كان الناس يأكلون الأطفال و الضعفاء والمرضى من البشر و بما أن الإنسان كان ضعيفا أمام قوى الطبيعة اضطر أن يعيش مع غيره في مجموعة تتعاون على العمل و الدفاع المشترك و هكذا تشكلت أولى المجموعات البشرية المتحدة التي يطلق عليها اسم القطيع البشري البدائي. وكان كل قطيع بشري يضم من عشرين إلى أربعين شخصا لا تفرقة بينهم ولا ملكية خاصة لأحد منهم. كذلك لم يعرف أفراد القطيع البشري الحياة العائلية ولم تتشكل الأسرة عندهم بعد ، بل كانت العلاقات الجنسية مشاعية غير منظمة وعبارة عن غريزة بيولوجية موروثة من عالمهم الحيواني السابق وهكذا لم تعرف داخل القطيع البشري علاقات القربى القائمة على الصلات الدموية ولم

يعرف الابن أباه. ولكن كل إنسان يعيش خارج قطيع بشري معين كأن يعتبر غريبا عنه أو عدوا له لذلك كان من الصعوبة بمكان أن يعيش الإنسان وحيدا منفردا عن قطيع بشري.

أ-1 الحضارة الأبفيلية Abbevellian

تجمع المراجع الأدبية والمصادر المادية على أن هذه الحضارة من أقدم الحضارات الإنسانية فقد يرجع تاريخها إلى سنة 125000 ق. م. وكانت مشهورة من قبل الكثير من المختصين بحضارة قبل الشيلي (pré – chellean) ولفظة شيلي نسبة إلى بلدة شيل chelles التي تقع على نهر المارن. وتنسب إلى موقع "أبفيل" وهذا الموقع- حسب إشارة العلماء المختصين- وجدت به بقايا أقدم حضارة الإنسانية تتضمن عدة آلات خليطة من الحضارتين الشيلية والأشولية هذا فضلا عن الأبفيلية وكانت من أهم المراحل في حياة الإنسانية التي يفترض أن الإنسان أخذ يحاول الاستفادة بما يلتقطه من قطع حجرية وفروع أشجار من أجل الدفاع عن نفسه واستخدامها في الصيد وجمع الطعام لقوته. كما أخذ الإنسان يهذب باستمرار في أدواته.

أ- 2 الحضارة الشّيلية

ونبدأ بالكلام على أقدم أدوار النصف الأول من العصر الحجري القديم الأدنى، وهو الدور المعروف سابقا باسم "الشيلي" (Chellean)، ثم أطلق عليه حديثا اسم الدور الأبفيلي، وعين زمنه بالنسبة إلى أوربا في الفترة الجليدية الأولى، وعاش فيه كما ألمحنا سابقا نوع الإنسان البائد، المسمى الإنسان "هايدلبرغ". وفي أوربا وإفريقيا كانت صناعة الأدوات الحجرية في هذا الدور باستعمال "لب" الحجر المشظى، أي ما يعرف بمصطلح أو الأدوات القزمية (try- Coré -indus)، وقوام هذه الأدوات الفؤوس اليدوية سمجة الصنع. ومما يقال عن صناعات النصف الأول من العصر الحجري القديم في الشمال الإفريقي، أنها

ممثلة بكثرة، ويرجح كثيرا أنها أصل الصناعات الحجرية الأوربية المضاهية. بالإضافة إلى الأماكن الكثيرة التي أنتجت أدوات هذا الصنف من العصر الحجري القديم في منطقة الشمال الإفريقي، والتي سترد بعد قليل. ننوه بالحفائر الطبيعية المهمة التي أجراها "مكبرني" في الكهف المسمى "هوا فتيح" القريب من مرسى سوسة في منطقة الجبل الأخضر في ليبيا الحالية، والذي أنتج سلسلة من الأدوات الحجرية ابتداء من العصر الحجري القديم الأدنى إلى العصر الحجري النيوليثي قرب سطح الكهف. وقد استمر الإنسان في تهذيب القطع الحجرية حتى تصبح مناسبة لقبضة اليد، ولتصبح ذات حافة حادة كما اتخذ الإنسان كُتلاً من حجر الكروية الصلبة، بمثابة مطرقة يهذب بها القطع الصوانية من أحد وجهيها بعناية تامة، ويستمر يقلبها على الوجه الآخر حتى تصبح كمثرية الشكل. وعلى إثر ذلك يكون حوالي ثلث محيط هذه القطعة الحجرية حادا كالمبراة بينما يبقى الثلث الباقي بقشرته الأصلية دون تهذيب ذا شكل مستدير لتتمكّن يد الإنسان من قبضه بسهولة. وقد عرفت هذه الآلة باسم الفأس اليدوية de poin/ghand axe coup وهي عبارة عن مدية حجرية وصفة الرؤوس اليدوية المميزة للطور الأبفيلي كما قلنا إنها خشنة الصنع والتشظية وأشكال كمثرية. وهناك عدة طرق لتحديد زمن هذه الصناعة وكونها أول أدوار العصر الحجري القديم، ويسبق الدور الأشولي في التسلسل الزمني. فمن بين الأدلة غير المباشرة درس الأدوات الأبفيلية التي وجدت في منطقة أحد المحاجر قرب الدار البيضاء وقرب رأس الحنك وربطها بساحل البحر الجيولوجي القديم، وفي الموضع نفسه وجدت أدوات من الدور "الموستيري".

ب- حضارة العصر الحجري القديم الأوسط Middle Paleolithic

ويمكن ترتيب حضارة (العصر الحجري القديم الأوسط)، وقد تأتي في زمنها من بعد ظهور الأدوات الأبفيلية بحسب الدّلالة الجيولوجية التي أثبت أيضا

أن هذه الأدوات لا يمكن أن تكون متأخرة في زمنها عن الفترة الجليدية الثانية، بل المرجّح أنها أقدم زمنا من الفترة الأولى. وأكدت نتائج التحريات التي ذكرناها في كهف "هوا فطيح" هذه الاستنتاجات بصورة لا تقبل الشك في تسلسل أدوار العصر الحجري القديم الأدنى. وزودتنا نتائج التحريات التي أجريت في الموضع الأثري في قفصة (جنوبي تونس قرب شط الجريد) بسلسلة ممثلة من صناعات العصر الحجري القديم الأدنى، أي أدوات الدورين الأبفيلي والأشولي. وقد اكتشف هذا الموضع في زمن قديم عام (1887) من قبل أحد قدماء الباحثين المسمّى "كوليانان"، ثم أعقبه باحثون آخرون أعادوا التحري فيه بغية ضبط تسلسل الطبقات الأثرية، أشهرهم الباحث "فوفري".

ويبدو من المسلّم به اليوم في أغلب المراجع الغربية أن الدور المعروف بالدور الأبفيلي وصل إلى أوربا قادما إليها من شمال إفريقيا عن طريق مضيق جبل طارق ويستدل على ذلك من خلال آثاره التي اكتشفت في وسط أوربا وشرقها. كما تبين أيضا أنه لم توجد له محطة أبفلية شيلية واحدة في شمال إيطاليا. فإن معظم آثاره قد وجدت في غرب أوربا وإسبانيا[1] وبعدما وصل البشر المهاجرون إلى أوربا فقد كان من المحتمل بقاء هؤلاء المهاجرين عشرات من السنين وربما قرونا طوالا يقاتلون فصيلة الإنسان" النياندرتال" على ظهر أرض أوربا، ثم حل محله الإنسان "كرومانيون" الذي يميل بنا الظن بأنه السلف الأساسي الذي انحدر منه سكان أوربا الغربية أثناء الفترة الشيلية التي يحدد تاريخها حوالي 000. 100 سنة قبل الميلاد تقريبا يلي الدور الأبفيلي الذي تكلمنا عنه الدور الثاني من أدوار العصر الحجري القديم الأدنى، أي الدور المسمى "اشولي". وبالنسبة إلى زمنه في أوربة استغرق هذا الدور فترة طويلة من دهر البلايستوسين، فإنّه بدأ في أوربا في الفترة الجليدية الثانية، التي يقدر طولها بين 200.000 أو 190.000 عام. وانتهى تقريبا قبيل الفترة الثالثة. وهكذا يقال بالنسبة إلى طول مدة الدور الأشولى فى الشمال الإفريقى بحيث أن غير واحد

من الباحثين في عصور قبل التاريخ قسموه إلى أدوار أو أطوار ثانوية من ناحية تطور وتنوع الأدوات الحجرية الخاصة، والمعروف أنه قسم إلى ما لا يقل عن ثلاثة أدوار على ضوء النتائج التي أسفرت عنها تحريات الموضع المسمى "سيدي منصور" قرب قفصة. وأمّا أهم بقايا الحضارة الأشولية في المغرب : تعود بقايا هذه الحضارة إلى حوالي 70.000 سنة أو 75000 ق. م وأهم الإكتشافات تمّت بمواقع مدينة الدار البيضاء (وأولاد حميدة، ...). الأدوات الحجرية الخاصة بهذه الحضارة تتكون من حجر معدل، حجر ذي وجهين....

ب – 1 الحضارة الأشولية 75000 ق. م

فيبدو من تتبّعنا لخطوات الإنسان فقد لا تكاد نجد فارقا كبيرا بين هذه الحضارة وسابقاتها لا في الشكل ولا في المضمون، هذا إذا تجاوزنا وقائع الزمن فقط ظل الإنسان يستعمل الفأس اليدوية، و لكنها كانت أكثر اتقانا من الفأس السابقة الشيلية وأصغر منها جميعا ويقع تاريخ الحضارة الأشولية حوالي 75000 ق. م.

ولقد عمّت آثارها مواقع كثيرة من أوروبا والولايات المتحدة والمكسيك وإفريقيا والشرق الأوسط والشرق الأقصى، الهند والصين وهذه المرحلة من الحضارة الأشولية، لم يكتف الإنسان بتهذيب حافة الآلة بل كان يهذب سطحها كله تاركا أقل مساحة ممكنة من القشرة الأصلية في أسفل الأداة لكي يجعل شكلها متناسقا وأخذ طرفا فحسب، بل أنتجت إلى جانب ذلك أنواعا كثيرة من الآلات الخاصة كالمطارق والسندانات والكاشطات والصفائح ورؤوس السهام وسندان الرماح والمدى، وفي هذه المرحلة نستطيع أن نرى صورة تدل على مرحلة نشيطة بالصناعة البشرية، كما يكتف الإنسان باستعمال الفأس اليدوية المأخوذة من النواة وحدها بل بدأ الإنسان يستغلّ كذلك بعض الشظايا فقد اتخذ من بعض أدواته، كما استعمل بعض الآلات الخشبية والعظيمة ومن

الملاحظ على أن عدد المكاشط والمثاقب التي استخدمها كما يبدو في تلك المرحلة أن المناخ ظل على حالته السابقة من الدفء وكثرة تساقط الأمطار، وبعد ذلك تحول المناخ أخذا في البرودة والجفاف، ولهذا نجد أن بعض الآت الإنسان التي عثر عليها من ذلك العصر كانت مختلطة أحيانا ببقايا حيوانات من التي تعيش في أجواء دفينة وفي بعض الأحيان الأخرى كانت تلك البقايا مختلطة ببقايا الحيوانات من ذات العراء وهذا مما يدل على برودة المناخ، ومع ذلك يبدو أن المناخ لم يكن عموما من القسوة بمكان حتى يضطر الإنسان الاتجاه إلى الكهوف والمخابئ فقد ظل الإنسان يعيش في العراء صيادا وكان يفضّل القرب من مجاري المياه بدليل وجود معظم آثاره عندها وربما كانت شدّة البرودة أحيانا السبب الذي أدى به إلى اختراع النار واستعمالها، فقد وجدت بين أدواته مخلفات المواقد ولكنها كانت قليلة.

ويروي "ول ديورانت" في قصة الحضارة تلك القصة التي كشفت عن قدرة الإنسان العقلية أحيانا ما يطور به مكتشفات المصادفة إلى مخترعات مقصورة قائلا في هذا الصدد : "... لكن آية الإنسان العظمى هي النار، وفي ذلك أشار داورن إلى أن حمم البراكين الحارة قد يكون هو الذي علم الإنسان ما النار ويقول "اسخيلوس" إن "برومثيوس" صنع النار بإشعاله غصنا في فوهة بركان مشتعلة على جزيرة كريت أو"لمنوس" وبين آثار الإنسان النياندرتال من قطع الفحم، وقطع العظم المحترق، إذن فالنار التي صنعها الإنسان تذهب في القدم إلى أربعين ألف عام مضت وقد أعد الإنسان "كرومانيون" لنفسه آنية خاصة تمسك الشحم الذي كان يشعله ليستضئ بضوئه، وإذن فالمصباح كذلك له من العمر هذا الزمن الطويل، والراجح أن تكون النار هي التي مكّنت الإنسان من اتّقاء البرد الناشئ عن الجليد الزاحف وهي التي أتاحت له النوم في الليل آمنا من الحيوان الذي ارتعد لهذه الأعجوبة ارتعاداً يعادل عبادة الإنسان البدائي إياها، وهي التي قهرت الظلام فكانت أول عامل من العوامل التي حدّت من الخوف

وقللت منه. الإنسان أحد الخيوط الذهبية في نسيج التاريخ الذي ليست كل خيوطه ذهبا، وهي التي خلقت فن الطهي القديم الشريف، فوسعت بذلك من نطاق الأطعمة الصالحة بحيث صلحت للأكل ولم تكن صالحة له من قبل وهي التي أدّت إلى صهر المعادن والتهام بعضها البعض وهي الخطوة الوحيدة الحقيقية التي تقدّمها الإنسان في فنون الصناعة في عهد الإنسان "كرومانيون" إلى عصر الانقلاب الصناعي، ومن خلال كل ما تقدم من إشارات هامة حول اكتشاف النار بين عالم الصيادين فإنّه على ما يبدو لم يسارع الإنسان إلى استعمال النار لمجرد أن رآها تشتعل في الغابة على إثر صاعقة أو انفجار بركاني كما أوضح ذلك "ول ديورانت"[2] لكنّنا نفترض أن الإنسان قضى احقابا طويلة وهو يراقبها من بعيد بمثابة الروح الشريرة الخالصة، وأن الإنسان قد تفطن لاكتشاف النار صدفة دون فكرة مسبقة من غيره لأن اكتشاف هذا الشر ذات يوم لابد أنه فكر فيه شخصيا لكي يسخره لصالحه عن طريق إشعال النار في الغابة وإرغام الحيوانات على الهروب والخروج إلى العراء حيث يسهل عليه صيدها. وفي العصر الحجري القديم الأدنى، عرف الإنسان كيف يحصل على النار بطرق اصطناعية متعددة (عن طريق احتكاك الأخشاب أو ضرب حجارة الصوان بعضها ببعض) وكيف يحافظ على استمرار إشعالها(في البدء كان الإنسان يعرف النار الطبيعية الناتجة عن البراكين والحرائق الطبيعية). وباستعمال النار حمى الإنسان نفسه من البرد والحيوانات المفترسة، كما حصل على المأكولات المطبوخة. وهكذا كان اكتشاف النار أول انتصار للإنسان على الطبيعة وحدثا هاماً دفع بعجلة التطور الحضاري شوطا بعيدا إلى الأمام. ففي نهاية العصر الحجري القديم الأدنى، عندما تغطى سطح الأرض مرة أخرى بالجليد (فترة الجليد الثالث)، مات الكثير من الحيوانات التي لم تستطع تحمل ذلك التغير في المناخ. أما الإنسان فقد استطاع التكيف مع الظروف المناخية الجديدة باستخدامه النار في التدفئة وبتغيير مسكنه

وملجئه. قد نفترض أن الإنسان الأول كان يتجول عاريا دون لباس وبلا مسكن وكان يؤوى في الليل وفي حالات البرد والخطر إلى شجرة كثيفة الأوراق أو حفرة طبيعية. ولكن عندما حدث الجليد الثالث اهتدى الإنسان إلى مأوى باستخدامه الكهوف ملجأً ومسكنا له، كما بدأ بتشييد الأكواخ على سطح الأرض. كذلك أخذ الإنسان باستعمال جلود الحيوانات لباسا له يقيه من البرد. بالإضافة إلى صناعة النار، فقد دخل الإنسان العصر الحجري القديم الأعلى وهو يتقن إشعالها بثلاث طرق حسب ما وجدت آثاره على الجدران في معظم الكهوف التي كانت ملجأ الإنسان في تلك المرحلة.

الصورة الأولى : توحي بأن الطريقة التي قام بها الإنسان هي تمرير طرف حادّ لعصى الخيزران عبر ثقب ضيّق وتكرير التّمرير.

الصورة الثّانية : توحي بأن الطريقة التي تتم من قبل الإنسان هي بحك قطعة خشب صلبة على قطعة أخرى من الخشب اللين.

الصورة الثالثة : توحي بأن الطريقة تتم بتحريك عصى ذات طرف مدبب حركة دائرية داخل ثقب هذا الاكتشاف سخّره الإنسان لصالحه وأصبح سلاحه الخارق بدل أن كان يعتقد أنه روح شريرة.

ب– 2 الحضارة الموستيرية : 40000 ق. م

عرفت هذه الحضارة في المغرب بين حوالي 120.000و40.000 سنة ق.م ومن أهم المواقع التي تعود إلى هذه الفترة نذكر موقع والذي عثر فيه على أدوات حجرية تخص هذه الفترة(مكاشط...) وكذلك على بقايا الإنسان والحيوان.

وهذه الحضارة تدخل ضمن الدور الحجري القديم الأوسط وتتميز هذه الحضارة عن سابقتها بأن معظم أدواتها من الشظايا وهذه كانت تتشكل على

كتلة من الصخور ثم تفصل عنها بطريقة واحدة وبعد ذلك تذهب حافتّها لكي تكون أداة فعالة وصالحة للاستعمال كما أنه لا يوجد في هذه الحضارة الأدوات قليلة من النواة ومن الملاحظ أن أشكال الشظايا الموستيرية حيث بدأت تظهر فيها المكاشط الجانبية التي شظيت من أحد جانبيها فقط، وظهرت من بين أدوات هذه الحضارة رؤوس الحراب مما أدى ذلك إلى تضاؤل شأن الفأس اليدوية فقد قلت أهميتها نظرا لظهور هذه الأدوات الجديدة.

ونظرا لاشتداد البرودة وقسوة المناخ مما أدى أيضا إلى لجوء الإنسان للاختماء بالكهوف وخاصة في أوروبا، وربما اضطرته الظروف إلى التجمع والتكدس في تلك الكهوف مما ساعده في ذلك على تكوين صلات قوية لبناء نظامه الاجتماعي من خلال تعوّده على الحياة الجماعية وبذلك أتاحت له هذه الحياة فرصة الرقي الاجتماعي وتقدم في التفكير كما فرضت عليه قسوة المناخ مطالب جديدة كصنع الملابس من الجلود اتقاء من البرد.

ومن خلال البقايا البشرية التي عثر عليها في جهات كثيرة من غرب أوروبا دلت على أن الإنسان الذي صنع أدوات الحضارة الموستيرية كان مازال من ضمن السلالات التي تنتمي إلى الإنسان نياندرتال وتجمع مصارد كثيرة على الاعتقاد بأن أعدادا كثيرة هلكت لاشتداد البرد وربما سلكت طريقها من خلال مضيق جبل طارق ومالطة وصقلية وانتشرت في مناطق عديدة من إفريقيا ولكن مع هذا يبدو أن النياندرتال قد انقرض تماما بعد هذا العصر وظهر الإنسان الحديث المعروف بالإنسان العاقل Homo sapiens في العصر التالي أي في عصر الحجري القديم الأعلى ومن خلال ما تقدم الإشارة إليه فإن الحضارة الموسيرية عمت آثارها العقارات كلها وارتبط وجودها ارتباطا وثيقا ببقايا الإنسان النياندرتال وذلك في تاريخ على وجه التقريب يقع قبل الميلاد بأربعين ألفا من السنين وقلّت أدواتها وأصبحت نادرة بين الآثار القديمة

واكتشفت هذه الحضارة في جنوب فرنسا ما كان يسمّى سابقا بالدور الأسبيكي : في البحوث القديمة الخاصة بعصور قبل التاريخ في الشمال الإفريقي يدرج الباحثون القدامى دورا خاصا أطلقوا عليه اسم الدور الأسبيكي، وعدوه متطورا عن الصناعة الأشولية التي نتكلم عنها الآن. وكان أول من اقترح التسمية في أوائل العشرينات من القرن الحالي الباحث "ريغاس"، مشتقا الاسم من الموضع الذي عثر فيه لأول مرّة على الأدوات الممثلة، وهو المكان المسمى "برج سباكية" (في الأجزاء الجنوبية من ولاية قسطنطينية الجزائرية)، واعتبره كما قلنا دورا متميّزا، ولكنه متطور عن الأشولي، حيث تطورت الفؤوس الأشولية إلى ما يشبه الأدوات الخاصة بالدور السلوتري الأوربي، الذي هو أحد أدوار العصر الحجري القديم الأعلى، ورأى هذا التطور بأنه حدث رأسا من دون أن يمر بمرحلة الدور الموستيري والدور الأورفنشي. على أنه أكد أيضا أن الصناعة الأسبيكية ليست صناعة سلوترية صرفة، بل إنها تطور خاص من الصناعة الأشولية. وإن بعض الأدوات الأسبيكية الشبيهة بأوراق الغار السلوترية قد اختفت في العصر الحجري القديم الأعلى، ثم عادت إلى الظهور في العصر الحجري الحديث بهيئة متطورة. حضارتان هما الحضارة الأبفيلية والأشولية ومن ناحية أسلوب صناعة الأدوات الحجرية وأطرزتها وأشكالها يعتبر الدور الأشولي متطورا عن الدور الأبفيلي السابق. وإنّ كلتا الصناعتين الأبفيلية والأشولية من نوع صناعة "اللب" وقوام الأدوات الأشولية مثل الأدوات الأبفيلية الأقدم منها الفؤوس اليدوية، بيد أن الفؤوس الأشولية أدق صنعا وأتقن في أشكالها وهندامها. وأشكالها في الغالب "لوزية" وليست كمثرية كالفؤوس الأبفيلية. وفي الشمال الإفريقي، كما في الموضع القريب من قفصة السالف الذكر، تظهر صلة الأدوات الأشولية بالأدوات الأبفيلية بوجه واضح، بالإضافة إلى المواقع الكثيرة التي عثر فيها على الأدوات الأشولية عن طريق الحفائر، فإنه وجدت منها نماذج كثيرة في محطات عديدة سطحية في الأقسام الساحلية والداخلية.

ولكنّ باحثين آخرين، مثل "جايلد" اعتبرها من صناعات التشظية من النوع الموستيري، ولكنها دقيقة وسمّاها المثاقب الأسبيكية. أما في الوقت الحاضر فقد أهملت تسمية هذا الدور. ولعل الرأي الصحيح أن نعتبرها طورا من أطوار الدور الأشولي الذي قلنا إنه يتميز في الشمال الإفريقي بطوله وإمكان تقسيمه إلى أطوار ثانوية.

ج – حضارة العصر الحجري القديم الأعلى Upper Paleolithic

يمتد العصر الحجري القديم الأعلى بين الألف الأربعين والألف الثانية عشرة قبل الميلاد وقد اكتشفت عدة مواقع حضارية تعود إلى هذا العصر في الشريط الأوروبي المجاور للمحيط الأطلنطي، وأطلق على هذه الحضارات أسماء المواقع التي عثر فيها على المخلفات الأثرية المعنية وهذه الحضارات :

1– الحضارة الأورجناسية.

2– الحضارة السولترية.

3– الحضارة المجلدية أو المدينية.

4– الحضارة العاتيرية.

كذلك اكتشف في الاتحاد السوفياتي أكثر من 800 موقع حضاريا يعود إلى هذا العصر أيضا.

ج–1 الحضارة الأورجناسية Aurignacion

تعتبر هذه المراحل من أولى المراحل الصناعية بعد عصر الجليد، وتقع حول عام 25000 ق. م وفي هذه المرحلة تستطيع أن ترى صورة تدل على مرحلة نشيطة بالصناعة البشرية، وكانت أدواتها من أهم الثقافات المعروفة للإنسان كرومانيون وقد ظهرت في هذه المرحلة الآت من العظام منها مشابك

وصقلات وسندانات، إلخ. كما ظهر الفن الصخري في شكل نقوش غليظة منحوتة على الصخور أو رسوم بسيطة بارزة أغلبها رسوم فاضحة. ثم جاءت في مرحلة متقدّمة من مراحل تطور الإنسان كرومانيون، بقايا حضارة لثقافة أخرى وهي بقايا الثقافة السولترية.

ج-2 الحضارة السولترية solutrean

لقد ظهرت هذه الحضارة على مايبدو منذ 20000 ق. م في عامة أوروبا فقد أضيفت إلى أسلحة حضارة العهد الأورجناسي السالف الإشارة إليه وأدواته، عصي وصفائح ومثاقب ورماح وحراب، كما صنعت كذلك إبر دقيقة حادة من العظام، وهذبت هيئة آلات كثيرة من قرون الحيوانات وخاصة قرن الوعل، وقد لاحظ الباحثون أن قرون الوعل منقوشة في بعض الأحيان برسوم جسم حيوانية أرقى في صورة مهذبة بكثير من الفن في الحضارة الأورجناسي السابق. وتجمع المصادر في إشارتها إلى أن وصول الإنسان كرومانيون ذروة تطوره في مجال الصناعة، وظهور ثقافة حضارة أخرى أرقى من السابقة وهي ثقافة المجدلية.

ج-3 الحضارة المجدلنية Magdlenium

انتشرت هذه الحضارة في أغلب أنحاء أوروبا كلها حولي سنة 16000ق. م وقد ظهرت وتميزت عن غيرها من الصناعات السالفة بأنها تتكون من مجموعة كبيرة منوعة من الأواني المصنوعة في غاية الدقة والرقة من العاج والعظم والقرن وهي عبارة عن مجموعة من المشابك وإبر متواضعة لكنها تعتبر متطورة وهذه المرحلة تميزت في الفن برسوم الإنسان كرومانيون في عدة كهوف منها كهف اشتهر على أنه يعود إلى العصر الحجري الأول بالتاميرا Altamira في شمال إسبانيا التي وجدت فيه من أدق وأرقى ما صنعه إنسان ذلك العصر وهي عبارة عن قطع فنية راقية، مثل العصر الحجري القديم الأسفل الذي يقدر بحوالي

مليون سنة، ومن خلاله سنشير إلى أهم منجزات الإنسان فيه ويمكن تلخيص المظاهر الحضارية التي سادت خلال هذا الدور.

ج- 4 الحضارة العاترية

فقد أشار الباحث شارل أندري جوليان، قائلا : (ويظهر أن النماذج الموستيرية تطورت إلى أشكال مذنبة هي من خصائص عاترية، وهو نسبة إلى بئر العاتر والظاهر أنها هي نفسها تطورت في كل من الصحراء[3]. حيث أشار ريغاس إلى هذا الموقع الذي يقع جنوب شرق مدينة تبسة. كما تطورت هذه الحضارة في المغرب بين 40.000 سنة و20.000سنة وهي حضارة خاصة بشمال إفريقيا وقد عثر عليها في عدة مستويات بعدة مغارات على الساحل الأطلسي ومغارة الهرهورة والمناصرة 1و2 ....

وفي العصر الحجري القديم الأعلى ظهر الإنسان الحديث، أرقى مرتبة في الذكاء وفي التكوين الجسمي من الإنسان نياندرتال السابق، إذ ارتفعت جبهته وضمر عرف حاجبيه الشعري وتكوّر أدنى الجمجمة الخلفي ووضحت ذقنه كالإنسان الحالي. وقد تشكلت في هذا العصر أيضا العروق والأجناس فكان منها ثلاثة عروق رئيسية هي :

1- العرق الأوروبي ومنه الإنسان كرومانيون طويل القامة مستطيل الرأس وقد نشأ هذا العرق في أوروبا.

2- العرق المنغولي ومنه الإنسان شانسيلاد، قصير القامة وقد نشأ هذا العرق في آسيا الوسطى.

3- العرق النيجيري منه الإنسان غريمالدي (الذي اكتشفت هياكله العظمية في كهف غريمالدي) ذو السمات الزنجية وقد نشأ هذا العرق في إفريقيا.

إن هذه العروق الثلاثة يختلف أحدها عن الآخر بالشكل الخارجي فقط. وقد حدث هذا الاختلاف بالشكل خلال آلاف السنين تحت تأثير الظروف الطبيعية المحلية في كل من القارات الثلاث : أوروبا – آسيا – إفريقيا ولكن أنصار النظرية العرقية من العلماء يستغلون هذا الاختلاف في الشكل الخارجي بين العروق الثلاثة ليقسموا الأجناس البشرية إلى عرق راق وعرق متخلف، بينما الدراسات العلمية الصحيحة تؤكد أنه لا فرق بين عرق وآخر من حيث القدرة العقلية.

أما بالنسبة لأدوات العصر الحجري القديم الأعلى فتشير الموجودات الأثرية إلى أنه قد طرأ عليها تطور وتنوع وقد كانت تلك الأدوات تصنع من الحجر والخشب والعظم والعاج وهي الصاقلات والهاونات والفؤوس والكاشطات والمثاقب والمصابيح والمُدَى والأزاميل وأشصاص السمك وحراب الصيد والمشابك وغير ذلك.

كذلك جرى في العصر الحجري القديم الأعلى تطور اجتماعي ملموس؛ لقد حلت العشيرة محل القطيع البشري، وفي أول الأمر تشكلت عشيرة المرأة الأم، إذ كان الزواج جماعيا والابن لا يعرف أباه وإنما يعرف أمه فقط وقد ساد نظام عشيرة الأم وتبعية الأولاد للأم عدة آلاف من السنين واستمر حتى بداية العصر الحجري الحديث. وإن اكتشاف الكثير من تماثيل النساء التي تعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى لدليل واضح على أن العشيرة في ذلك العصر كانت تتبع للمرأة الأم، كما هو اليوم عند قبائل الطوارق في الجنوب الجزائري. وكان يجتمع حولها الأبناء والأحفاد إذ لم يكن هناك آباء معروفون وقد كانت المرأة تقوم بدور هام داخل العشيرة. فهي تهتم بالمسكن والموقد والأولاد وحفظ المأكولات وتحضيرها وتأمين اللباس وغير ذلك من الأمور ونستطيع أن نحدد الملامح العامة لحياة العشيرة الواحدة كما الشكل التالي : في داخل

العشيرة يسود العمل الجماعي ولكل عشيرة أرض خاصة بها ملكيتها عامة لجميع أفراد العشيرة. كذلك تسود الملكية العامة لوسائل الانتاج ولجميع المنتوجات المادية. وللعشيرة عقيدة واحدة وتسود بين أفرادها العلاقات الديمقراطية في حياتهم الاجتماعية.

د – حضارة العصر الحجري المتوسط (الميزوليت)

بانتهاء العصر الجليدي ينتهي العصر الحجري القديم – أطول عصر في تاريخ البشرية – ويبتدئ العصر الحجري المتوسط، الذي يمتد بين الألف الثانية عشرة والألف الخامسة قبل الميلاد. ومع انحسار الجليد أخذت الحيوانات الكبيرة كالماموث والكركدن بالاختفاء بسبب الصيد المستمر وتبدل المناخ. وقد ظهرت محل الحيوانات السابقة حيوانات صغيرة كالغزلان والخنازير والدببة وغيرها من الحيوانات التي عاشت في الغابات التي نمت بعد انحسار الجليد. وكانت الحيوانات الجديدة الصغيرة أسرع من الحيوانات الكبيرة السابقة، لذلك كان لابد من تبدل طرق الصيد ووسائله وهكذا ظهرت القسيّ والسهام واستخدمت في صيد الحيوانات الصغيرة السريعة لكن ظروف الصيد الجديدة بأدواته وأساليبه الجديدة دفعت إنسان العصر الحجري المتوسط للتنقل في مجموعات صغيرة من مكان إلى آخر سعيا وراء الطرائد وهكذا اضطر ذلك الإنسان أن يترك الكهوف والبيوت الدائمة وأن يبني الأكواخ من أغصان الأشجار المورقة أو يغطيها أحيانا بجلود الحيوانات وقد كان تشييد تلك المساكن سهلا وملائما لحياة الصياد المتنقل، كما كان مكانها في الغابات وعلى سواحل البحار وعلى ضفاف الأنهار حيث تكثر الحيوانات والأسماك، ومن أهم المواقع الحضارية التي تعود إلى العصر الحجري المتوسط موقع " أزيل" الذي اكتشف في فرنسا. وتمثل المخلفات الأثرية التي وجدت في هذا الموقع حضارة العصر الحجري المتوسط وطلق عليها اسم الحضارة أو الثقافة

الأزيلية. كذلك يطلق على حضارة العصر الحجري المتوسط اسم الحضارة الميكروليتية، أي حضارة الحجارة الصغيرة (ميكروليتوس) إذ أن معظم أدوات ذلك العصر كانت تصنع من الحجارة الصغيرة متطورة الصنع واكتشف الكثير من المواقع الحضارية التي تعود إلى ذلك العصر في كل من أوروبا وإفريقيا وآسيا الوسطى والهند واستراليا والاتحاد السوفييتي وفلسطين. ويعتبر العصر الحجري المتوسط مرحلة انتقالية بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث.

الحضارة الأيبروموريزية : ظهرت هذه الحضارة في المغرب منذ حوالي 21.000 سنة وتميزت بتطور كبير في الأدوات الحجرية والعظمية. أهم المواقع التي تخلد هذه الفترة نجد والتي تقع في نواحي مدينة وجدة.

هـ- حضارة العصر الحجري الحديث (النيوليتي) Neolithic

يمتد العصر الحجري الحديث بين الألف الخامسة والألف الأولى تقريبا قبل الميلاد وقد كان المناخ في هذا العصر يشبه تقريبا المناخ الحالي، كما كان عالم الحيوان والنبات فيه يشبه تقريبا العالم الحيواني والنباتي المعاصر وتميز العصر الحجري الحديث بتطورات اقتصادية واجتماعية كبيرة كظهور الزراعة وتأنيس الحيوانات وصناعة الفخار والنسيج وصقل الأدوات الحجرية بشكل جيد بالإضافة إلى ترسيخ وتطوير النظام القبلي والعلاقات القبلية.

ففي مجال الصناعة جرى تطور ملموس في صنع الأدوات الحجرية وصقلها، حتى أن علماء الآثار في القرن التاسع عشر أطلقوا على ذلك العصر اسم عصر الحجر المصقول ومن الحجارة المصقولة صنعت الفؤوس والقواطع والأزاميل والمثاقب والمناجل والمجارش والأجران والمدقّات والسهام وأسنان الرماح وغير ذلك من الأدوات كذلك اكتشف إنسان العصر الحجري الحديث صناعة الفخار وأخذ يشوي الطين في النار أو في الشمس ويصنع منه

الأواني الفخارية ليستخدمها في طهي المأكولات أو حفظ السوائل والحبوب وغيرها، ومن الصناعات الجديدة أيضا في العصر الحجري الحديث غزل الصوف والألياف ونسج أو حياكة الألبسة والأحزمة والأحذية والسلائل والحصائر والحبال والشبّاك وغير ذلك. كذلك تطورت صناعة الخشب فتحسنت الأبنية والمساكن المصنوعة من الأخشاب والطين كما تحسنت وسائل النقل المائية كالزوارق والقوارب، أما الظاهرة الثانية في العصر الحجري الحديث فهي عملية تأنيس الحيوانات وتربيتها التي نشأت وتطورت من الصيد. لقد لاحظ الصيادون أنه من الممكن الاحتفاظ بالحيوانات مدة طويلة داخل الأسوار والحظائر فتتوالد و تتكاثر مع الزمن كما أنها تصبح أليفة أنيسة لا تخاف الإنسان ولا تهرب منه . وأولى الحيوانات التي أصبحت أليفة يربيها الإنسان هي الكلاب والخنازير والماعز والأغنام ثم الأبقار والحمير والخيول فيما بعد، وقد أصبح الإنسان يستفيد من الحيوانات ليس من لحمها فقط. وإنما من صوفها وجلدها وعظامها وحليبها أيضا وكانت أولى مناطق تربية الحيوانات والرعي في سيبيريا الجنوبية والهضاب الإيرانية وفي الهضاب المجاورة لشواطئ البحر الأسود.

وكانت الزراعة أيضا من أهم الظواهر الاقتصادية في العصر الحجري الحديث وقد نشأت الزراعة في ذلك العصر وتطورت من جمع المأكولات، فالإنسان الذي كان في السابق يجمع طعامه من الخضروات والفواكه والحبوب الجاهزة في الطبيعة أخذ يلاحظ أن الحبوب التي تقع منه في الأرض تنبت من جديد. ومع مرور الزمن تعلم الإنسان أن يزرع الحبوب بنفسه فنشأت بذلك الزراعة البدائية. وكانت أهم المناطق الزراعية الأولى حول الأنهار الكبرى كالنيل في مصر ودجلة والفرات في بلاد النهرين والهندوس في الهند و"هوانغ هو" في الصين وفي بعض مناطق آسيا الصغرى والبلقان أما بالنسبة للأدوات الزراعية فقد كانت في أول الأمر بدائية أيضا ولكن مع الزمن تطورت عصا الحفر

إلى المعزقة ذات الرأس الحجري القاطع، وقد انتشر استخدام المعزقة بشكل واسع حتى أنه يطلق على زراعة العصر الحجري الحديث اسم الزراعية المعزقية. وأهم المحاصيل الزراعية التي عرفت في ذلك العصر هي : القمح والشعير والذرة والحمص والجزر. لقد مارس إنسان العصر الحجري الحديث الزراعة وتربية الحيوانات جنبا إلى جنب، ولم تعد حياته قائمة بصورة رئيسية على الصيد وجمع المأكولات، كما أنه لم يعد دائم الترحال بحثا عن غذائه الحيواني والنباتي بل استقر في أرض يزرعها ويربّي الحيوانات فيها. ولكن هذا لا يعني أن ذلك الإنسان قد ترك الصيد والجمع دفعة واحدة، بل في الواقع مر بمرحلة انتقالية ظل فيها الرجال يمارسون الصيد بينما تمارس النساء الزراعة المعزقية لأنها أسهل عليهن من عملية الصيد المضنية، و هكذا كانت الزراعة في أول الأمر من عمل النساء. ولكن عندما تطورت الأدوات الزراعية وحلّ المحراث الثقبل الذي تجره الحيوانات محل المعزقة أصبح الرجل هو الذي يمارس عملية الزراعة لأن استعمال المحراث وشده إلى حيوانات تجره تطلّب قوّة عضلية أكبر من قوة النساء المحدودة أمّا النساء فقد تفرّغن بعد ذلك للأعمال المنزلية بصورة رئيسية. وقد ترتب على ذلك التحول الاقتصادي تحول اجتماعي إذ أصبح الرجل سيد الأسرة بعد أن كانت المرأة سابقا في المكانة الأولى داخل الأسرة، ولقد أدت عملية الزراعة وتربية الحيوانات إلى إمكانية ادّخار الفائض من الإنتاج الذي يزيد عن الاستهلاك وهذا أدى بدوره إلى عملية التبادل التجاري بالمقايضة بين المحاصيل الزراعية من جهة وبين الحيوانات ومنتجاتها من جهة أخرى ونتيجة للاستفادة من الإنتاج الفائض أصبح أسرى الحروب يحولون إلى عبيد يستفاد من جهودهم في زيادة الإنتاج بعد أن كانوا يقتلون في مرحلة حياة الصيد إذ كان لا فائدة من استخدامهم وفي العصر الحجري الحديث ساد النظام القبلي وترسّخت العلاقات القبلية، لقد اتخذت عشيرة الأم تنقسم إلى عدة بطون، ويشكل كل بطن فيما بعد عشيرة جديدة. ومن أسباب

انقسام العشيرة الواحدة إلى عدة بطون، ازدياد عدد أفرادها بشكل لم تعد الأرض المخصصة لها تكفي لإعالتهم. وكانت البطون المنفصلة عن عشيرة الأم تحتلّ أرضا جديدا تعيش منها ولكنها ظلت على صلة مع العشيرة الأساسية الأولى وحافظت على اسمها ولغتها وعاداتها، وقد كانت البطون والعشائر التي تربط بينها قرابة الدم تشكل قبيلة كبيرة واحدة. وفي ذلك المجتمع القبلي سادت العلاقات الديمقراطية بين أفراد القبيلة الواحدة، كما سادت المساواة في الحقوق والواجبات وفي توزيع الإنتاج وكان الاجتماع الشعبي العام الذي يضم جميع أفراد القبيلة من الرجال والنساء أعلى سلطة في القبيلة وفي ذلك الاجتماع الشعبي كان الحاضرون ينتخبون أو يعزلون الزعماء ويقررون أمور الحرب والسلام ولم تكن رئاسة القبيلة وراثية بل ينتخب لهذا المنصب الأكفأ والأجدر وقد ساد التعصب بين القبائل المختلفة فأي ضرر تلحقه قبيلة بأخرى كان لابد من الثأر له مما أدى إلى نشوب الحروب بين القبائل باستمرار وكان الزواج في ذلك المجتمع يتم باتفاق الأمهات والزوج يترك أسرته ليعيش في اسرة زوجته التي تديرها أمها أو جدتها.

يلي هذا العصر من الناحية الكرونولوجية الفترة الأيبروموريزية وقد تطور في المغرب حوالي 6000 سنة ق.م. تتميز هذه الحضارة بظهور الزّراعة واستقرار الإنسان وتدجين الحيوانات وصناعة الخزف واستعمال الفؤوس الحجرية... في المغرب هناك عدة مواقع عثر فيها على هذه الحضارة ونذكر على سبيل المثال : وغار الكحل ومغارات الخيل.(4) ...

وقد تبدو معالجة المصادر الأساسية التى يعتمد عليها المؤرخ فى دراسة مرحلة ماقبل التاريخ. إن إعادة رسم صورة لبعض مظاهر نمط الحياة، والعلاقات الإجتماعية، وأشكال التنظيم الاجتماعى تشكل معضلة صعبة ومعقدة بالنسبة لمرحلة ماقبل التاريخ حيث ينحصر تعامل الباحث فقط مع

المعطيات الأثريّة "البكماء". ومن اهتم من الكتاب لا بمعالجة المصادر الأثريّة فحسب بل بالمصادر الأثنوغرافية كذلك. كما حاول المؤلف تقديم عرض وافٍ لمفهوم علم الآثار ومناهجه وأساليب بحثه وكذلك شرحاً لمفهوم الأثنوغرافيا وقضاياها. وبالنسبة للمؤرخ فإن العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث لا يشكّلان مجرّد "عصر للحجارة المشذبة" و"عصر للحجارة المصقولة"، وإنما يشكلان مرحلتين فى تطور البشرية البدائية، مرحلتين مختلفتين من حيث تطور القوى الإنتاجيةً. إلا أنّ ذلك التقسيم المرحلي"الأثريّ" حتى فى حالة النظر إلى تفاصيله بحسبانها مراحل لتطور التقنية والاقتصاد والثقافة البدائية، يظل ضيقاً وغير مكتمل نسبياً فى معظم كتب الجغرافيا التاريخية والأنثروبولوجيا العامة. ومن ثمّ فإن التقسيم الحقيقى للتاريخ البدائى لا بدّ أن يشمل بالضرورة تطور العلاقات الاجتماعية وتطور أشكال التنظيم الاجتماعىّ كمراحل لتطور أسلوب الإنتاج الاقتصادي هذا كما أوضح. د. "أسامة عبدالرحمن النور" في"دراسة فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية والثقافية".

و – عصر المعادن الأولى

كما كان من الطبيعي أن يتجه إنسان الدور الحجري الحديث إلى تحسين انتاجه وأن يبحث عما يهيّئ له من الرفاهية واقتصاد بعض الجهد في عمله، وسواء كان توصلّه إلى استخدام المعادن قد حدث عن طريق الصدفة البحتة أو عن طريق التجربة فإنّه أخذ يستغلها في أغراضه وانتقل إلى دور بدء استخدام المعادن. لكن متى بدأ الإنسان يستخدم المعادن؟ عامة على وجه التقريب كانت بداية ظهور المعادن مع نهاية العصر الحجري الحديث ويبدو من خلال الآثار للعصور السابقة أن التاريخ المحتمل لذلك حدّد مابين 6000 سنة قبل الميلاد إلى 40000 ق.م وهناك من يرجع ذلك 40.000 سنة على أقل تقدير وربما لمليون عام.

وكان أول نوع من المعادن التي استخدمها الإنسان الذي يمتاز بالليّونة في الاستخدام في الأعراض المختلفة هو النحاس. الذي اكتشف في منطقة مابين النهرين (دجلة والفرات) سنة 4500 ق. م ولا نستطيع تحديد تواريخ مضبوطة لذلك، ومن المرجّح أيضا أن المعادن قد بدأت في الظهور بعد اكتشاف النار مباشرة، لأن تحويرها بواسطة النار والطرق تنبه إليه الإنسان في فترة مبكرة من حياته بحيث سخّرها على ما يبدو وما تلائم غايته وقد يشير "ول ديورانت" إلى ذلك قائلا : ويعتقد علماء المعادن أن أول استعدان للنحاس من مناجمه الحجرية جاء بفعل المصادفة حين أذابت نار أوقدها الناس ليستدفئوا، نحاسا كان لاصقا بالأحجار التي أحاطوا بها النار، ولقد لوحظت أمثال المصادفة مرارا في اجتماعات البدائيين حول نارهم في عصرنا هذا و من الجائز أن تكون هذه الحادثة العابرة هي التي أدّت بالإنسان الأول في نهاية الأمر بعد تكرارها مرات كثيرة ذلك الإنسان الذي لبث أمدا طويلا لا يساوره القلق في استعمال الحجر الصلب أن يجعل من هذه المادة المرنة عنصرا يتخذ منه آلاته وأسلحته، لأنها أسهل وأيسر من الحجر صناعة وأدوم بقاء. وتشير أهم المراجع على أن الأغلب في الاحتمالات المؤكدة أن يكون المعدن قد استعمل منذ ظهوره بالصورة التي قدمته لنا يد الطبيعة وذلك نقيا حينا. وقد يكون مشوّها أحياناً لأن يد الطبيعة قد تحمل فيها سخاء وبها اهمال في آن واحد غير أن المعادن قد مرت في فترة ماقبل التاريخ بعدة مراحل هامة.

أولا : تعلم الناس فن صهر المعادن واستخراجها من المناجم كما ذكر "مارتن ليفي" سنة 3500 ق. م في منطقة مابين النهرين دجلة والفرات، وكان من أهم المصادر التجارية بين الجزر في الخليج العربي، وخصوصا تلك الجزيرة التي كانت تدعى "ديلمون" في العهود القديمة وبين "أور- سومر" وكان النحاس يجلب إلى أمور مقايضة بالقماش والملابس الجاهزة.

ثـــانيا : واصل انتشار المعادن قبل 1500ق. م إلى مصر كما دلت عليه الآثار في مقبرة "رخ مارا" في مصر حيث كان المصورون المصريون يصبّون النحاس في إناء من الطين أو الرمل ثم يتركونه يبرد على الصورة التي يريدونها، مثل رأس يتركونه يبرد على الصورة التي يريدونها، مثل رأس الرمح أو الفأس هذا حسب تعبير "ول ديورانت" الذي أشار قائلا في هذا الصدد : "فلما أن كشف الإنسان عن هذه المعادن في النحاس، استخدمها في مجموعة منوعّة من المعادن الأخرى، وبهذا توفر للإنسان من العناصر القوية ما استطاع به أن يبني أعظم ما يعرف من ضروب والهواء ومن الجائز أن كثرة النحاس في شرقي البحر المتوسط هي التي تسببّت في قيام ثقافات جديدة قوية في الألف الرابعة قبل الميلاد في "علام" وبين النهرين ومصر وامتدت من هذه الأصقاع إلى سائر أجزاء المعمورة فتلتها حالة بعد حالة. وأما ما دل على تطور الإنسان فكريا، يتمثّل في مزج وخلط المعادن بعضها ببعض حتى يحصل على مركبات أصلح لأغراضه، وهذا الكشف على ما يبدو وقد اهتدى إليه الإنسان منذ خمسة آلاف عام تقريبا. وفي بلاد المغرب العربي يرجع هذا العصر إلى حوالي 3000 سنة ق. م وأهم مميزاته استعمال معدني النحاس ثم البرونز وأهم خصائصه ما يعرف بالحضارة الجرسية ثم حضارة عصر البرونز.

الفصل الثالث

المدنيات القديمة

- التطورات في التقنية
- البيئة الطبيعية للمدينة
- التنظيم الاجتماعي للمدينة
- النمو السكاني للمدينة
- أهم المدن القديمة
- تاريخ الكتابات القديمة

تمهيد

تتفق معظم الإشارات على أن مصطلح المدنية مشتق من لفظ المدينة التي يعيش فيها مجتمع تعداده بآلاف أو ملايين من الناس ويعملون. والمدن أكثر بقاع العالم ازدحاما. بعدما بدأت وتطورت من مستوطنات دائمة منذ حوالي 10.000 سنة قبل الميلاد بالرغم من احتمال أن تكون حياة البشر قد بدأت منذ حوالي مليوني عام قبل ذلك. وقد سمي الرجال والنساء الذين أسسوا المستوطنات القديمة أناس العصر الحجري الحديث "النيوليتي" وقبل أن يبدأ هؤلاء الناس في العيش في مستوطنات دائمة، كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر لصيد الحيوانات وجمع النباتات للطعام. كان رجال العصر الحجري هم المزارعون الأوائل. وبهذه الصفة لم يكونوا بحاجة إلى التنقل للبحث عن الطعام وبدأوا يستقرون بالقرى.

وفي حوالي عام 3500 ق. م، كان عددا من قرى العصر الحجري قد تحولت إلى مدن صغيرة. ومنذ أن ظهرت المدينة الأولى، أنشأت شعوب كثيرة مدنا عدّة في أماكن مختلفة ولأسباب عديدة، اختلفت هذه المدن في الحجم والشكل، واتخذت لها نظما اقتصادية وحكومية واجتماعية مختلفة، لكن المستوطنات المستديمة البشرية سواء قرى العصر الحجري أو المدن الكبيرة فيما بعد كانت تختاج في تكونها ونموها لأربعة ملامح هي :

أ – التطورات في التقنية

تشير كلمة التقنية إلى الاكتشافات والابتكارات التي ساعدت الناس لكي يحسنوا أسلوب حياتهم، إن تطوير المهارات الزراعية كان في الماضي هو التقدم التقني الذي أدى إلى إنشاء المدن. بحيث عرف رجال العصر الحجري

الحديث كيف يزرعون المحاصيل، واخترعوا الأدوات التي حسنت من أساليبهم الزراعية. وكذلك استنأسوا الحيوانات التي كانوا يستخدمونها في أعمالهم، وتعد مصدرا من مصادر الطعام .ونتيجة لهذا الفائض من الطعام انصرف كثير من الناس إـى أعمال أخرى غير الزراعة، وأصبح بعضهم ماهرا في الحرف، فصنعوا السلال والأقمشة والمصنوعات الجلدية والأدوات والمصنوعات الأخرى. وأصبح آخرون يعملون في المناجم يحفرون الأرض بحثا عن الصوان والمعادن والحجارة. وكان العاملون من غير المزارعين يكتسبون رزقهم بالاتّجار في الأشياء التي كانوا يصنعونها للمزارعين مقابل ما عندهم من المحاصيل الفائضة. وقد جعل التقدم التقني عبر السنين أناسا كثيرين قادرين على أن يعملوا بغير الزراعة. وهؤلاء هم الذين أنشأوا المدن في العالم وعمّروها. وقد أثر التقدم التقني على حياة المدينة عبر التاريخ.

ب – البيئة الطبيعية للمدينة

تشمل موقعها ومناخها ومدى توافر الماء والطّعام بها. فقد أنشئت المدن في بيئات كثيرة مختلفة، لكن تطورها اعتمد على سمات بيئية مساعدة، فلابد أن يوجد بكل المدن قدر كاف من مياه الشرب. وقد كانت المجتمعات الزراعية الأولى في حاجة إلى كمّيات مناسبة من مياه الأمطار لزراعة المحاصيل. كما أن التربة الصالحة أساسية أيضا في زراعة المحاصيل، وقد يكون القرب من مصادر الطعام الأخرى كالحيوانات والخضروات النافعة عاملا مساعدا. وتشمل المظاهر البيئيّة الأخرى التي ساعدت على تطور المدن الطقس المعتدل المناسب، والتموقع بجوار المواد التي يمكن أن تستخدم في صناعة الملبس والمسكن. ولقد وجدت المجموعة البشرية الأولى مظاهر بيئية كثيرة مشجّعة في الأودية النهرية في المناخات شبه المدارية. وتقع بعض القرى والمدن الأولى في وادي دجلة والفرات في العراق، ووادي النيل بمصر

والسودان، ووادي هوان هي(النهر الأصفر) بالصين، ووادي نهر السند بالهند وباكستان. وساعدت مظاهر بيئية أخرى في تطور المدن عبر السنين، فمثلا كان النّاس يسافرون منذ القديم بالسفن كالفينقيين ليتاجروا مع الأمم الأخرى. وقد أصبحت معظم المدن التي أسّسوها تتاخم مساحات واسعة من الماء مراكز تجارية مهمة مثل عتيقة وقرطاج وإيكوزيوم الجزائر الحالية، إلخ.

ج – التنظيم الاجتماعي للمدينة

لا بد من وجود قواعد سلوكية معيّنة لكي يستقيم النظام والسلام والأمن في أي مجتمع. وقد أجمع كثير من الناس منذ العصر الحجري على أنه من الخطإ إيذاء أو سرقة أحد من مجموعتهم. وبالمقابل توقّع الناس أن يخترم الآخرون حقهم في السلامة والتملك. وللنّاس واجبات نحو مجموعتهم ككل. وقد قاتلوا في معظم العصور الحجرية لحماية مجموعتهم من الأعداء. كما أن حفظ النظام لأيّة مجموعة يتطلب أيضا وجود نوع من السلطة. ففي العائلة، يبسط الآباء سلطانهم على أبنائهم. وفي المجموعات الاجتماعية الكبرى التي تشمل المدن، لابد أن يلتزم المواطنون بسلطة الحكومة. لقد كان لقرى العصور الحجرية تنظيم اجتماعي بسيط؛ فقد كان لزاما على الناس أن يحترموا حقوق بعضهم، وكان على الأطفال أن يطيعوا آباءهم. وقد كان بكثير من القرى عدد قليل جدا من المسؤولين الحكوميين. وربما قام أحد أفراد القرية بحراسة فائض الطعام، وربما كان هناك رأس مدبر للدفاع ضد الغزاة.

د – النمو السكّاني للمدينة

لقد عاش في العصر الحجري الحديث حوالي 10 أو 20 مليون نسمة فقط. بينما فيما بعد أدى الانفجار السكاني إلى زيادة في حجم المدن وعددها. وقد زادت الكثافة السكانية في أجزاء صغيرة من الأرض. وهذه الأجزاء هي المدن وما حولها من المناطق. كما كان على ما يبدو عامل آخر يعرف بتنوع السكان

وهذ العامل لم يكن معروفا من قبل وهو حركة السكان وتجمعهم في تلك المدن من خلفيات ثقافية مختلفة تنزح باستمرار نحو المدن. وبمرور السنين، أخذت المدن تضمّ أناسا من أعراق وأديان وقوميات ومجموعات لغوية مختلفة. وقد نتج عن ذلك اختلاط الناس ببعضهم انتشار ثقافي، وهو الإجراء الذي، يتعلّم البشر من خلاله تبادل الآراء من منذ فترة قبل التاريخ. بغض النظر عن اختلاف مشاربهم وتنوع ثقافاتهم ويعد الانتشار الثقافي من أشد العناصر أهمية في تطور الحضارة والانتقال من مرحلة الهمجية إلى المدنية.

هـ – أهم المدن القديمة

لقد انقرضت معظم المدن القديم منذ مئات السنين قبل أن تتطور قرى العصر الحجري إلى مدن. وتجمع المصادر التاريخية على أن المدن الأولى قد ظهرت حوالي سنة 3500 ق. م. في بين النهرين دجلة والفرات وعرفت بالمدن السومرية. التي سأتعرّض لها ضمن موضوع حضارات الشرق الأدنى القديم بشيء من التفصيل أكثر. كما تطورت القرى المصرية في وادي النيل إلى مدن سنة 3000 ق. م. وكما صارت القرى بوادي نهر السند مدنا حوالي سنة 2500ق. م. وبدأت المدن الصينية في الظهور حوالي منتصف القرن السابع عشر قبل الميلاد بينما تطورت قرى الهنود في وسط أمريكا إلى الحدث الأول في القرن الثالث ق. م.

غير أن المدن القديمة قد اختلفت عن قرى العصر الحجري من نواح متعددة حيث كانت المدن أكبر وكانت بها مبان عامة وكبيرة تشمل معابد وأماكن لتخزين الحبوب والأسلحة.

كما كان عدد الناس بالمدن أكبر منه بالقرى واجتذبت إليها أناسا من خلقيات متنوعة، واختلف عمل أهل المدن عن عمل أهل القرى فقد كان معظم العاملين من أهل القرى مزارعين. وكان بعض من أهل المدن يقومون بزراعة الأرض خارج المدن، لكن معظمهم كانت لهم أعمالاً لاعلاقة لها بالزراعة وقد

ازداد في المدن عدد الحرفيين والعمال الحكوميين بالمدن الأولى وظهرت بها مجموعات جديدة من العمال وهم التجار والباعة وأما من ناحية وصف المدينة القديمة فقد كانت تغطي مساحة أقل من 2.5 كم^2 وكان معظم سكانها يعيشون بالقرب من مصادر المياه بالمدينة، لأنهم كانوا يحتاجون لنقل المياه وحملها إلى أماكن ربما تكون بعيدة بأنفسهم لأنها تختلف عن مدن العصر الحاضر وقد كانت معظم المدن القديمة محاطة بالأسوار لحمايتها من الأعداء كما ساعدت بعض الجبال في حماية بعض المدن القديمة. وكانت المنطقة الوسطى من معظم المدن القديمة تحتوي على مكان للعبادة، وقصر الحاكم "الملك". ومخزن للطعام. وكانت هذه المنطقة الوسطى-Centre Ville- في بعض المدن محاطة بسور يمنع الأعداء والجوعى من دخول هذه المنطقة الهامة. وكانت المنازل في المدينة القديمة تبدو مزدحمة مع بعضها حول المنطقة الوسطى. وكانت الصحة تمثل مشكلة كبرى في المدن القديمة التي كان معظمها لا يملك نظاما للتخلص من الفضلات. وعلى إثر ذلك كثيرا ما انتشرت أمراضا فتّاكة كالطعون والكوليرا، إلخ. وكان الناس يرمون القمامة وبعض الفضلات ببساطة في الشوارع أو يجمعونها خارج سور المدينة. ونتيجة لذلك كانت الأمراض تنتشر بسرعة وكانت معدّلات الوفاة في ارتفاع، وكانت الشوارع الضيقة غير مرصوفة تتحول إلى بحار من الطّين عند نزول الأمطار. وقد بلغت بعض المدن القديمة درجة رفيعة من التقدم والثراء. فقد كانت مدينة أور، أحد المدن الأولى التي أنشأها السومريون حوالي 3500 ق. م. وقد شكل سكانها مجتمعا متجانسا، لأن سكانها كانوا ينتمون إلى نفس الخلفيات العرقية والجغرافية، ويشتركون في الاعتقادات الدينية والسمات الثقافية. وكان سكان المدينة القديمة ينقسمون إلى عدة طبقات وهي :

1 – الطبقة العليا من الحكّام والمسؤولين العسكريين وكبار القساوسة.

2 – الطبقة الدنيا : تشمل المزارعين والحرفيين والتجار.

3 – أدنى طبقات المجتمع في المدينة القديمة، القادمون الجدد خصوصا العبيد، وأولئك المنحدرون من مشارب تختلف كثيرا عن تلك التي تميز المواطنين الأصلاء. كان القادمون الجدد يعاملون كمنبوذين، ويجبر معضمهم على العيش في أقسام منفصلة من المدينة. كما كانوا يسكنون في أكثر مساكن المدينة سوءا، ويعيشون على قليل من الطعام واللباس وبلا تعليم. وكانت العائلات والأسر من الطبقات العليا تسكن في منازل فخمة، بينما معظم الناس من العامة يسكنون في مساكن تتكون من حُجرة واحدة صغيرة أو حُجرتين. وفي جميع الطبقات قديما كان الأطفال والآباء والأجداد والأقارب الآخرون في كثير من العائلات يعيشون في نفس البيت. بالرغم من أنّ هؤلاء ينتمون إلى تركيبة العائلة الأمتدادية، وقلّما توجد العائلات النّواتية. وفي معظم المدن القديمة كان أطفال العائلات من الطبقات العليا فقط يتلقون تعليما رسميا. أما الأطفال من الطبقات الأخرى فكانوا يتعلمون حرفة أبائهم عادة، أو لا يتلقون تعليما مطلقا. كانت البنات من الطبقات كلها يتعلمن معظم الوجبات المنزلية من أمهاتهن.

و– تاريخ الكتابات القديمة

لا أحد يجزم كيف ومتى ظهرت الكتابة بدّقة؟ ولم يستطع أي باحث التوصل إلى رصد وحصر الأدوات التي طورتها بالضبط وسهلت التعرف على أهم رموزها بوضوح إلى أن دونت من قبل السومريين والمصريين والفينيقيين والعرب ونزل بينهم القرآن الكريم، بما فيه من إعجاز وبلاغة وبيان وقدرة فائقة على التعبير والإيحاء، ومن غير المعقول أن يكون العرب الجاهليون يجهلون التدوين وهم الذين عاشوا في وسط كان سكانه أول من أوجد الكتابة، وأول من اخترع الأبجدية، وأول من دّون كتابته وحفظها، ثم كان أول من عرف المكتبات.

1 – أهم مراحل تطوّر الكتابة قبل الأبجدية

لقد تبين أنه من المستحيل أن يستطيع الإنسان مهما اتسعت معارفه أن يحيط بنشأة الكتابة القديمة الأولى إحاطة تامة تطمئن إليها نفسه بعد اختراعه الكتابة منذ حوالي 5500 سنة تقريبا. غير أن نشأة الكتابة والتدوين للغة لم تظهر بوضوح كوسيلة لتسجيل الأفكار ونقلها إلا في الألف الرابعة قبل الميلاد تقريبا. ولم يكن للكتابة مكان أصلي واحد نشأت فيه، وإنما نشأت الكتابة في أماكن متعددة كبلاد بين النهرين ومصر والهند والصين. وقد مرت الكتابة بعدة مراحل متوالية إلى أن وصلت ما وصلت إليه، ففي المرحلة الأولى كانت الكتابة تصويرية، أي برسم الصور الحقيقية للأشياء التي يراد التعبير عنها، كرسم صورة الشجرة للتعبير عن الشجرة ورسم صورة الشمس للتعبير عن الشمس ورسم صورة حيوان للتعبير عن حيوان معيّن. وفي المرحلة الثانية أصبحت الكتابة فكرية، أي أصبحت الصور تنقل أفكارا معيّنة. فمثلا صورة القدمين تعبر عن فكرة المشي، وصورة الحجر تعبر عن فكرة الصلابة والصورة المكونة من عدة خطوط متموجةّ تعبر عن فكرة سيلان الماء وهكذا... أما المرحلة الثالثة فقد أصبحت الكتابة صوتية، أي أصبحت بعض الصور تعبر عن أصوات معينة. وقد ربطت تلك الصور بأسماء مكونة من مقطع واحد، ثم جمعت عدة صور لتكوين كلمة مؤلفة من عدة مقاطع. أما المرحلة الرابعة فقد جاءت الكتابة ذات المقاطع، إذ فقدت الصورة مدلولها الأصليّ وأصبحت ثانوية بالنسبة للكلمات الملفوظة. وقد أخذت تجمع عدة صور لتشكّل كلمة لفظية وكل صورة أصبحت مقطعا من الكلمة. ثم جاءت الكتابة الأبجدية في المرحلة الخامسة، وهنا أصبحت الأصوات تمثّل بحروف وليس بمقاطع أو صور، وصار الحرف الواحد يستعمل في كثير من الكلمات. وأول من اخترع الحروف الأبجدية هم الفينيقيون، ثم أخذها عنهم الإغريق والرومان والآراميون والفرس والهنود والصينيون والعرب وغيرهم من الشعوب.

وهذه الفترة التي بدأ فيها الإنسان في تسجيل تاريخه من خلال التدوين والكتابة التي تعتبر إحدى أهم وأبرز مراحل تحول الإنسان الحضاري. وأولى الخطوات النوعية التي منحته صفته الإنسانية عبر التواصل الذي حققه هذا الكائن مع سائر الموجودات من جهة ومع البعد الزمني والتاريخي لأسلافه وأحفاده من جهة أخرى؛ حيث أن هذا الربط هو من عوامل التوسع المعرفي للإنسان وتراكم خبراته وذلك لانقضاء أزمان بعيدة تغشاها الظلمات ويكتنفها الغموض الكثيف. من هنا كانت أقوال الدارسين ولباحثين حول نشأة الكتابة. وتجمع الإشارات التاريخية على أن أول من وضع اكتابة والخط هو سيدنا آدم عليه السلام فقد كتبها في الطين وقام بتجفيفه قبل موته بثلاثمائة عام ثم بعده سيدنا إدريس. هذا كما أوضح الباحث "فوزي سالم عفيفي" في قوله : "أن التي تكلم خلق آدم بث فيه أسرار الحروف. ولم يبث ذلك في أحد من الملائكة. فخرجت الأحرف على لسان آدم لفنون اللّغات المختلفة التي تكلم بها أولاده من بعده وقيل أن الخطوط كلها أنزلت على آدم في إحدى وعشرين صحيفة" (5). وأن هناك نصوصا قاطعة كتبت باللغة العربية اللسان الأول للإنسانية هذا كما أشار الباحث "أنور الجندي" قائلا : "وهي اللغة العربية الصريحة بقطع النظر عن تعدد لهجاتها وبعدها قليلا أو كثيرا عن الفصحى على ما تدل عليه آثار وأسماء وأعلام ونقوش السبئيين والحجريين والنبطيين والتدمريين واللحيايين والثموديين والصويين، العائدة إلى الحقبة الممتدة من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الخامس بعده... (6) ويضيف الباحث "فوزي سالم عفيفي" في إشارته قائلا : "قد روى مسلم : كتب نبي من الأنبياء بخط وافق خطه فذاك والمراد بالنبي هو سيدنا إدريس وبالخط هو خط الرمل؛ والمعنى أن سيدنا إدريس هو أول من عمل على نشر الكتابة في الذرية لأنه تعلم من سيدنا آدم عليه السلام الذي عاش 308 سنة. ثم بعد ذلك سيدنا نوح الذي كان يعرف الكتابة ثم من بعد ذلك سيدنا إسماعيل بن إبراهيم (عليهم جميعا السّلام). وعن ابن عباس رَضي اللّه عنهما أن أول من

كتب بالعربية ووضعها هو إسماعيل بن إبراهيم لأنه يقال أن اللّه أنطقه بالعربية المبينة وعمره 24 سنة ثم سيدنا سليمان بن داود كتب الكتاب لبلقيس ملكة سبإ وحمله طائر الهدهد[7]... مع التطور التاريخي لحياة الإنسان وتداخل المجتمعات مع بعضها بعض وترابطها، وجد نفسه غير (أي الإنسان) قادر على التفاهم مع الغير من المجتمعات الأخرى، ولذلك بذل قصارى جهده في إيجاد الوسيلة التي يستطيع عن طريقها التواصل والتفاهم مع تلك المجتمعات، ولذلك هداه التفكير إلى اختراع الكتابة التي من خلالها يستطيع أيضا حفظ نتاجه الفكري وتراثه الثقافي والعلمي من الضياع والاندثار. وقد مرت الكتابة بعدة مراحل زمنية قبل أن تبلغ القبول والسهولة في الاستخدام؛ فقد بدأت على شكل صور تدل على معانٍ ومدلولات ملموسة في الحياة اليومية، وقد تم العثور على بعض النقوش والصور عمرها 35000 سنة في كهوف "لاسكو" في فرنسا و"التاميرا" في إسبانيا، ولأن لغة هؤلاء القوم كانت بدائية، فلم تكن هناك حاجة لتطوير كتابة خاصة بهم كما تم العثور على الكثير من النقوش والصور والرموز الدالة على معانٍ معيّنة في منطقة الهلال الخصيب وبالتحديد مع الحضارة السومرية وذلك قبل حوالي 5500 سنة. وقد دلت هذه النقوش والرموز على تطور الكتابة عندهم حيث عرفت كتابتها. بالمسمارية أو الإسفينية. وقد كانت الكتابة في بداية عهدها عبارة عن صور توحي تمامًا بما رسم فيها. وفي مرحلة أكثر تقدّما تطورت إلى صور رمزية توحي بمعنى معيّن. وتم العثور على حوالي 2000 صورة رمزية، ومماً لاشك فيه أن هذه الرموز كانت صعبة الفهم لعامة الناس، فسارعوا إلى استعمال رموز توحي بأصوات معيّنة، وهذه الرموز الصوتية كانت خطوة أساسية إلى الأمام في تطوير الكتابة. وفي مرحلة متقدمة من التاريخ البشري جاء الفينيقيون وهم سكان السواحل الشرقية لحوض البحر المتوسط وذلك حوالي 1100 ق. م وابتكروا الكتابة الفينيقية مستعينين في ذلك بالكتابة السومرية والمصرية القديمة[8] وطورّها.

2 – تطوّر الكتابة

وبذلك ابتكروا الأبجدية الفينيقية والتي هي عبارة عن حروف وكل حرف يمثل صوتا معيّنا، وصارت حروفها أو رموزها واضحة سهلة للكتابة. وهذه الحروف كانت أساسا للكتابة في الشرق كما في الغرب. وجاء بعد ذلك الإغريق وطوروا أبجديتهم التي نقلوها عن الفينيقيين وذلك حوالي 403 ق. م حيث صار لديهم أبجدية خاصة بهم والتي أصبحت أساسا للأبجدية في الغرب. ثم جاء الرومان فاخذوا الأبجدية الإغريقية، فأبقوا على بعض الأحرف كما هي (حوالي 12 حرفا) وعدّلوا سبعة أحرف، أعادوا استعمال ثلاثة أحرف كان قد بطل استعمالها. وقد سادت الأبجدية الرومانية واللغة اللاتينية بلاد أوربا بعد سيطرة الإمبراطورية الرومانية على بلاد الغرب. وهذه الأبجدية مازالت تستعمل حتى يومنا هذا بعد إجراء بعض الأقطار الأوروبية تعديلات عليها أما الكتابة والأبجدية العربية فقد جاءت متأخرة بعض الوقت عن باقي الأبجديات لعدم اهتمام العرب بالكتابة في عصر الجاهلية وذلك لأن معظم القبائل العربية كانت من البدو ولم يكونوا في حاجة إلى ثقة بالكتابة. لكن بعد نزول القرآن الكريم ودخول الإسلام الجزيرة العربية أخذت الكتابة العربية مكانها بين القبائل وبالأخصّ عندما قرّر الخلفاء الراشدون تدوين القرآن الكريم وكان ذلك في عهد الخليفة عثمان بن عفان. ومع انتشار القرآن الكريم والدعوة الإسلامية في عموم الأقطار، انتشرت الكتابة العربية انتشارا واسعا، كما استعملت الكتابة العربية في لغات عديدة غير العربية منها الفارسية والأفغانية والتركية. والأبجدية العربية في الأصل مشتقة عن الكتابة السامية التي اشتقت بدورها عن الأبجدية الفينيقية التي تألّفت أصلا من 22 حرفا هجائيا ووصلت إلى العرب عن طريق الأنباط الذين سكنوا شمال الجزيرة العربية، وقد تأثر الأنباط بحضارة الآراميين وكتابتهم. مجموعة من الصحائف المخطوطة أو المطبوعة يضم بعضها إلى بعض بالخياطة أو التغرية أو بواسطة أسلاك معدنية. تكون عادة ذا

غلاف ورقي أو ذا غلاف كرتوني، وقد يجلّد بالقماش ونحوه. وقديما كان الكتاب عبارة عن مجموعة ألواح فخارية، أو عبارة عن درج من ورق البردي. فأما (الكتاب الفخاري) فقد عرفه السومريون والبابليون قبل أكثر من أربعة آلاف سنة [9].

وأما "الكتاب الدرجي" فقد عرفه المصريون في الفترة نفسها تقريبا. والواقع أن المصريين صنعوا من سوق قصب البردي أدراجا طويلة جدا. ولما كان البردي أخف وزنا وأكثر ملاءمة للكتابة من الفخار فقد أخذت مصر تصدّره إلى مختلف بلدان الشرق الأدنى. وعن المصريين اقتبس الإغريق "الكتاب الدرجي" وعن الإغريق اقتبسه الرومان بدورهم. وتجمع الإشارات التاريخية على أن لفظة Papyrus (البردي) اشتقت لفظة Papier (الورق)، ومن اسم مدينة جبيل Byblos، وهي الميناء الفينيقي الذي أصبح فيما بعد مركزا لتصدير البردي، اشتق الإغريق لفظ Bib lion وهو اسم الكتاب في لغتهم. ومن كلمة Bib lion هذه نشأت كلمة Bible ومعناها الكتاب المقدّس. وحوالي العام 400 للميلاد حلّ الرق Parchment وكان يعدّ من جلود الحيوانات محل البردي، واتخذ الكتاب شكله الحاضر ذا الصفحات المطوية المضموم بعضها إلى بعض. وفي القرن الثامن للميلاد شرع العرب يستخدمون الورق الذي ابتكره الصينيون عام 105 للميلاد بدلا من الرق (الجلود) بعد فتح مدينة سمرقند حيث أسّسوا مصنعا لصناعة الورق عام 751 م. وعنهم أخذته البلدان الأوروبية في القرن الثاني عشر. وقد أنشئ أول مصنع للورق في إنكلترا في القرن الخامس عشر. وحوالي عام 1436م اخترع "غوتنبرغ" الطباعة بالحروف المعدنية المنفصلة أو المتحركة فكان ذلك الاختراع نقطة تحول في تاريخ الكتاب نقلته من طور المخطوطة إلى طور المطبوعة. وأول كتاب طبع في أوروبا هو الكتاب المقدّس الذي طبعه "غوتنبرغ" عام 1452 وعام 1455 م. كانت الكتابة الهيراطيقية نوعا من أساليب الكتابة الجارية (المتصلة) التي تطورت، فيما هو واضح، في نفس الوقت مع

الكتابة الهيروغليفية؛ فاستخدم النظامان جنبا إلى جنب. وجاءت التسمية "هيراطيقي" من كلمة يونانية بمعنى كاهن؛ حيث كانت تستخدم فقط في كتابة النصوص الدينية. وكانت الهيراطيقية تدون بفرشاة من البوص (الغاب) والحبر، ودائما من اليمين إلى اليسار؛ على أوراق البردي والجلد والألواح الخشبية والأوستراكا (وهي شقافاتُ أو كِسارات فخار)، وكذلك الكتان : فالخطاب إلى الموتى من الدولة القديمة، وشارات التعريف للمومياوات، كتلك التي على تابوت "رمسيس الثاني"، كتبت جميعا على الكتان.

واستخدمت الكتابة الهيراطيقية أيضا في تدوين الوثائق التجارية والحسابات والرّسائل. وكانت تدوّن عامّة في صفوف، وأحيانا في أعمدة؛ تحديدا بعد 1800 ق. م ولقد اختلفت النصوص الهيراطيقية وفق مهارات الكتابة لدى النصوص الهيراطيقية المتبقية عامة عناية فائقة بجمال الخطّ للنصوص الأدبية والدينية، مع طريقة اختزالية متّصلة للكتابة السريعة؛ وخاصة بالنسبة للسجلات القانونية والوثائق الإدارية. ومن ناحية أخرى، فإن الرسائل الخاصة تعكس نطاقا واسعا من الكتابة اليدوية.

والفارق الرئيسي بين الكتابة الهيروغليفية والكتابة الهيراطيقية هو في وصل العلامات (الأحرف)، ويسمى بالربط؛ والذي استخدم عامة لتشكيل أزواج أو مجموعات مختصرة من العلامات في الكتابة الجارية (الموصولة) للنصوص. بعد اختراع الكتابة واصل سكّان وادي الرافدين عبر حضاراته المتعددة خلال تاريخه القديم التأليف والتوثيق لكل ما وصلوا إليه في شتى مجالات العلوم والمعارف لأكثر من ثلاثة آلاف سنة، وهي أطول مدة وأغنى تجربة حضارية في تاريخ العالم والتي قدّمت تجربة لها صداها في الحكم والإدارة والإبداع والتأليف وتنظيم شؤون الحياة وتقنين القوانين والتوثيق والاتصال وهكذا مثلت لنا حافظة ذاكرة الأجيال البداية هنالك افتراض عام

يعتقد أن الحاجة إلى توثيق الجانب الاقتصادي بدلا من الاعتماد على الذاكرة هو سبب اختراع الكتابة وجاء ذلك بعد اتساع المدن وازدياد الأعمال بعد ظهور المعابد واستلامها للقرابين والنذور وصرفها لها لتلبية الاحتياجات اليومية واتساع هذه العملية فلم تعد الذاكرة تفي بالغرض لذا اقتضت الحاجة التوثيق باستعمال الخطوط لكل سلعة من السلع أو مادة من المواد، لتتطور العملية إلى رسم صورة الشيء وإلى جانبه عدده وبذلك ظهرت أقدم الألواح المدونة والتي عرفت بالكتابة الصورية وكان أول ظهور لها في مدينة "الوركاء".

3- مواد الكتابة وأدواتها

اخترعت الكتابة في الوركاء الواقعة اليوم في جنوب العراق ضمن سياق التطور الحضاري لها والتي شهدت إبداعات وإنجازات حضارية جعلت منها موطناً مناسباً لظهور ذلك الاختراع الذي استعمل ألواح الطين للكتابة عليه، لأن الطين هو المادة الأوفر والأبسط صنعاً والأسهل منالاً في وادي الرافدين، ويتم صنع هذه الألواح الخاصة بالكتابة من تراب نقي أو طين جيِّد خالٍ من الشوائب، وبعد تشكيل اللوح ترسم عليه الصور أو تكتب العلامات حين يكون طرياً ثم يترك ليجف وهذا الاختيار كان عبقرياً بدليل بقائها حتى يومنا هذا وتحل رموزها وتحفظ في المتاحف وهي على حالها كيوم استعمالها، وإضافة إلى الطين، الحجر والذهب والفضة والبرونز والخشب إلاّ أن الأخير تعرض للتحلل. كما استعمل الشمع في الكتابة مشكلاً أول مادة مستعملة في تدوين أول كتاب في التاريخ حيث تمكن الإنسان الرافدي من ابتكار الألواح العاجية التي تطوى بمفاصل وتغطّى أوجهها بالشمع الذي تنقش فيه النصوص المسمارية، وكان ذلك خلال الألف الأولى قبل الميلاد في مدينة "كالح" العاصمة الآشورية المعروفة وتنوعت أشكال الألواح التي تم التدوين عليها بين مربعة ومستطيلة وقرصية ومخروطية وإسطوانية ومنشوريه، واستعمل القلم المصنوع في

الغالب من القصب وأقل شيوعاً من المعادن أو العظام، والقلم المصنوع من القصب يكون قطعة قصيرة يتم قطعها من قصبة قوية ويتم تشذيب طرفها بحيث تكون ذات نهاية دائرية أو مدببّة أو مائلة والتي بدورها تتحكم بشكل الخط .

4 – تدوين اللّغة عند السومريين

أكدت الاكتشافات الأثرية في بلاد بين النهرين، أن السومريين الذين سكنوا هذه المنطقة منذ أكثر من ستة آلاف عام، هم أول من اكتشف الكتابة في حوالي الألف الرابع قبل الميلاد، وأنهم استخدموا الكتابة التصويرية في البداية ثم ما لبثوا أن اخترعوا الكتابة المسمارية التي تتألف من 350 كلمة أو مقطعا. ثم اكتسبها عنهم الأكاديون والحيثيون والبابليون والآشوريون والفرس. ولقد بقيت هذه الكتابة سائدة حتى اخترع الكنعانيون الأبجدية في حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد فتحول بفضل ذلك الناس إلى الكتابة الأبجدية لسهولتها ومقدرتها على التعبير وإن أول لغة دوّنت في تاريخ العلم هي اللغة السومرية إذ شهد القسم الجنوبي من حضارة بلاد وادي الرافدين أطوار اختراع الكتابة من الوركاء إلى عصر فجر السلالات، ولا يغيب عن بالنا أن اختراع الكتابة من أعقد الاختراعات التي توصلت إليها البشرية ونتيجة للتحدي الذي شعر به السومري، مما دفعه إلى تسجيل الكلام الذي يسمعه من دون نطقه أو مشاهدة قائله. والكتابة من الاختراعات التي لا يمكن إنجازها وتركها إنما تكون منطلقاً لمبتكرات أخرى تستجيب لما يستجدّ، ومن تلك المستجدّات تجانس الألفاظ Homophony وتعدّدها Polyphony. وكانت مواضيع النصوص الوركائية الأولى في أغلبها اقتصاديه إذ شكلت 85% والمتبقي منها ذا نصوص عن قوائم معجمية متضمنة أسماء سلع مختلفة وحيوانات وإداريين أي بنسبة 15%، ويبدو أن النصوص الأخيرة جزء من نظام تعليمي لتدريب الكتبة وهو ذا نظام

متقن تؤكده استمراريته بعد ست مائة سنة لاحقة وهذا يشير إلى استمرارية وقوة النظام التعليمي آنذاك، وما أن حل الدّوران الثاني والثالث من عصر فجر السلالات حتى بدأ عصر التدوين التاريخي لأول مرة في تاريخ البشرية وتحديداً في حدود 2600 ق. م. من خلال ما دونه ملك كيش اينيمي ـ بركيسي وهو أول إنسان خلد ذكره بكتابة تذكارية، وبذلك قطعت شوطاً جديداً في تطورها، ليستمر هذا التطور من خلال النصوص الأدبية التي وصلتنا من الألواح المكتشفة في "تل فارة" و"تل الصلابيخ" مقدّمة لنا التطور التقني للكتابة من حيث الشكل والمرونة.

5 – تطور الكتابة وانتشارها في العالم القديم

كانت الكتابة في مبدإ ظهورها كتابة صورية كما أسلفت إلا أنها سرعان ما تطورت في الأدوار التالية وأصبحت كتابة صوتية على هيئة مقاطع حيث تدّون الأشياء المراد كتابتها بتقطيعها إلى عدة مقاطع لكل منها علامته المسمارية الخاصة، وهذه التغيرات تأتي منسجمة مع طبيعة عملية التدوين نفسها.

وقد لعب الأكاديون دورا كبيرا في نشر استعمال الكتابة المسمارية بعد اعتمادهم عليها في تدوين لغتهم واتّساع نفوذهم السياسي إضافة إلى أن الأقوام المختلفة التي عاشت في المنطقة تأثرت بشكل كبير بهذه الكتابة في تدوين لغاتها وإلقائنا لنظرة سريعة على العيلاميين والحثيين على سبيل المثال يعطينا صورة واضحة لمثل هذا الانتشار وليس أدل على ذلك أيضا من استعمال هذه الكتابة وباللغة البابلية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد لغة المراسلات الدبلوماسية بين جميع حضارات الشرق الأدنى القديم. غير أن السبق الحضاري الذي أحرزه السومريون يكمنُ في اختراع أول كتابة عرفتها البشرية، وأقدم نظام للمكتبات التي كان يخصّص لها أقسام مهمة من المعابد والقصور،

وكان بعضها مؤلفا من عشرات الألوف من الوثائق والسجلاّت، وأشهرها مكتبة الملك الآشوري " آشور بانيبال " في القرن السابع قبل الميلاد. وكان يطلق على المكتبة اسم "بيت الألواح" أو "بيت الرقم" وكان الرقم يسمى "دب" وقد وجد في مكتبة "نينوى" نوع من التصنيف الملكي نسبة إلى الملك "آشور بانيبال". هذا فضلا عن ما اكتشف في المعبد الرئيسي في مدينة "أورك" أو الوركاء سنة 3500 ق. م هو الذي جعل العراقيّين القدامى منهم والأوائل في تاريخ الحضارة الإنسانية يعرفون الكتابة في الألف الخامسة قبل الميلاد. فلقد كانوا أوائل من عرف الدّين والأخلاق والمثل وأوائل من عرف الأساطير والقصص والملاحم" جلجامش" وأوائل من عرف السياسة والحرب النفسية وعرف الاجتماع والفلسفة والقوانين والإصلاحات الاجتماعية وأول من عرف البرلمان والمدرسة وأول من ذكر كلمة الحرية (أمارجي) وأول من غنى أغنية حب. وكما ذهب الباحث "محمد قدوح" في إشارته قائلا : "ومن حسن حظ البشرية، أن هؤلاء قد اختاروا الألواح الطينية التي تقاوم المؤثرات المناخية، فكتبوا عليها تراثهم الثقافي ولم يكتبوا على مادة سهلة العطب". [10]

6 – الكتابة عند المصريين

اكتشفت الكتابة لدى سكان وادي النّيل القدامى منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، لكنهم لم يكتبوا على الألواح الطينية أسوة بالسومريين، بل سجلّوها على شرائح نبات البردي، أو لفائف ساق البردي ويؤكد بعض المؤرخين، أن الكتابة التصويرية التي كان المصريون القدامى يستخدمونها قبل الأسر الحاكمة قد انتقلت إليهم من بلاد السومريين وكانت معلومات العالم القديم عن الكتابة المصرية ضئيلة ومشوّهة تعتمد في أساسها على ما دونه كتّاب الإغريق، وغيرهم من الرحالة والمغامرين الذين اعتمدوا في كتاباتهم على ما قصّه الرّواة لم يتوصلوا إلى فكّ رموز الكتابة المصرية القديمة. واهتموا أكثر

بأنباء تبدو فيها الطرافة مثل ما كتبه "هيرودوت" عندما يتحدث عن مصر. فقد أطلق الإغريق على الكتابة اسم الكتابة الهيروغلفية. والهيروغلفية باللغة الإغريقية كلمة مؤلفة من جزئين : هيروس ويعني مقدس، وغليفي ويعني نقش أي أن كلمة هيروغليفية تعني النقش المقدّس... وبقيت مصادر التاريخ الفرعونية مجهولة مثل الكتابات والنقوش التي تركها الفراعنة، وحسب إجماع علماء مصر المعاصرين فإن الجهود المبذولة في حلّ رموز الكتابة المصرية التي شاهدوها على الآثار لم تسفر عن نجاح يستحق الذكر إلى غاية وصول الحملة الفرنسية إلى مصر "1798–1801" بقيادة "نابليون بونابرت" كانت فاتحة عهد جديد في معرفة ما كتب من أسماء الملوك والملكات. بعدما عثر أحد ضباط الحملة على حجر بالقرب من رشيد، نقشت عليه نقوش ثلاثة : أحدهما بالإغريقية والأخرى باللغة المصرية كتبت بخطين مختلفين هما الخط الهيروغليفي : أي الكتابة المقدّسة. لأنه كتب على جدران المعابد والنّصب التذكارية المختلفة وقد صحبت هذه الكتابة كتابة أخرى مختصرة عنها عرفها الإغريق باسم الهيراطيقية أي الكتابة الكهنوتية. نظرا لأنهم اعتقدوا بأن الكهنة وحدهم هم الذين كانوا يعرفونها، وربما كان سبب ذلك أن المدارس في مصر القديمة كانت عادة تتبع و تلحق بالمعابد الدينية. وّيرجع تاريخ استعمالها إلى عهد الأسرة الثانية 2982 ق. م وأما الخط الثاني كتب بالديموطيقية أي الكتابة الثالثة وهي أشد اختصارا من سابقتها وتعني الكتابة الديموطيقية، الكتابة الشعبية.. وقد ظهرت وانتشرت بصورة واضحة لما تعددت مطالب الحياة وازداد نشاط التعامل بالكتابة بين أفراد الشعب لأن في السابق كانت الكتابة مقتصرة على الكهنة ورجال الدين فقط، والكتابة المصرية تشبه مع الفارق خطوط اللغة العربية. فالكتابة الهيروغليقية تقابل "الثلث" وغيره من خطوط الزخرفة والهيراطيقية تقابل خط النسخ. والديموطيقية تقابل خط الرقعة. وحوالي الوقت الذي انتشرت وطغت فيه المسيحية على الديانة المصرية

الوثنية القديمة في مصر، استعملت الحروف الهجائية الإغريقية في كتابة اللغة المصرية، ولكن نظرا لأن هذه اللغة تميزت بأصوات ليس لها مقابل أو شبيه في اللغة الإغريقية – وخاصة الأصوات الحلقية (مثل الحاء والعين وغيرها)– فقد أضيفت إلى هذه الأحرف الهجائية سبعة أحرف من أصل مصري لاستكمال هذه الكتابة الجديدة التي عرفت خطأ "باسم اللغة القبطية" والأحرى أن يطلق عليها الكتابة المسيحية للغة المصرية لأنها كما يشير إليها "محمد أبو المحاسن عصفور" في هذا الصدد قائلا : "وإن استعملت فيها بعض ألفاظ غير مصرية إلا أنها في مجموعها لا تخرج عن كونها اللغة المصرية كتبت في هيئة جديدة." [11]

ومن خلال ما سبقت إليه الإشارة يتضح لنا أن الكتابة المصرية في نشأتها منذ اكتشافها حوالي تشبه الكتابة في بلاد بين النهرين ولا يستبعد وجود علاقة بينهما التدوين والكتابة، إحدى أهم وأبرز مراحــل تحول الإنسان الحضاري، وأولى الخطوات النوعية التي منحته صفته الإنسانية عبر التواصل الذي حققّه هذا الكائن مع سائر الموجودات من جهة ومع البعد الزمني والتاريخي لأسلافه وأحفاده من جهة أخرى حيث أن هذا الربط هو من عوامل التوسع المعرفي للإنسان وتراكم خبراته. ومما يؤكد أهمية الكتابة، هو التصنيف التاريخي الذي أعطاه علماء التاريخ والجيولوجيا للمراحل التي قطعها الإنسان في حياته عبر العصور، حيث يطلق على بعضها عصور ما بعد التدوين أو قبله، ولم تسجلّ لنا حضارات الأمم السابقة إلا من خلال لغة التدوين والكتابة سواء كانت رمزية، كالرسوم والنقوش الأثرية التي أشرفت على جانب هام من تاريخ هذه الحضارات التي زالت، أو عن اللغة الكتابية بوسائلها الأخرى، ومنها الكتابة الحرفية والتي استقرت لاحقاً بعدة أنماط من الحروف قسمت على إثرها هذه الكتابات.وسواء كان هذا التدوين وهذه الكتابة بالرموز أو بالأحرف وأياً كان التاريخ الذي بدأت منه، فان هذا الشكل الحضاري للإنسان، أحدث ثورة حقيقية في حياة هذا الكائن الأرضي الذي لم يتوارث مخزونة الفكري إلا من خلالها.

7– الكتابة عند العرب

قد يعتقد الكثيرون من المهتمين، أن إطلاق اسم الجاهليين على العرب قبل الإسلام يعود إلى جهلهم العلمي والمعرفي وإنما الجهل الذي وصف به هؤلاء لا يعود إلى الجهل المعرفي والعلمي، وإنّما يعود إلى الجهل الديني، على السفّه، والحمق والجفاء والغلظة والمكابرة. وهم لا يجهلون القراءة والكتابة والتدوين.. والعرب أمة بلغ شعرها ما بلغه من إتقان فني وحساسية وجمال وتنوع. ونزل بينهم القرآن الكريم، بما فيه من إعجاز وبلاغة وبيان وقدرة فائقة على التعبير والإيحاء. من غير المعقول أن يكون العرب الجاهليون يجهلون التدوين وهم الذين عاشوا في وسط كان سكانه أولَ من أوجد الكتابة، وأول من اخترع الأبجدية، وأول من دوّن كتابته وحفظها، ثم كان أول من عرف المكتبات.

غير أنه تزداد نسبة التعرف على طبيعة حياة المجتمعات البدائية بقدر قربها من نمط الكتابة الحرفية، فما وصلنا عن العصور الحجرية هو أقل بكثير بالنسبة للعصور الكتابية نظراً لميزة التعبير التي أعطتها اللغة وصفاً، ونقلاً وتوثيقاً. بعد أن امتلك الإنسان ناصية اللغة كوسيلة للنقل والتفاهم الإنساني، أخذ يبحث عن آفاقها والتي هي بالأساس آفاقه ورؤاه التي صبّها في قارورة اللغة الواسعة وأبدع هذا الإنسان وأنتج روائع أدبية ولغوية اعتبرت إحدى مآثره العظيمة في التاريخ، وبدأ تصنيف هذه الكتابات إلى إبداعية، وأخرى إنشائية، دخلت الموهبة وسيطاً فاعلاً في عملية تطور أدواتها الكتابية، فقد كان الشّعر العربي، هو نتاج واقع العرب قبل الإسلام والذي كانوا يسمونه "ديوان العرب" وظل هذا النوع الأدبي هو السائد حتى بعد مجيء الإسلام وكان للعرب أن يدخلوا مضمار القصة باقتباس هذه الحكايات وتسخيرها لملائمة واقعهم آنذاك فكانت كليلة ودمنة، ألف ليلة وليلة، إلى غير ذلك من القصص والحكايات، ولو تصفحنا الأدب العربي شعراً وحكايةً لوجدناه يتوزع على عدة أغراض تكاد

تكون شبه ثابتة كالهجاء والمدح والرثاء والغزل، إلخ، وكانت هذه المفردات قد شكلت جزءاً من حياة هذه الشعوب خصوصاً قبل الإسلام.

ويجري الأمر كذلك على باقي الشعوب في اختيار اللون الأدبي الذي يتوافق وبيئتها وموروثها التاريخي ثم أسّست على إثرها حركة الإبداع والابتكار والتي تتفاوت بين شعب وآخر ولغة وأخرى.

8 – الكتابة البربرية اللّوبية القديمة

عرف الفينيقيون بأنهم مخترعو الحروف الأبجدية، وأقاموا القواعد التجارية والمستعمرات في مختلف نواحي البحر المتوسط. بما فيها منطقة سواحل لوبيا القديمة (المغرب العربي حاليا) لأول مرة في التاريخ. وكانت للفينيقيين لهجات عدّة متقاربة. وفي فترة تأسيس الدّولة القرطاجية توحدت مجموعة من اللهجات الفينيقية مكّونة اللغة البونية أو الفونية التي انتشرت على طول الساحل المغاربي. وقد وصل القليل من هذه اللغة إلى وسط الصحراء الكبرى. إلاّ أنّ القبائل العربية التي قدمت من أجزاء جنوبية لشبة الجزيرة العربية حيث كانت الصحراء أصغر حجما بكثير مما هي علية الآن. وكانت صالحة للرعي والحياة البدائية. ونتيجة لعوامل طبيعية ومناخية وتكاثر السكان، تحركت الهجرات منذ عشرات الآلاف من السنين باتجاه الأنهار الكبيرة والأماكن الخصبة (الدلتات) وعبرت هذه الجماعات البشرية خطّين أساسيين في حركة هجرتها : الخط الساحلي وهو محاذاة البحر الأحمر باتجاه سيناء ومنها تابعت سيرها في وجهتين؛ واحدة باتجاه مصر والنيل ومنه إلى منطقة أراضي لوبيا(المغرب العربي حاليا). وكانت الهجرات الأقوى والأسرع في الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية في الألف العاشرة قبل الميلاد، وذلك لزحف الصحراء على مساحات كبيرة من أراضي شبه الجزيرة الجنوبية حيث نضبت الأنهار والمستنقعات وازداد الجفاف مما جعل الحياة صعبة جدا

بظروفها البدائية في هذه المناطق التي تركها سكانها واتجهوا لمناطق أكثر ملاءمة منها للحياة. على إثر هذه الظاهرة توجّهت مجموعات بشرية قديمة إلى منطقة المغرب العربي التي أخذت بالاستقرار على السواحل والجبال من أطراف منطقة المغرب العربي الشمالية. وبالطبع كانت اللغة الأولى هي اللغة القحطانية التي تكلّمها ملوك اليمن وبابل سبأ وحمير التي كانت من سنة 115 قبل الميلاد إلى سنة525 م. وكانت لغة حمير لا تختلف عن لغة سبإ ومعين. وكانت تكتب بالخط المسند. [12] هذا كما أشار الباحث الليبي "علي فهمي خشيم" قائلا : "مقياس العروبية عندي، فإذا ثبت أن ما يسمى الأمازيغية (البربرية) لغة عروبية ولهجة من لهجاتها، أخت العربية[العدنانية– الجزيرية] فالأمازيغ الذين هم ذلك الليبيون القدماء، أهل الشمال الإفريقي الأقدمون، وهما حماسة وإيمان مبنيان على أساس علمي تاريخي ولغوي مقارن، ما يدفعني إلى القول بأن الأمازيغ [أعرب من عرب الجزيرة] التأصيل اللغوي لما يعرف باسم[النقوش الليبية] يبرهن على عروبة ما ورد فيها من أسماء أعلام وألفاظ وأدوات ربط... إلخ. وهي– مثالها في ذلك مثل النقوش المصرية القديمة – ظلت محتفظة بنقائها العروبي، في حين تأثرت اللهجة[اللغة] العربية الجزيرية بمؤثرات فارسية وهندية وإفريقية وغيرها مما يدركه الباحثون" [13].

ومن خلال ما تقدم من النصّ يتبيّن لنا مما هو عميق الدلالة أن سكان شمال إفريقية بما فيهم الطوارق ينتمون إلى المجموعة السامية– الحامية التي ترجع إليها الأصول المكونة لسكان شمال إفريقية المعروفين باللّيبييّن القدماء الذين انتشروا على مناطق شاسعة، اختلفت في تكوينات تضاريسها المجزأة التي تفصل بينها مسافات بعيدة في بعض الأحيان أدى ذلك إلى تباين في لهجات سكانها مثل لهجة التحو أو (التماهق). التي عمت منطقة التاسيلي – ناجر التي توجد معظم كلماتها حاليا في المعجم العربي والتماهق تنطبق مفرداتها تماما مع مفردات اللغة العربية وبعض القواعد النحوية فيها وهي في

تقديري أقرب اللهجات البربرية إلى العربية والفينيقية. كما أن الباحث."محمد سعيد القشاط " قد أشار إلى التيفناغ حيث عرفها كما يلي قائلا : "التفيناغ هي الحروف التارقية التي يكتب بها التوارق لغتهم. – ويضيف قائلا– وذكرنا أنها هي نفس الحروف الفينيقية التي نقلها الفينيقيون معهم من الشام إلى شمال إفريقيا قبل الميلاد ولقد وجد اليمنيون الجنوبيون في منطقتي حضرموت. والمكلا نقوشا بالفينيقية في السنوات الماضية. كما أننا نجد هذه الكتابات في مغارات جبال الأكاكوس. والتاسيلي. والهقار وجبال الآيير.." [14] وقد فسر "عثمان سعدي" في إشارته إلى هذا الموضوع قائلا : "حتى حرف التيفيناغ" هو الحرف المسند العربي القديم تطور فصار الحرف العربي. البربرية لهجة من اللهجات العربية القديمة لازال يتحدث بها في سلطنة عمان، وتكاد لاتوجد كلمة بالبربرية موجودة في قاموس العربية... فيمضي سعدي في إشارته بصدد هذا الموضوع مؤكدا ذلك قائلا كلمات لا يتبادر إلى الذهن أنها عربية، أما الكلمات العربية المباشرة فهي تتجاوز الثمانين بالمائة وهذه الكلمات التي سقتها كانت تستعملها العربية العاربة، ثم بطل استعمالها بالعربية الحديثة واستمرت مستعملة بالبربرية. وهذا هو الذي يفسر لماذا قاوم المغاربة لمدة تسعة قرون كاملة الرومان والوندال الذين لم يخلّفوا وراءهم بالمغرب سوى حجارة ميّتة دون أن يتركوا أي أثر في المجتمع البربري، لكن عندما دخل العرب اندمج البربر بهم في العقود الثلاثة الأولى لدخولهم، فقد اكتشفوا أصولهم وأصول لغتهم في هؤلاء القادمين برسالة الإسلام. وأنه لا وجود للغة أمازيغية أمّ، وإنما لهجات تعد بالآلاف يصعب التفاهم بين تجمعاتها، وتنحدر كلها من العربية العاربة. بل إن متخصصا فرنسيا كبيرا في الدراسات البربرية وهو "رونيه باسيه" R. Basset ينكر حتى صفة اللهجات للأمازيغية ويقول إنها لا تعدو كونها واقعا لهجويا (Fait dialectal) [15] أما لهجة التاسيلي ناجر فقد أشار إليها الباحث نجمي رجب ضياف قائلا : "حظيت لهجة غات بدراسة مفصلة قام بها كراوزة [16] على

أساس مجموعة من النصوص التي جمعها ويرى أنها من التمازيغية إحدى فروع الزمرة الحامية السامية التي سادت شمال إفريقيا في القرن الخامس قبل الميلاد وكانت تكتب بالتيفيناغ وتعرف اللغة التي يتكلمها الغاتيون باسم "تما شغ" واستعمل "كراوزة" في دراسته اسم مشاع ويقصد بها عرب المغاربة والطوارق ويرى أنهم لم يحافظوا على نقائهم العرقي ضمن السود وفاتحي البشرة. ويستمر في قوله بشأن الحروف المستعملة عند الطوارق الازقر هي عبارة عن أربعة وعشرين حرفا غير صوتية..." (17) يبدو من خلال بعض المواقع الأثرية الموجودة في أغلب مناطق التاسيلي- ناجر كالمقابر والكهوف التي تتضمن بعض الرسوم الصخرية الكثيرة جدا، أن السكان في هذه المنطقة لا يهتمون بالكتابة والتدوين (18) رغم أن "باري فل" يؤكد من خلال الإشارة إلى وجود كتابة في هذه المناطق ترجع على حوالي2000 سنة. حيث جاء في مضمون ما كتبه النص التالي : "هناك في جهات من شمال إفريقيا، شمالي الصحراء الكبرى، طرق للكتابة قديمة جدا يرجع تاريخها إلى حوالي ألفي سنة وهي لا زالت توجد مستعملة لدى قبائل منعزلة، وقد كانت أكثر انتشارا من اليوم، بحيث يمكن العثور الآن على نقوش بالأبجديات القديمة في مناطق يتحدث ويكتب فيها الآن بالعربية فقط. وبعض الكتابات القديمة تتّفق كثيرا مع مثيلاتها في أمريكا الشمالية. وكذلك بعض الكتابات العربية المنقوشة بحروف تسمى كوفية، تتّفق كثيرا مع كتابات في أمريكا الشمالية سواء من حيث الحروف ومن حيث اللغة. - ويستمر يضيف- قائلا : إذن، أهمية دراسات الشّمال الإفريقي بالنسبة للتّاريخ الأمريكي واضحة، بل زد على ذلك، كما لاحظت في "أمريكا قبل الميلاد". فإن اللغة القديمة للأناشيد الدينية لبعض القبائل مثل "البيما-Pima" في أريزونا غنية بالمفردات العربية لدرجة تمكّن من ترجمة الأناشيد بنفس الطريقة التي تترجم بها اللغات القديمة في شمال إفريقيا" (19).

خلاصة القول

إن الدخول على عالم الكتابة ومحاولة الإحاطة ببعض جوانب هذا الموضوع الصعب المتشعب، يتطلب مناً العودة إلى البدايات الأولى حين بدأ الإنسان يبحث عن وسيلة التعبير. كما يتطلب منا أن نتابع المسيرة الطويلة التي قطعتها البشرية، منذ أن نجحت في تصوير أو تسجيل بعض اهتماماتها وحاجاتها ومخاوفها على شكل صور أو رسوم على جدران كهوف جبال التاسيلي والهقار ونصوص الأهرامات الهروغليفية. إلى أن طورت وسائلها هذه وحوّلتها إلى كتابات، ثم إلى كتابات منطوقة، ثم إلى أبجديات. سهلّت مهمة التواصل والتفاهم بين البشر. وتعبّر عن نشاط الإنسان بما فيه المادي والفكري والروحي. وتسعفه كذلك في الاحتفاظ بتجاربه وخبراته المتراكمة، ونقلت أهمّ معتقداته ومفاهيمه وأفكاره وقيمه إلى الأجيال اللاحقة ولقد استمرت مسيرة الكتابة وطالت وتحولت من رسم صورة للإنسان أو حيوان أو كتابة كلمة أو عبارة، على جدار كهف أو لوح طيني، أو ورقة بردي، أو جلد حيوان. إلى كتابة آلاف المخطوطات والكتب المختلفة وحفظها في مكتبة يمكن للآخرين أن يرتادوها متى شاءوا وينتفعوا بها.

الفصل الرابع

الحضارة المصرية القديمة

- مصر في عهد الدولة القديمة
- مصر في عهدالدولة الوسطى
- مصر في عهد الدولة الحديثة
- مصر في عهود الضّعف والاحتلال
- أهم مظاهر الحضارة المصرية

الحضارة المصرية

تمهيد

إن الحضارة المصرية من الحضارات المنفصلة "المنقطعة" –حسب تعبير المؤرخ الإنجليزي توينبي– إذن قامت نتيجة من الظروف المناخية التي سادت جو مصر في العصر الحجري القديم كانت الدافع الأول لقيام الحضارة المصرية، فمن الثابت تاريخيا أن الصحراء في ذلك الوقت لم تكن صحراء بالمعنى المفهوم من اللفظ. وكانت المكان المفضل لاستيطان الإنسان المصري القديم بفضل ما كان يسقط عليها من أمطار وفيرة وما كان ينمو فيها من حيوان ونبات، أما وادي النيل فقد كان كثير المستنقعات ولا يشّجع على الاستيطان. ونادرا ماكانت المجموعات البشرية التي شكلت أهم القبائل التي سكنت أرض مصر السوداء. فقد كانت تلك القبائل متنقلة تعيش على الصيد وتسكن المرتفعات التي تحيط بوادي النيل المستنقعي. ومع بدء العصر الحجري الحديث أصيب موقع الصحراء بالجفاف وأخذ المناخ يتبّدل في عامة شمال إفريقيا والهضاب الخضراء كالأهقار والتاسيلي تتحول تدريجيا إلى مناطق صحراوية. وهكذا لم تعد الطرائد كافية لسدّ حاجات الصيادين البدائيين فاضطروا إلى الهجرة إلى الوادي بسبب تناقص هطول الأمطار، خاصة في الجنوب حيث لم تعد الحياة مستطاعة دون استخدام مياه الأنهار .وليس عبثا ما أطلقه الإغريق على مصر بأنها "هبة النيل" ومع إبتكار الزراعة، والاستفادة من الحيوان تحول الإنسان من مرحلة جمع الغذاء والصيد إلى مرحلة الإنتاج الزراعي وتخزينه، ومع اكتشاف النحاس بدأ العصر المعروف باسم عصر قبل الأسرات في مصر. حيث تفسخ النظام العشائري وظهرت المدن القائمة على علاقات الجوار وليس على العلاقات العشائرية. وبفضل ابتكار الزراعة بدأ الإنسان في الاستقرار وبناء القرى ثم المدن التي تجمّعت في ولايات وتوحدت

هذه الولايات في مملكتين ثم اتحدتا على يد الملك "نار مر" الذي يعتبر منشئ الأسرات في مصر القديمة، غير أن تاريخ مصر يبدأ قبل الملك نار مر بآلاف السنين ففي نهاية العصر الحجري القديم كان يسكن أرض مصر خليط من بعض السلالات البشرية من الجنس الحامي القادم من الحبشة. وجنس البحر الأبيض المتوسط القادم من غرب آسيا ثم وفدت بعض العناصر الأرمينيّة في أوائل عصر الأسرات تلتها عناصر حامية زنجية قادمة من الجنوب على طول التاريخ المصري القديم، وقد انصهرت هذه الأجناس والعناصر في بوتقة التاريخ لتكون من الإنسان المصري القديم. أما من حيث المظهر الخارجي فقد تميز المصريون القدماء بالقامات المتناسقة، واللون الأسمر، وعدم كثافة الشعر، وبالشعر الأسود، والعيون السوداء. والتاريخ المصري القديم كان يسمى بعهد الأسرات وينقسم إلى 30 أسرة تمثّل كلّ منها بيتا ملكيا مستقلا هذا كما يذكر المؤرخ المصري "مانيثون" الذي عاش في الفترة 280 ق .م. وقسّم تاريخ مصر إلى ثلاثين أسرة حكمت مصر من سنة 3000 ق. م. تقريبا إلى أن غزاها الإسكندر المقدوني سنة 332 ق. م .وتتخلل هذا العصر ثلاثة عهود من الرخاء والتقدم تعرف بعهد :

1- الدّولة القديمة.

2- الدّولة الوسطى.

3- الدّولة الحديثة.

مصرالفراعنة

يعتقد بعض المؤرخين أن الحضارة المصرية هي أقدم الحضارات عهداً وأطولها عمرا، وقدمت إلى العالم أعظم ما على الأرض من حضارات حتى اليوم. فقد كان علم الفلك والحساب المصريين في حالة متقدمة قبل الميلاد بخمسة

آلاف سنة، وظلت متواصلة على نحو مستمر حوالي أربعة آلاف سنة عندما انتهت على يد اليونانيين قبل الميلاد بثلاثمائة سنة.وقد بنى المصريون أسطولا تجاريا وطوّروا التجارة عبر النيل والبحر المتوسط، وتعبّر الأهرام في ضخامتها وارتفاعها ودقتها الهندسية عن علم وتقنية معمارية متقدمة. وعرفت الحضارة المصرية نظاما إداريا وماليا وخدمات بريدية منتظمة، وصناعات وفنونا متطورة كصناعة الأسلحة والدواء والحرف والمناشير ومعالجة الأخشاب والبناء والمراكب. وحفرت القنوات بين النيل والبحر الأحمر، ونقلت المسلاّت التي تزن آلاف الأطنان لمسافات بعيدة. وكان النساء المصريات يتمتعن بوضعية قانونية أرفع، وبحريّات أدبية واجتماعية أوسع منها في أي دولة أوروبية قبل العصر الحديث. وعرفت الحضارة المصرية ملكات خالدات جميلات مثل نفرتيتي، وحكيمات مثل ختشبسوت، ومتهورات مثل كليوبترا.

1- مصر في عهد الدّولة القديمة

يمتد عهد الدولة القديمة من بدء الأسرة الأولى إلى نهاية الأسرة السادسة. ويعرف الجزء الأول من هذه الفترة والذي يشمل الأسرتين الأولى والثانية "بالعهد العتيق" ومن أهم ملوكهم زوسر باني الهرم المدرج "من الأسرة الثالثة" ثم خوفو باني هرم الجيزة الأكبر "من الأسرة الرابعة". غير أنّ أوّل ملك ظهر في توحيد مصر العليا مع مصر السفلى هو الملك مينا. وكان مينا ملكا على الجنوب، ثم أخضع لسلطته دولة الشمال حوالي سنة 3000 ق. م. وأسّس أوّل سلالة حكمت مصر المتّحدة. وعرفت بالأسرة الأولى. واتّخذ هذا الملك الموحد مدينة "ابيدوس" عاصمة له. وقد قامت بعض التمردات شمالا في الدلتا كان الهدف منها الانفصال عن الجنوب. ولكن تلك المحاولات الانفصالية قد باءت بالفشل. وظل ملوك الأسرة الأولى يستعملون التاج المزدوج (التاج الأبيض الذي كان يستعمل في مصر العليا، والتاج الأحمر الذي كان يستعمل في مصر

السفلى) كما أقاموا قصرا أبيض اللون وقصرا أحمر اللون. وكان من أهم ملوك هذه الأسرة هم: عاحا، وجر، أدجو، عزيب سمرخت. هؤلاء كانوا أطول الملوك حكما وأكثر العهود ازدهارا ولم يكن توراث العرش أمرا خاليا من الارتباكات في العهد العتيق ففي أزمات انتقال العرش من أسرة إلى أخرى في مصر كانت تجري عادة عمليات لعن الموتى، هكذا أمر سم رخت بتدبر آثار عزيت، وأمر قعي بتدمير آثار سم رخت وهكذا كلما يأتي ملك يمح آثار سابقه.

وفي الأسرة الثانية : تجددت الفتن والنازعات السياسية بين شطري مصر العليا ومصر السفلى، مماّ أدّى إلى انفصال الشمال عن الجنوب. ولكن الملك "خع سخموي" آخر ملوك الأسرة الثانية استطاع أن يعيد وحدة مصر بقوة السلاح، وبعد ذلك عمل "خع سخموي" على تنظيم الأمور الداخلية في البلاد والنظام الإداري، تمّ في البداية بطابع ثنائي وبخاصة التقسيم المالي إلى منشأتين ماليتين "البيت الأبيض للجنوب، والبيت الأحمر للشمال" وفي ميدان الزراعة إذ قسّموا الفراعنة أرض مصر إلى عدة مقاطعات زراعية كبرى" 22 في الوادي، 16 في الدلّتا وسميت قديما باسم "سياسة" وبعد ذلك سميت "نوم" فقد وضع نظاما إداريا جديدا يعيّن بموجبه وزيرا للجنوب ووزيرا للشمال. كما فصلت إدارة الشمال عن الجنوب، بينما بقيت السلطة المركزية بيد الملك. وكان من أهم ملوك هذه الأسرة هم: قعي ختب سخموي، بن رع، نترعو، أونج وبراست سن، سنجى، وخع سنحم، خع سخموي. وعندما استقرت الأوضاع الداخلية أخذ ذلك الفرعون بتنظيم الحملات العسكرية وإرسالها إلى بلاد النوبة في الجنوب وإلى ليبيا في الغرب وإلى سيناء في الشرق، وقد دام حكم الأسرتين الأولى والثانية من سنة 2000 إلى 2800 ق. م تقريبا وبعد ذلك نجد في أثناء الأسرة الثانية أن بعض الملوك أعلنوا ولاءهم للإله حورس والبعض الآخر أعلنوا ولاءهم للإله ست ثم أعلنوا الولاء للإلهين معا. مثل الملك "ختب سخموي" و"خع سخموي". ولا شك أن إيقاظ هذا الصراع الديني القديم كان له وجها

لهوتيا للصراع الذي انخرطت فيه الفرق المختلفة مستغلة في ذلك العداء القائم بين أهل الجنوب وأهل الشمال. لقد أصيب النظام السياسي الفرعوني في أثناء حكم ملوك طيبة بنوع من أمراض الطفولة ترعى كل ما كان متخلفا من عهد (نارمر) من استقلال ذاتي إقليمي واقتصاد قبلي بفضل جهود حكومة مطلقة ساعية للمركزية، غير أن إخضاع السكان المشتغلين بالزراعة للنظام السياسي ذي الطابع الملكي الأوتوقراطي لم يتم دون متاعب، فهنالك قامت عدة ثورات في الدلتا فاضطر النظام إلى استخدام أساليب القمع ضد هذه الثورات. ومصر العليا يبدو أنها كانت تابعة في إدارتها مباشرة للبلاط الملكي، بينما نائب الملك يقيم في "منف" لإدارة شؤون الشمال ويلقب بكاتم سر الملك لشؤون مصر السفلى "وقد قام مندوبو الملك بإدارة المنشآت الزراعية والقرى ومزارع الكروم والمؤسسات الملكية التي كانت تسمى "حوت" ومن هؤلاء المندوبين : عج مر "أي المشرف على حفر الترع" وخرب "المدير" – وقد وضع ملوك الأسرتين الأولى والثانية المبادئ التي سار عليها خلفاءهم ملوك "ممفيس" في السياسة الخارجية فخاضوا المعارك في البلاد المجاورة من أجل الدفاع عن أراضيهم واستجلاب الغنائم، وأرسلوا الحملات لاستقلال مناجم الصحاري القريبة وسافر الملك "جر" حتى وصل الشلال الثاني جنوبا، حيث سجل نقشا بارزا على الصخر لتخليد انتصاراته على سكان النوبة. وخلاصة القول أنّ أرقى الحضارات ظهرت في العصر البرونزي في الألف الرابعة قبل الميلاد وظهور مملكتان كبيرتان. مملكة الشمال العاصمة بهديت بلاموس وفي الجنوب العاصمة "أومبوس : بلاص" وحورس إله مصر السفلى، وست إله مصر العليا، وأول توحيد لمصر" لصالح الشمال ضد الجنوب. ثم يأتي تأسيس الدولة الفرعونية ويأتي التقسيم الجديد : مملكة ينتو في الشمال.[20] ومملكة نخن في الجنوب. ثم إعادة التّوحيد : ملوك الجنوب يضمون مملكة بوتو– وتصبح هركونبوليس والبثياهي عاصمتا مملكة الجنوب ويتبع ذلك حكم ذاتي إقليمي

واقتصاد قبلي "جنوبي" ثم تأسيس الصور الأبيض في منف وأنشأ حكومة ملكية مطلقة ومركزية وشن حملات عسكرية ضد الدول المجاورة "سياسية الغنائم". غزوات تصل إلى الشلال الثاني. بالإضافة إلى تقديم سو تيس "السنة الشمسية 356 يوما" واستقر هذا التقويم في الأسرة الأولى وظهر نظام الكتابة الهروغليفي في شكل رموز ويعتبر بداية التاريخ وتدوينه، ويطلق المؤرخون على فترة حكم الاسرتين الثالثة و الرابعة اسم عصر بناة الأهرام لاهتمام ملوكها ببناء الأهرامات الكثيرة، وقد أسس الأسرة الثالثة : الملك زوسر الذي أمر بتشييد أول هرم في مصر وهو الهرم المدرج في سقارة. كذلك نقل زوسر عاصمة مملكته من أبيدوس إلى مدينة ممفيس الواقعة على الحدود بين مصر العليا ومصر السفلى ليسهل عليه عن قرب على الوجهين القبلي والبحري، وبعد أن استتبت له الأمور داخل البلاد قام زوسر بحركة توسيعية نحو النوبة وسيناء وقد ساعده في تسيير دفة الحكم وزير مشهور بتعدد كفاءاته ومواهبه يدعى أمحوتب(21).

أغلب ما نعرف عنها هو أن الملك "حورس نيترى ارخيت" الذي اشتهر تقليديا باسم "زوسر" يعتبر منذ القدم مؤسسا للأسرة "منف" وهو ابن ووريث للملك "خع سخموي" آخر ملوك الأسرة الثانية إن "زوسر" هو الذي أسس مقر الملك في منطقة "منف" ويتميز عهده وعهد خلفائه الذين هم أقل شهرة بالازدهار وهم : سخم خت، سانخت، خبا، نفركا حوبى. وبدأ حكم هذه الأسرة في منف حوالي 2800 ق. م. وأما من ناحية نظامها السياسي فإن حكومتها استقرت في منطقة السور الأبيض. ووصل القادة العسكريون فيها إلى مناجم سيناء وهما سخم خت، وسانخت. ويرجع الفضل في هذه الأسرة إلى أمنختب رئيس وهو كبير كهنة "هيرابوليس" وظهرت فيها تعاليم إمين حوتب الأخلاقية وظهر أيضا تجديد في المعارف العلمية. الأسرة الرابعة إطارا حكمها الزماني سنة 2720 ق. م ومن المعروف أن مؤسسها سنفرو واتخذت ميدوم عاصمة لها.

وبلغت في التنظيم السياسي والاقتصادي في واد النيل. لم تصل الحضارة المصرية في العهود اللاحقة في عدة نواح معيّنة بلغتها أيام بناة الأهرام. وكأنها تجسد قوة الملوك واستقرار حكمهم في مدافنهم العظيمة. وهذا ما دل عنه هرم "سنفرو في ميدوم" ثم انتقل هذا الملك إلى مسافة قريبة من منف وأقام هرمين على مرتفع ىدهشور" وما يزال وجود ثلاثة أهرامات لملك واحد. ثم بنى بعده "خنوم خوفوني" الشهير "بخوفو" عاصمة شمالي "منف" الجيزة ومن المعروف عن أحفاده أن جد فرع الذي اتخذ عاصمته في "أبو رواس" وخفر الذي جعل عاصمته الجيزة ثم خلفه منكاورع الذي حكم سنة 2609 ق. م ثم شبسكاف الذي ظهرت في عهده أزمة سياسية دينية وأظهر عداءه ضد "هليوبوليس" وكهنتها لأنه خرج عن قاعدة بناء المقابر على شكل أهرامات وانحيازه إلى كهنة بتاح. ومن المعروف عن هذه الأسرة أنها قامت بغارات على ليبيا والنوبة واستغلال مناجم كل من سيناء وبلاد النوبة وانتهى حكمها سنة 2600 ق. م وخلفت منجزات عظيمة كأهرامات بدوم ودهشور، وهرم الجيزة الأكبر وأبو الهول الكبير ومصطبة فرعون بالقرب من السور الأبيض. فقد أسسها الملك سنفرو وقد اشتهر ذلك الملك بسياسته التوسعية النشطة، إذ قام بحملة الى سيناء فأخضع القبائل البدوية الموجودة فيها واستخرج النحاس من مناجمها وسجل انتصاراته على صخورها، كذلك أغار سنفرو بقواته على بلاد النوبة وساق منها 7000 أسيرا و200.000 رأسا من المواشي وللحصول على أشجار الصنوبر والسنديان من أجل بناء أسطول بحري بعث سنفرو عدة حملات إلى فينيقية. وخلف سنفرو في الحكم ابنه خوفو الذي أمر ببنائه هرم من أكبر الأهرامات المصرية وبعد موت خوفو استلم الحكم ابنه خفرع فبنى لنفسه هرما قرب هرم والده ولكنه أصغر حجما وأقل اتقانا كذلك أمر خفرع ببناء المعبد الجنازي ومعبد الوادي وبتشييد تمثال ضخم، رأسه رأس الإنسان وجسمه جسم أسد رابض على الأرض وقد أطلق العرب على ذلك التمثال اسم أبي الهول

لأن منظره يبعث الهول والخوف في النفوس وعندما توفي خفرع خلفه في الحكم ابنه منكاروع فأمر أيضا بتشييد هرم لنفسه وبناء معبدين آخرين أماّ بقية ملوك الأسرة الرابعة فقد كانوا ضعفاء وأفلت من أيديهم زمام الأمور حيث سيطر على مقاليد الحكم كهنة إله الشمس رع .

لقد استطاع رئيس كهنة الإله رع الذي يدعى أوسركاف أن يغتصب العرش الملكي ويؤسس أسرة جديدة هي الأسرة الخامسة وعند مجيء هذه الأسرة من سنة 2560 ق. م _2420 ق. م تحقق النصر بالفعل لرجال و أفكار مدينة الشمس "هليوبوليس" ولقب الملوك الذين حكموا بعد كاكاي بلقب "بن الإله رع" وأطلق على غالبيتهم أسماء مشتقة من اسم الشمس وهم : أوسركاف الذي حقق انتصارا في المجال الداخلي على رجال هليوبوليس ومعتقداتهم وخلفه ساح ورع وكاكاي "نفراركارع" ومنكاورع، وايسيسي، وأوناس. ومن منجزاتهم بناء معبد شمس في أبو صير، وظهرت نصوص على الأهرامات في شكل تعاليم لبتاح ختب، وفي المجال الخارجي قامت بحملات على بلاد بونت "الصومال" لجلب البخور.ولم يهتم ملوك الأسرة الخامسة ببناء الأهرامات اهتماما كبيرا كملوك الأسرة الرابعة، ولكنهم اهتموا ببناء المعابد لإله الشمس. وقد اشتهر من هؤلاء الملوك الملك أوناس الذي أمر بتشييد هرم في سقارة وتزيينه بكتابات دينية أطلق عليها اسم نصوص الأهرام وتعتبر من المصادر التاريخية الهامة للتعرف على معتقدات المصريين القدماء ولكن اهتمام ملوك الأسرة الخامسة بالأمور الدينية صرفهم عن الاهتمام بالشؤون السياسية مما أتاح الفرصة لحكام الأقاليم أن يستقلوا بحكم ولاياتهم دون الرجوع إلى السلطة الملكية المركزية عندما استلمت الحكم الأسرة السادسة لُوحِظَ هبوط في النشاط المعماري، بعد انتقال العرش من أو ناس إلى تيتي : مؤسس الأسرة السادسة. ومن المعروف أن العبادة الشمسية استمرت ويبدو أن الملك تيتي الذي قدّمت له فروض الولاء بصفته "محبوب الإله بتاح" وكان يحظى بتأييد كهنة منف وتم

تأسيس هذه الأسرة سنة 2420 ق. م ثم يحكم بعده ابنه بي بي الأول سنة 2393 ق. م وأطول حكم في تاريخ العالم آنذاك هو حكم بي بي الثاني الذي استمر من 2336–2242ق. م ثم نفر كارع الصغير ومن المعروف عن هذه الأسرة أن كهنة "منف" ساندوا تيتي الأول وأنه ظهر نوع من التعدي لدى النبلاء على السلطة الملكية. اضطر ملوكها أن يتبعوا سياسة مرنة من حكام الأقاليم وحاولوا بشتّى الوسائل كسب ولائهم لأنهم كانوا عاجزين عن فرض السيطرة عليهم بالقوة ومن أشهر ملوك الأسرة السادسة الملك بيبي الأول وابنان له هما مرنرع وأخوه بيبي الثاني. أما خلفاءهم فقد كانوا ملوكا ضعفاء لم يستطيعوا فرض سلطتهم على حكام الأقاليم الذين استقلوا استقلالا تاما في ولاياتهم وبانتهاء حكم الأسرة السادسة ينتهي عهد الدولة القديمة في مصر. ويطلق على الفترة التي تلت حكم الأسرة السادسة اسم عصر التفتّت والانحلال حيث ظلت مصر مجزّأة سياسيا إلى دويلات صغيرة حوالي قرنين من الزمن (من منتصف القرن الثالث والعشرين إلى القرن الواحد والعشرين) لقد أخذ كل حاكم من حكام الأقاليم يسعى للحصول على السلطة الملكية مما أدى إلى نشوب حروب أهلية مستمرة ألحقت الخراب والدمار بالبلاد، إذ تعطّلت مشاريع الرّي وتدهورت الزراعة وتوقفت التجارة وأخذت قبائل البدو الآسيوية تهاجم الحدود المصرية، فبعد ذكر تسلسل الأسرات وذكر أهمّ الملوك صانعي هذه السياسة نصل إلى السياسة الفرعونية التي كانت يغلب عليها الطابع الديني ومن المؤكد أن الطبيعة الإلهية وهي جوهر شخصية الملك كانت تلقى استجابة عميقة لدى المصريين آنذاك، ومع ذلك فإن أرستقراطية الإدارة والتي يمثّلها الملك بطريقة ما، كانت تلعب دورا حاسما في الحكومة وإليها يجب أن يعزى مولد الأسرات الجديدة وحل ما ينشأ عن مولدها من أزمات، فنحن نرى أن بناة الأهرامات العظام في الأسرة الرابعة يرفعون كثيراً من مظاهر الكلفة بينهم وبين وزرائهم تحت ستار حسن المعاملة. ومن الملاحظ أن معظم كبار رجال الدولة لَمْ

يكونوا "أولاد الملك" إلا بالتبني. وأما تعيين الموظفين لم يكن بحكم القانون وإنما يتم بفعل العادة والتقليد وكانوا يرتقون إلى أعلى المناصب ويصحبون مستشارين للملك. وكانت تجري عليهم مكافآت الملك ومنحة من الخزانة العامة، وتعطى لهم الأراضي الواسعة. ومن ثم تشكلت منهم طبقة ثرية ومتطورة تتمتع فيها المرأة بوضع قانوني مساو تقريبا لوضع الرجل. فمن الملاحظ عن ملوك الدولة القديمة أنهم قسموا إدارة الأقاليم إلى 38 مندوبة وعيّنوا على كل إدارة مندوبين مزودين بصلاحيات رئيسية ثلاث : مسؤولية الشرطة العامة باعتبارهم "قادة البلاد" وصيانة الأراضي تحت "عج مر" وإدارة الأراضي الملكية باعتبارهم "مديري القصور الملكية" وهنالك مديرو أقاليم الأرنب البري، وكانت مدافنهم أبا عن جد في بلدة الشيخ سعيد، ولا شك أن نفوذ مندوبي الملك في إدارة الأقاليم ساعدهم على أن يلعبوا دورا حاسما في أزمات الحكم، ومنها السابعة نحو احتلال المناصب. وهكذا كان عهد الأسرتين السابعة والثامنة من أسوإ عهود التاريخ المصري القديم وصفحة قاتمة في حياة المصريين حدثت هذه الفترة في آخر أسرات منف بين 2260–2220 ق. م. انفجرت ثورة شعبية عاتية في زمن الأسرة السابعة حيث حكم فيها سبعون ملكا في سبعين يوما ثم تأتي الأسرة الثامنة التي لا نعرف ترتيبا زمنيا لملوك هذه الأسرة لكن من المعروف أن البدو اجتاحوا الدلتا، وبقي الثوران الإيديولوجي وإعادة النظر في المعتقدات إلى مجيء الأسرة التاسعة التي اتخذت مدينة هيراكليوبوليس الكبرى شمال السهل الغني لبحر يوسف. وهي عاصمة الإقليم العشرين، أصبحت مقراً لبيت ملكي جديد حوالي 2220 ق. م وبين الأسرتين التاسعة والعاشرة تمكنا من أن نعرف بالاسم الملوك الآتي ذكرهم : مريب رع، حيتي واح كارع، حيتي، نفر كارع نب كاورع، ختي مري كارع ومريب رع هو أول الملوك رتب ألقابه وفقا للأصول : "حورس، خادم السيدين حورس الذهبي الملك ابن رع". وفي غمرة الفوضى السائدة لاح بريق من الأمل إذ برزت إلى مكان الصدارة في

مصر مدينتان هما : مدينة هيراكليوبوليس في شمال مصر العليا ومدينة طيبة في جنوب البلاد لقد استطاع خبتي الأول حاكم هيراكليوبوليس أن يغتصب العرش الملكي من آخر ملوك الأسرة الثامنة في ممفيس وأن ينقل العاصمة الى مدينته ويؤسس الأسرة التاسعة فيها (توجد بمتحف الأرميتاج بمدينة لينينغراد بردية عليها نص الملك خيتي ينصح فيه ابنه وخليفته أن يكون متسامحا مع الأمراء) وفي الوقت الذي أخذت تحكم الأسرة العاشرة في مدينة هيراكليوبوليس ظهرت سلالة أخرى قوية تحكم في مدينة طيبة وهي الأسرة الحادية عشرة وقد دار الصراع بين ملوك طيبة وملوك هيراكليوبوليس من أجل السيطرة على مصر كلها وانتهى الصراع بانتصار ملوك الأسرة الحادية عشرة فأصبحت طيبة عاصمة لمصر المتحدة من جديد في دولة واحدة و منذ ذلك الحين يدخل تاريخ مصر في دور جديد هو ما يسمى بعهد الدولة الوسطى.

2 – مصر في عهد الدولة الوسطى

امتدت فترة حكم الدولة الوسطى من سنة 2050 إلى 1700 ق. م وحكمت خلالها في مصر ثلاث أسرات هي : الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة لقد أسس الأسرة الحادية عشرة في طيبة منتوحوتب الذي أنهى حكم الأسرة العاشرة في هيراكليوبوليس ووحّد مصر تحت سلطته وبنتيجة اتحاد مصر في دولة واحدة انتهت حالة الفوضى الداخلية التي سادت في البلاد خلال الفترة الانتقالية السابقة ووضع حد لغارات الشعوب المجاورة على مصر كالنوبيين والآسيويين والليبيين كما حدث تطور كبير في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وفي عهد الأسرة الثانية عشرة 2000 إلى 1888 ق. م التي أسسها امنمحات الأول حققت مصر أيضا استقرارا سياسيا وازدهارا اقتصاديا كبيرا لقد قام الفرعون بعدة إجراءات لتوطيد وحدة البلاد وتأمين الاستقرار الداخلي فأول عمل قام به هو استمالة حكام الأقاليم الذين لازالوا يتمتعون بالنفوذ وذلك

دون الاخلال بهيبة الحكم وسلطة الملك المركزية لقد سمح لهم بشيء من الاستقلال على أن يقوموا بما عليهم من واجبات والتزامات تجاه الدولة كدفع الضرائب وتجهيز الجيوش عند الحاجة إليها ولكي يشرف عن قرب على المنطقة الشمالية أسّس امنمحات الأول عاصمة جديدة(بالإضافة إلى العاصمة الرسمية طيبة) في مكان متوسط بين الشمال والجنوب وسمّاها إتت تاوي، أي القابضة على الوجهين البحري والقبلي. كذلك اهتم بتحسين الأوضاع الاقتصادية فعمل على تنشيط الزراعة والتجارة واستغلال المناجم المعدنية، بعد ذلك التفت إلى الأمور الخارجية فنظّم الحملات على ليبيا والنوبة وسيناء وبعد موت امنمحات الأول خلفه ابنه سنوسرت الأول فتابع سياسة والده الداخلية والخارجية خلف سنوسرت الأول عدة ملوك من أشهرهم سنوسرت الثالث لقد قام ذلك الفرعون بعدة حملات على ليبيا وساق منها الكثير من العبيد والقطيع كذلك قام بهجوم على بلاد النوبة وضم قسما منها إلى مصر، وقد لاحق أيضا القبائل السامية التي هاجمت مصر وطردها حتى جنوب سوريا ووطد نفوذه في فلسطين واهتم أيضا بالأوضاع الداخلية فاستطاع اخضاع حكام الاقاليم خضوعا تاما لسلطته وقد عمل على تنشيط الزراعة والتجارة فأمر بشق قناة مائية من نهر النيل إلى خليج السويس لتصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط، وقد خلف سنوسرت الثالث ابنه امنمحات الثالث الذي اهتم أيضا بمشاريع الري والأعمال العمرانية إذ أمر بانشاء سد كبير في منطقة الفيوم و ببناء قصر عظيم قرب السد (يحتوي على 3000 غرفة و قد أطلق عليه هيرودوت اسم قصر اللابيرنت أي قصر التيه، إذ يتيه الزائر بين أروقته) كذلك اهتم بأمور الصناعة والتجارة فأمر باستثمار مناجم سيناء ووضع وحدة نقدية من النحاس وهكذا ازدهرت البلاد في عهده حتى قيل فيه أنه كسا القطرين حلةّ خضراء. ولكن حكام الأقاليم انتهزوا فرصة ضعفه في شيخوخته فتمكنوا من استعادة نفوذهم وإنهاء حكم الأسرة الثانية عشرة الذي اتصف بالازدهار الاقتصادي والاستقرار الداخلي والتوسع الخارجي.

أما عهد الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة فقد كان من العهود المظلمة في مصر، لقد نشأت المنازعات الداخلية بين حكام الأقاليم أنفسهم وبينهم من السلطة المركزية من جهة أخرى وهكذا كثرت المؤامرات والدسائس والحروب الأهلية فاضطرب النظام واختل الأمن وراح يتقلب على العرش ملك تلو آخر حتى أننا لا نكاد نعلم عنهم إلا أسماءهم كذلك توقفت مشاريع الري فتدهورت الزراعة وتعطلت التجارة فعمّ الفقر في البلاد وقد ساعدت حالة الفوضى تلك على نجاح هجوم الهيكسوس واحتلالهم مصر حوالي سنة 1700 ق. م. لقد جاء الهيكسوس (ملوك الرعاة أو البدو أو الأجانب) من سورية وفلسطين و تشكلوا من قبائل مختلفة منها السامية والحثية والكاشية واستقر الهيكسوس في القسم الشرقي من دلتا النيل واتخذوا عاصمة لهم مدينة افاريس وبسطوا نفوذهم على مصر وسورية وبلاد النهرين وقد استمر احتلال الهيكسوس حوالي 150 سنة وحكمت منهم في مصر أسرتان : الأسرة الخامسة عشرة والأسرة السادسة عشرة ومن أشهر ملوك الهيكسوس الملك حيان والملك أبو فنيس اللذان فرضا سيطرتهما على معظم البلاد وأجبرا الأمراء المصريين على دفع الجزية للهكسوس. لكن العاصمة الجنوبية طيبة حافظت على شئ من الاستقلال وظل أمراؤها يلقبون أنفسهم بالفراعنة رغم أنهم كانوا يدفعون الجزية للهكسوس ويعترفون بالسلطة العليا لهم، وفي مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد قامت في مصر حرب تحريرية ضد الهيكسوس بزعامة ملوك طيبة وقد قاد تلك الحرب في أول الأمر الملك سقنزع (مؤسسس الأسرة السابعة عشرة في طيبة) لكنه سقط قتيلا في إحدى المعارك مع الهيكسوس وعثر المنقّبون على مومياءه فوجدوا في رأسه خمس طعنات وبعد الموت تجدّدت الحرب بقيادة ابنه كاموس، فحاول هيكسوس إثارة أمراء النوبة ضدّه لإيقاعه بين نارين من الشمال والجنوب رغم ذلك تابع كاموس القتال فحرر مصر الوسطى ولكنه توفي قبل أن يستطيع تحرير مصر بأكملها وقد استلم

الحكم بعد كاموس أخوه أحمس (1584 _ 1559 ق. م) الذي أسس الأسرة الثامنة عشرة واستطاع أحمس بمساعدة جيش بري وأسطول نهري أن يدحر الهيكسوس نحو الشمال وأن يحتّل عاصمتهم افاريس وقد وقع قسم من الهيكسوس في الأسر ولاذ القسم الآخر بالفرار فلاحقهم أحمس بقواته إلى فلسطين وحاصرهم في قلعة شاروهين حتى انتصر عليهم وعاد إلى طيبة محمّلا بالغنائم مكللًا بالنصر (جاء في نص منقوش على قبر رئيس البحارة واسمه أحمس ما يلي : ... عندما حاصر نامدية أفاريس أظهرت شجاعتي في فرقة المشاة أمام جلالته فعيّنت على سفينة في ممفيس ... ثم احتللنا مدينة أفاريس فحصلت هناك على غنيمة مكونة من رجل وثلاث نساء –أي أربعة رؤوس– فمنحني جلالته أياهم عبيدا لي. ثم حاصرنا مدينة شاروهين مدة ثلاث سنوات فاحتلّها جلالته (الفرعون أحمس) وقد حصلت هناك على غنيمة مكونة من امرأتين ويد واحدة فأعطوني ذهبا على شجاعتي ومنحوني الامرأتين عبدتين لي ...) كان الهيكسوس أقل عددا من المصريين لذلك تأثروا بلغتهم وحضارتهم وقد اتخذ ملوك الهيكسوس ألقاب الفراعنة المصريين وأسماء مصرية ومن ناحية ثانية فقد تأثر المصريون بالمحتلّين الهيكسوس وأخذوا عنهم بعض الأشياء كصناعة العربات الحربية مثلا واكتسب المصريون في حروبهم الطويلة مع الهيكسوس خبرة في الأمور العسكرية وأدركوا ضرورة تطوير الجيش والأسلحة وضرورة اتحاد وإقامة حكم مركزي قوي يستطيع أن يحمي البلاد من الأخطار الخارجية في المستقبل وكذلك ضرورة التوسع الخارجي لضمان أمن مصر وتأمين موارد اقتصادية جديدة لها.

3 - مصر في عهد الدولة الحديثة

يطلق على الدولة التي نشأت في مصر بعد طرد الهيكسوس منها اسم الدولة الحديثة وقد استمرت تلك الدولة أكثر من خمسة قرون(1584 _ 1071 ق. م)

وحكمت البلاد فيها ثلاث أسرات هي : الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون، وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة يلاحظ نشاط ملموس في سياسة مصر الخارجية لقد أخذ ملوك تلك الأسرة يعملون على تأسيس إمبراطورية تضم بلاد النوبة (السودان) ومصر وسورية بما فيها فلسطين وفينيقية وكان مؤسس الأسرة أحمس الأول قد وضع حجر الأساس لتلك الإمبراطورية بطرده الهيكسوس من مصر وملاحقتهم إلى فلسطين أمّا ابنه امنحوتب الأول فقد أرسل حملة إلى بلاد النوبة وحملة إلى سورية كذلك قاد صهره وخليفته تحوتمس حملة إلى بلاد النوبة وحملة أخرى إلى سورية وصل بها إلى نهر الفرات وخلد انتصاره بلوحة تذكارية أقامها هناك (جاء في النص المنقوش على قبر رئيس البحارة أحمس ما يلي : ... بعد أن قضى جلالته أي أحمس الأول على القبائل الآسيوية المجاورة أبحر في نهر النيل إلى شمال بلاد النوبة ليقضي على النوبيين الرحل واستطاع أن يلحق بهم الهزيمة والدمار ... وقد سافرت على سفينة ملك مصر العليا والسفلى المرحوم جوسركار– الاسم الملكي للفرعون امنحوتب الأول (1559 _ 1538 ق. م)– عندما أبحر في النيل إلى بلاد النوبة بقصد توسيع حدود مصر ... ثم سافرت على سفينة ملك مصر العليا والسفلى المرحوم أخيبركار – الاسم الملكي للفرعون تحوتمس الأول 1538 _ 1525 ق. م – عندما أبحر في النيل إلى بلاد النوبة ليقضي على التمرد فيما وراء حدود مصر وليصد غارات البدو من الصحراء، وقد أظهرت مهارتي أمامه في شلالات النيل عندما قدت السفن في مكان خطير، فعيّنوني قائدا للبحارة ... بعد ذلك توجهنا إلى سورية لننقل غبار معاركنا إلى ما وراء الحدود وقد وصل جلالته – أي تحوتمس الأول– إلى شمال بلاد النهرين، طال عمره وبقي سالما فوجد ذلك المتمرد يقود المعركة ولكن جلالته ألحق بهم قتلا وتدميرا فلم يحصل على عدد كبير من الأسرى كغنيمة بعد الانتصار أمّا أنا فقد حاربت في الصفوف الأولى من جيشنا ورأى جلالته ما أظهرت من شجاعة لقد أسرت عربة مع خيولها ومن كان عليها وقدّمتهم إلى جلالته فكافأوني ثانية بالذهب لقد طعنت في السن وها أنا

أسجل تلك المكافآت التي حصلت عليها على جدران قبري وإني أرقد في قبر محفور في الصخر كنت قد أعددته بنفسي ...) بعد موت تحوتمس الأول سنة 1525 ق. م خمدت حركة التوسع الخارجي فترة من الزمن إذ أن ابنه تحوتمس الثاني توفي بعد مدة قصيرة من استلامه الحكم وأصبحت زوجته (أخته من أبيه) حشتبوت وصية على ابنه الصغير تحوتمس الثالث وقد فضلت حشتبوت السياسة السلمية وبدلا من الحملات الحربية أرسلت حملات تجارية بحرية إلى بلاد البنط (إرتيريا حاليا) جاءت محملة بالذهب والبخور والمرمر والأبنوس والعاج والقرود كذلك اهتمت حتشبسوت بالأعمال العمرانية فأمرت ببناء معبد الدير البحري قرب طيبة وخلدت أعمالها بكتابة نقشت على جدرانه ولكن عدم اهتمام حتشبسوت بالأمور الحربية أدى إلى تدهور وضع مصر العسكري في سورية فاستغل الأمراء السوريون ذلك الوضع وأعلنوا تمردهم ضد السيادة المصرية، بعد وفاة حتشبسوت سنة 1503 ق. م استقل في الحكم تحوتمس الثالث الذي كانت وصية علية فوجه السياسة المصرية نحو التوسع والفتوح من جديد لقد قاد تحوتمس الثالث عدة حملات عسكرية إلى سورية فانتصر في إحداها على تحالف الأمراء السوريين قرب مدينة مجدو بفلسطين في أخرى عند مدينة قادش على بحيرة قطينة إلى الغرب من حمص وفي معركة عند كركميش قرب جرابلس الحالية هزم أيضا جيوش الميتانيين وخلّد انتصاره بلوحة تذكارية أقامها على شاطئ الفرات إلى جانب اللوحة التي تركها جده تحوتمس الأول هناك وهكذا استطاع تحوتمس الثالث بحملاته المتعددة على سورية أن يقضي على تمرد الأمراء السوريين وأن يعيد سورية ثانية تخت النفوذ المصري، ولم تقتصر حملاته على سورية فقط وإنما وجه عدة حملات إلى بلاد النوبة أيضا فأخضع معظمها إلى سلطته خلف تحوتمس الثالث ابنه أمنحوتب الثاني، الذي خلفه ابنه تحوتمس الرابع ثم ابنه امنحوتب الثالث وقد ورث هؤلاء الملوك الثلاثة إمبراطورية واسعة الأرجاء راسخة البنيان فنعمت مصر بفترة رخاء

وازدهار كثر العمران فيها وازداد الترف وبعد موت امنحوتب الثالث خلفه ابنه امنحوتب الرابع (الملقب باخناتون – أي الذي يعجب آتون – وزوج نيفرتيتي التي كان اسمها الأصلي تادوخيبا وبنت ملك الميتانيين دوشر أتا) وقد اهتم أمنحوتب الرابع بالأمور الدينية أكثر من اهتمامه بالأمور السياسية، مما أدى إلى زوال النفوذ المصري من سورية تقريبا ليحل مكانه نفوذ الحثيين وكانت تسود في طيبة عبادة الإله آمون فكثرت معابده وأملاكه وكهنته وقد أخذ كهنة آمون يتدخلون في أمور الدولة الدنيوية فأصبحوا يشكلون خطرا على الحكم وأراد امنحوتب الرابع التخلص من ذلك الخطر فأبطل عبادة الإله آمون وصادر أملاك معابده ولاحق كهنته كما أنه أوجد عقيدة جديدة تتمثل بعبادة إله الشمس آتون وأنشأ أيضا عاصمة جديدة بدلا من طيبة هي مدينة أخيت آتون (في تل العمارنة حاليا) ومعناها أفق آتون ولكن الظروف في مصر لم تكن مواتية لهذا الانقلاب الجذري فلم يلاق أصلاح اخنانخون الديني تأييدا كبيرا في البلاد وبعد موت امنحوتب الرابع (اخناتون) استلم الحكم توت عنخ آمون فأعاد عبادة الإله آمون وأبطل عبادة آتون كما غادر أيضا مدينة أخيت آتون وعاد إلى طيبة ولما توفي توت عنخ آمون حاولت أرملته انخسن آمون (ابنة اخناتون) أن تحافظ على السلطة بيديها وأن تنهي الصراع بين المصريين والحثيين على النفوذ والسيطرة في غرب آسيا وذلك عن طريق زواجها بأمير من الحثيين لكن الكهنة والأمراء المصريين لم يرغبوا أن يروا على عرش بلادهم ملكا أجنبيا فدبّروا قتل العريس الحثي الذي قدم إلى مصر قبل الزواج ونصّبوا على العرش المصري القائد العسكري الناضج الخبير المجرب حار محب، وقد عمل حار محب على إزالة بقايا عبادة آتون وأعاد إلى آمون إله سلطته ومجده كما اهتم أيضا بإصلاح الجهاز الإداري وإعادة الأمن والنظام في البلاد وبموت حار محب انتهى حكم الأسرة الثامنة عشرة التي بلغت مصر في عهدها ذروة المجد والتقدم واستلمت الحكم في مصر الأسرة التاسعة عشرة حوالي سنة 1340 ق. م وكان مؤسسها

رمسيس الأول الذي توفي بعد سنتين من استلامه الحكم وقد تولى الملك من بعده ابنه سيتي الأول فعمل على إعادة النفوذ المصري في سورية بعد أن كاد يتلاشى في أواخر حكم الأسرة الثامنة عشرة و هكذا قاد حملة عسكرية اجتازت فلسطين ووصلت إلى قادش حيث اشتبكت في معركة مع الحثيين و انتهى القتال بعقد معاهدة صداقة بين الطرفين كذلك حارب سيتي الأول الليبين وأوقف غاراتهم على الدلتا واهتم ذلك الفرعون أيضا بإصلاح الجهاز الإداري وبالأعمال العمرانية إذ أمر بإتمام بهو الأعمدة العظيم في معبد الكرنك بطيبة وببناء معبد في أبيدوس سجلت على جدرانه أسماء جميع الملوك المصريين الذين حكموا منذ عهد الأسرة الأولى وقد خلف سيتي الأول ابنه رمسيس الثاني فتابع أعمال والده الحربية ووضع نصب عينيه إعادة الإمبراطورية المصرية إلى حدودها السابقة أيام تحوتمس الثالث عندما امتدت تلك الحدود إلى أعالي الفرات و هكذا جمع رمسيس الثاني جيشا كبيرا قسمه إلى أربع فرق وأطلق على كل فرقة اسم أحد الآلهة المصرية (آمون، رع، – بتاح، ست) وقد عبر الجيش المصري سورية الجنوبية متّجها نحو الشّمال يتقدمه الملك رمسيس الثاني على رأس فرقة الإله آمون بينما عسكر ملك الحثيين مثيلا بجيشه المؤلف من 17 ألف محاربا و3500 مركبة حربية عند مدينة قادش الواقعة على بحيرة قطينة غرب مدينة حمص (قرية تل النبي مند حاليا) ولما اقتربت فرقة آمون منفردة من مدينة قادش فاجأتها القوات الحثية ولحقت بها خسائر فادحة لكن رمسيس الثّاني صمد مع حرسه في المعركة حتى وصلت بقية قواته فتحول من الدفاع إلى الهجوم وتراجع الحثيون إلى ما وراء نهر المعاصي وعلى مايبدو كانت قوات الطرفين متعادلة تقريبا إذ تراجعت القوات المصرية دون أن تحاول الاستيلاء على مدينة قادش أو بدأت مفاوضات الصلح ودامت مدة طويلة إلى أن تم أخيرا في عام 1296 ق. م عقد معاهدة صداقة وقّعها رمسيس الثاني وحاتوشيل الثالث ملك الحثيين الجديد وتنص تلك المعاهدة على تعهد الطرفين

.بعدم اعتداء أحدهما على الآخر في المستقبل وبالدفاع المشترك ضد الاعتداء الخارجي أو التمرد الداخلي، وبتسليم اللاجئين السياسيين وقد ظلت فلسطين مع جنوب سورية والساحل الفنيقي تحت النفوذ المصري بينما ظل شمال سورية تحت سلطة الحثيين ولتمتين أواصر الصداقة تزوج رمسيس الثاني من ابنة حاتوشيل الذي حضربنفسه مراسيم الزواج في مصر كما نقشت أخبار تلك الزيارة على مدخل معبد أمر ببنائه رمسيس الثاني بالأعمال العمرانية أيضا وقد تم بناء بهو الأعمدة الذي بدا به أسلافه في معبد الكرنك وفيه 134 عمودا ضخما كذلك أمر ببناء معبد الرمسيوم الذي سجلت على جدرانه أخبار معاركه مع الحثيين هذا بالإضافة إلى عدد كبير من المسلات التي أقيمت في تانيس وفي معبد الأقصر وغير ذلك من الأماكن وبعد وفاة رمسيس الثاني خلفه ابنه منبتاح فتعرضت مصر في عهده لغزو الليبين ولكنه تمكن من صدهم و بعد موت منبتاح اضطربت الأوضاع الداخلية في مصر وأعلن حكّام الأقاليم الانفصال عن العاصمة طيبة فاستغل ذلك الوضع أمير من أصل سوري اسمه ايرسو واستولى على العرش الملكي ولكن قام ضده أمير من أسرة الرعامسة المصريين يدعى ست نخت فعزله واستلم الحكم اسس ست نخت الأسرة العشرين وتوفي بعد سنتين من استلامه الحكم فخلفه ابنه رمسيس الثالث وقد قام رمسيس الثالث بإصلاح الجهاز الإداري وبتنظيم الجيش فاستطاع انقاذ مصر من الخطرين اللّذين هدّداها، هما خطر الليبين وخطر شعوب البحر لقد قاد ذلك الفرعون عدة حملات ضد الليبيين الذين أغاروا على الدلتا من جهة الغرب واستطاع دحرهم بالقوة، كذلك تصدّى لشعوب البحر (شعوب هندو–أوروبية انحدرت من منطقة القوقاز إلى فارس والهند وآسيا الصغرى والبلقان وجزر بحرإيجة، ووصل قسم منها إلى سورية وفلسطين ومصر) فخاض معركة معهم عند مدينة رفح ومعركة أخرى بحرية عند مدينة بورسعيد الحالية، ثم قاد حملة إلى فلسطين وسورية، واستطاع أن يشتّت شعوب البحر التي وصلت إلى هناك

ولكن في أواخر حكم رمسيس الثالث عمت الفوضى في البلاد ودبّ الضعف والانحلال في الدولة المصرية، لقد ازداد نفوذ الكهنة وكثرت ثروتهم فأصبحوا لا يحسبون حسابا للسلطة الملكية. كذلك أخذ كبار الموظفين يستغلون موارد الدولة لمصلختهم ويسيئون استعمال وظائفهم كما أخذ الجنود المرتزقة من الأجانب يتسلطون على شؤون الحكم ونشأت أيضا أزمة اقتصادية وارتفعت الأسعار فقامت الاضطرابات في كل مكان وأخيرا دبرت مؤامرة على حياة الملك انتهت بقتله وبعد مقتل رمسيس الثالث حكم من الأسرة العشرين أحد عشر ملكا من الملوك الضعفاء وقد ازدادت الفوضى خلال حكمهم فلم يبق للسلطة الملكية إلا الظلّ بينما أخذ يزداد نفوذ كهنة الاله آمون حتى استطاعوا السيطرة نهائيا على العرش الملكي.

4 – مصر في عهود الضعف والاحتلال

أ – الأسرة الحادية والعشرون وسيطرة الكهنة على الحكم

ازداد نفوذ الكهنة إلى درجة كبيرة، حتى أن حيريحور رئيس كهنة معابد آمون في طيبة استطاع أن يحكم قبضته على زمام السلطة الدنيوية بالإضافة إلى السلطة الدينية وتلقب بألقاب الفراعنة وأسس أسرة حاكمة هي الأسرة الحادية والعشرون و لكن حريحور لم يستطع بسط سلطته على جميع البلاد حيث ظل يحكم في الدلتا أمير يدعى سمنديس جعل مركزه في مدينة تانيس. وفيما بعد اتحدت الأسرتان إذ تزوج أحد أحفاد حريحور من إحدى حفيدات سمنديس وأعلن نفسه ملكا على البلاد بينما ترك لبعض أفراد أسرته وظيفة رئيس كهنةآمون. و لم تستطيع هذه الاسرة إنقاذ البلاد من الأوضاع السيئة بل ازدادت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في تدهورها.

ب – سيطرة الليبيين على الحكم وتأسيس الأسرة الثانية والعشرين

رأينا سابقا كيف أن الليبيين كانوا يهددون الحدود المصرية في عهد الدولة الحديثة وقاموا بعدة غارات حربية على مصر ولكنها لقت الصد والفشل غير أن الكثيرين من الليبيين أخذوا يهاجرون إلى مصر بصورة سليمة ويعملون هناك بالتجارة أو الزراعة ثم استقروا في وسط البلاد وشمالها وتمصّروا فيما بعد أخذ أحفادهم يتطوعون في الجيش المصري كجنود مرتزقة حتى كثر عددهم وازداد نفوذهم وتوصلوا إلى المناصب العالية فنافسوا العسكريين المصريين ودفعوا بهم إلى المرتبة الثانية وشكّلوا طبقة عسكرية تنافس بنفوذها سيطرة الكهنة ونفوذهم وفي منتصف القرن العاشر قبل الميلاد استطاع أحد القادة العسكريين وهو من أصل ليبي يدعى شيشونق (950–929 ق. م) أن يستولي على السلطة العليا في مصر ويؤسس سلالة حاكمة هي الأسرة الثانية و العشرون واتخذ مركزا لحكمه مدينة تانيس في الدلتا، ولكن كهنة آمون في طيبة قاوموه لمحاولة الحد من نفوذهم فضغط عليهم حتى اضطر بعضهم للفرار إلى الصحراء الغربية أو إلى بلاد النوبة وقد عمل شيشونق أيضا على إعادة النفوذ المصري في فلسطين (الذي تلاشى تقريبا في عهد الأسرة الحادية والعشرين) فاستغل النزاع القائم بين المملكتين اليهوديتين ودعم يربعام في ثورته ضد سليمان وابنه رحبعام ثم قام بحملة إلى فلسطين هاجم فيها أورشليم وعاد بالغنائم من كنوز الملك سليمان في خلفاء شيشونق وعهد الأسرتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين اللتين هما من أصل ليبي أيضا، تضعف السلطة المركزية وتتفتت وحدة البلاد السياسية فيستقل كل حاكم بإقليمه ويدور الصراع بين حكام الأقاليم على السلطة والسيطرة فعمت الفوضى والاضطرابات ويزداد الظلم والاستغلال من قبل الكهنة وطبقة العسكريين والموظفين ويضعف نفوذ مصر خارج البلاد وقد أدّى توقف الفتوحات الخارجية إلى نقص في عدد العبيد من أسرى الحروب لذلك

يظهر اتجاه لاستعباد سكان البلاد الأصليين وأصبح الكثيرون من المدينين الفقراء الذين لا يستطيعون تأدية ديونهم يحوّلون إلى عبيد وقد حاول الفرعون بوكوريس (من الأسرة الرابعة والعشرين وضع حد لذلك (على غرار حمورابي) فأصدر أمرا بمنع استعباد المدينين والاكتفاء بمصادرة أملاكهم فقط. ولكن لم يكتب لهذا الإصلاح النجاح إذ اقتصر حكم بوكوريس على مصر السفلى و لمدة قصيرة فقط ولم تؤد القوانين التي أصدرها إلى منع استعباد الجماهير الكادحة.

ج – غزو النوبيين مصر وتأسيس الأسرة الخامسة و العشرين

عندما سيطر شيشونق على الحكم في مصر اضطر بعض معارضيه إلى مغادرتها والتوجه إلى بلاد النوبة (الكوش) حاملين معهم كنوزا وأموالا كثيرة وقد أقام المهاجرون (معظمهم من كهنة آمون والحكام الموالون لهم) في مدينة ناباتا، ثم استطاعوا تأسيس أسرة مالكة حكمت بلاد النوبة وظل هؤلاء يدعون بأنهم أصحاب الحق في عرش مصر ويقدسّون آمون ومعابده في طيبة وأخذوا يتحينون الفرص لفرض سيطرتهم على مصر وعندما اشتد الصراع بين حكام الأقاليم المصرية قام ملك النوبة بيعنخي سنة 740 ق. م بحملة على مصر وأخضع لسلطته الحكام المتنافسين وفي سنة 720ق. م قام ابنه وخليفته شاباكو بحملة أخرى وفرض سيطرته التامة على مصر وأسّس فيها سلالة نوبية حاكمة هي الأسرة الخامسة والعشرون، هؤلاء النوبيون لم يتميزوا كثيرا بتقاليدهم وديانتهم عن المصريين، حتى أن لغتهم الرسمية في النوبة كانت نفس اللغة المصرية، كما أنهم لم يعتبروا أنفسهم في مصرحكاما غرباء لكن المؤيدين لهم في طيبة كانوا أكثر من المؤيدين في مناطق الشمال.

د – غزو الآشوريين مصر وتأسيس الأسرة السادسة والعشرين

أخذ الآشوريين في بسط سلطتهم على سورية وفلسطين، فراح ملوك مصر يعملون على تحريض الحكام السوريين ضد الآشوريين، ويقدمون لهم

المؤازرة والدعم للحفاظ على نفوذهم من جهة ولإبعاد الخطر الآشوري عن مصر من جهة أخرى لذلك قام الآشوريون في النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد بثلاث حملات على مصر سنة (671– 667– 663) بقيادة (أسر حدون) أحد أبناء سنحريب ثم آشور بانيبال، فخضع حكام الأقاليم المصرية إلى سلطة الآشوريين وأجبروا على دفع الجزية لهم. كما قدّم أمراء الدلتا ولاءهم للأشوريين مما دفع أسر حدون إبقاهم في مناصبهم كولاة تحت إشراف الآشوريين. ولكن رافق ذلك مقاومة مستمرة من قبل الملوك النوبيين وبعض الحكام المصريين الموالين لهم ضد الاحتلال الآشوري وقد أدى هذا الصراع إلى زعزعة قوة الطرفين فاستغل ذلك بسامتيك حاكم مدينة(سايس) واستطاع تحرير البلاد من المحتلين الآشوريين والنوبيين معا. بعد أن أشتد الصراع الأشوري النبتاوي على مصر. ويُعَدّ عصر باسماتيك بداية عهد جديد فقد استطاع أن يؤسس أسرة جديدة هي الأسرة السادسة والعشرين.

هـ – عصر النهضة المؤقتة في مصر

تجمع الإشارات التاريخية على أن بسامتيك كان حاكما على مدينة سايس (صا الحجر) في ظل السيادة الآشورية على مصر. ولما بدأ الضعف يدب في جسم الإمبراطورية الآشورية وانشغل الآشوريون باخماد الثورات المتعددة، أخذ بسامتيك يعمل على تحرير مصر من سيطرتهم، واستطاع طرد الحاميات الآشورية وملاحقتها حتى فلسطين. ثم فرض سلطته على مصر السفلى وطرد النوبيين من طيبة وقضى على الأسرة الحاكمة فيها ووحد مصر في دولة واحدة كما أسس أسرة حاكمة هي الأسرة السادسة والعشرون (663 _ 525 ق. م) واعتمد بسامتيك في نضاله لتوحيد البلاد، وفي صراعه مع الآشوريين على الجنود الأجانب إذ تذكر المصادر أنه عقد تحالفا مع مملكة ليديا الواقعة على الساحل الجنوبي من آسيا الصغرى فأمده ملك الليديين اليوناني

بالجنود المرتزقة من اليونانيين المدربين. أما خليفة بسامتيك نيخاو الثاني فقد حاول إعادة النفوذ المصريفي غربي آسيا، فتقدم إلى فلسطين بجيشه وأخضع المملكة اليهودية وفرض عليها غرامة مالية حربية وجزية سنوية تدفعها مملكة يهودا إلى مصر. ومن المعروف عنه أنه تقدم نحو نهر الفرات للتدّخّل في الصراع الدآئر بين الآشوريين والكلدانيين المتحالفين مع الميديين الفرس. وقد خالف نيخاو التقاليد المصرية المعروفة فقد أراد دعم الآشوريين أعداء مصر التقليديين، وهذا الأمر تم لضرورة سياسية خوفا من انتصار الكلدانيين وتعاظم قوتهم مما قد يهدد مصر في مستقبلها في المنطقة مثل سورية وفلسطين.

بعد موت نيخاو استلم الحكم في مصر ابنه بسامتيك الثاني ولم يترك آثارا هامة تذكر ثم استلم الحكم بعده ابنه ابريس الذي حاول استعادة نفوذ مصر على فلسطين وسورية اللتين كانتا تحت سيطرة الكلدانيين وقد أرسل ابريس أسطولا أخضع به مدن الساحل السوري، وشجع الملك اليهودي صدقيا على الثورة ضد ملك بابل الكلداني لكن نبوخذ نصر توجه إلى سورية واستعاد مدن الساحل السوري ودمر أورشليم وأخذ آلاف الأسرى اليهود إلى بابل (انظر التوراة سفر التكوين الثاني وسفر أرميا) كما هرب الكثيرون من اليهود إلى مصر وأقاموا فيها، وبعد موت إبريس استلم الحكم قريبه أمازيس السلطة (أو أحمس الثاني)، الذي حكم مدة طويلة من سنة 569 إلى 525 ق.م وقد أرسل حملة من الجنود المرتزقة اليونانيين إلى فلسطين فصدتها الحاميات الكلدانية هناك لكن الكلدانيين لم يهاجموا مصر حيث كانوا منشغلين بالخطر الفارسي الذي أخذ يلوح من الشرق. كما تحالف أمازيس مع الليديين واليونانيين المقيمين في ليبيا لصد الأخطار المحتملة على مصر كذلك أرسل أسطولا في البحر المتوسط احتلّ به قبرص وتم عقد تحالف مع جزيرة ساموس وعندما توفي أمازيس لم يحكم خليفته بسامتيك الثالث سوى بضعة أشهر حيث كان الفرس قد قضوا على الدولة الكلدانية في بابل واتّجهوا نحو مصر بقيادة

قمبيز فاستولوا عليها سنة 525 ق. م وأنهوا حكم الأسرة السادسة والعشرين امتاز عهد الأسرة السادسة والعشرين أو ما يسمى بالعهد الصاوي (نسبة إلى العاصمة سايس أو صا الحجر) بازدهار اقتصادي واستقرار سياسي توطدت فيه السلطة المركزية وبنشاط خارجي سياسي وتجاري كما ساد في مصر عصر الحديد الذي استوردت خاماته من البلاد الآسيوية ونشأت العلاقات التجارية مع المدن الفنيقية واليونانية كذلك كثرت الجاليات التجارية من اليونانيين الذين أسسوا المراكز التجارية في مصر (خاصة في ميناء نوكراتيس غربي الدلتا وقد اهتم ملوك هذه الأسرة بإنشاء الأساطيل البحرية وأرسلوا أسطولا دار حول إفريقيا وحاولوا أيضا إعادة شق القناة التي تصل البحر المتوسط بالأحمر عن طريق نهر النيل (كانت قد شقت في عهد الدولة الحديثة ثم ردمت بسبب قلة العناية بها) ولكنهم توقفوا عن اتمام المشروع حيث سادت فكرة أن البحر الأحمر أعلى من سطح الدلتا فيؤدي شق القناة إلى غمر الدلتا بالمياه وقد تم تنفيذ هذا المشروع فيما بعد في عهد الاحتلال الفارسي لمصر كذلك كثر في العهد الصاوي عدد الجنود المرتزقة من اليونانيين في الجيش المصري وخصوا بامتيازات كثيرة مما أدى لاستلاء الجنود المصريين والليبيين ونشوب عدة اصطدامات بين الطرفين.

و- عصر الاحتلال الفارسي وتأسيس الأسرات السابعة والعشرين إلى الحادية والثلاثين في مصر

بعد أن توفي (كورش) وتبعه (قمبيز) على عرش فارس وطد قمبيز سيطرته في مصر حيث عين عليها واليا فارسيا وقفل عائدا إلى بلاده. غير أن قمبيز يعتبر مؤسس الأسرة السابعة والعشرين في مصر. وعليه فقد تمكن من إقامة إمبراطورية واسعة إلا أن الأحوال ساءت في فارس نفسها بعد وفاته إذ حدثت ثورة في سوريا وبعد وفاته استلم الحكم ابنه دارا وتبدلت سياسة

الفرس في مصر من القسوة إلى اللين إذ ألغيت مصادرة إيرادات المعابد وتم العمل بموجب القوانين المصرية ولكن مهما يكن من أمر فإن المصريين لم يستكينوا للاحتلال الفارسي ولما وقعت الحرب بين الفرس واليونانيين وانهزم الجيش الفرسي في معركة سهل الماراتون الشهيرة سنة 490 ق. م اضطر الفرس لسحب بعض قواتهم من مصر، فنشبت الثورة فيها ضد الفرس سنة 486 ق. م ومات دارا سنة 485 ق. م قبل أن يتمكن من القضاء عليها و لكن ابنه كزركسيس توجه إلى مصر وقضى على الثورة فيها و قد ساعده اليهود المقيمون هناك ضد المصريين ثم قامت ثورة أخرى في مصر سنة 460 ق. م بقيادة أمير مصري يدعى أمون حر وساعده اليونانيون بأسطول أرسلته أثينا وقد استطاع آمون حر طرد الفرس وتأسيس أسرة حاكمة هي الأسرة الثامنة والعشرون. ثم استلمت الحكم بعدها الأسرة التاسعة والعشرين وأشهر ملوكها نفرتيس الذي كانت علاقاته ودية مع اسبارطة اليونانية. ثم أسس نختنبو الأسرة الثلاثين. وأنشأ ابنه جد حر جيشا وأسطولا بمساعدة الجنود المرتزقة من اليونانيين واتجه لملاقاة الفرس في سورية ولكن ابنه وأخاه تآمرا عليه وعادا إلى مصر مع قسم كبير من الجيش فالتجأ هو إلى الفرس. وقد هاجم الفرس مصر فيما بعد بقيادة أرتاكزركسيس فاحتلوها وقضوا على نختنبو الثاني سنة 341 ق. م ولكن ثورات المصريين لم تتوقف بل اندلعت في كل مكان، وقاد حركة المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفارسي أمير من الدلتا اسمه خباشا الذي أعلن نفسه ملكا على مصر أيضا.

ز – احتلال المقدونيين مصر

انتصر الإسكندر المقدوني على الفرس في معركة الغرانيك 334 ق. م ثم إسوس سنة 333 ق. م وسيطر بعد ذلك على البلاد التي كانت خاضعة للفرس. بعد ذلك توجه الإسكندر بجيوشه إلى غزو مصر فاحتلّها سنة 332 ق. م دون

مقاومة إذ كان المصريون قد استنجدوا به من قبل لتخليصهم من الحكم الفارسي وهكذا استقبل المصريون الإسكندر كمنقذ لهم فأظهر الإسكندر احترامه للشعب المصري ولعادات البلاد وتقاليدها وقد أمر الإسكندر ببناء مدينة على ساحل المتوسط في مصر سميت باسمه وهي مدينة "الإسكندرية"، ويقال أن جثمانه نقل إليها بعد موت الإسكندر سنة 323 ق. م حكم في مصر قائده بطليموس وأسس فيها أسرة حاكمة هي أسرة البطالسة أو البطالمة. وآخر من حكم من البطالمة في مصر هي كليوباترة التي وضعت حدا لحياتها سنة 30 ق. م أي عند احتلال الرومان لمصر.

5 – أهم مظاهرالحضارة المصرية

أ – النظام السياسي

ساد في مصر النظّام الملكي منذ توحيد مصر في دولة واحدة (على يد مينا، أو نارمر، نعرمر) حوالي سنة 3000 ق.م واستمر حتى غزوالإسكندر المقدوني سنة 332 ق. م وكان الملك يؤلّه في عهد الدولة القديمة ويلقب بالإله العظيم، وقد أصبح اسمه مقدّسا لا يحق لأحد أن ينطق به بصوت مسموع. أما في حالات الضرورة فكانت تستعمل كلمة برعو (نقلت إلى اللغات الأخرى باسم فرعون) وتعني البيت العظيم، ولكن يقصد بها ساكن ذلك البيت، وكما كان الملك إلها في حياته فقد كان في نظر المصريين، إلها بعد مماته إذ ينتقل إلى السماء ويخلفه ملك إله من صلبه على الأرض وفي عهد الأسرات الأولى كان الملك هو الدولة فحكمه مطلق وكلمته قانون، ولذلك لم يكن قانونا مسجلاً، لأن قانونا موضوعا ولو من قبله قد يصبح منافسا له يؤثر على سلطته ويتعارض مع الإرادة الملكية للإله الملك. ولكن في عهد الأسرة الخامسة أخذ الملك يفقد مركزه كإله أعظم مطلق الصلاحيات، وتبدل لقبه من الإله العظيم إلى الإله الطيب. ولقد أصبحت سلطة إله الشمس رع تفوق سلطة الملك مما اضطر الملك أن يسمي

نفسه ابن رع لثبات حقه الشرعي في الحكم. وفي عهد الأسرتين السابعة والثامنة – عصر التفتت والانحلال– عندما ضعفت السلطة المركزية للملك، وأعلن حكام الأقاليم استقلالهم عن تلك السلطة عن تلك السلطة واتخذ بعضهم ألقاب الفراعنة، زالت من نفوس الناس هيبة وعظمة وقدسية الملوك واعتدى بعضهم على قصورهم وأهراماتهم وسرقوا محتوياتها. وهكذا نزلت منزلة الملك الإله إلى مستوى البشر. وحينما انتقل الملك إلى عهد الدولة الوسطى تبدلت الصفات السابقة للملك الإله. فأصبح الراعي المسؤول عن رعيته يسهر على مصلحة شعبه ويدافع عنه ضد الأخطار الخارجية ويؤمن له العدل والحق. ولكن الملك ظل يلقب بلقب الإله ابن الشمس، مع أن قداسته أصبحت ضعيفة في النفوس ولو ظلت قداسة الملك الإلهية باقية كما كانت في عهد الدولة القديمة لما حدثت مؤامرة اغتيال على الملك امنمحات الأول، أو على الأقل ظلت أخبار تلك المؤامرة مكتومة على الناس. وفي عهد الدولة الحديثة ظلت السلطة الملكية ذات طابع إلهي وأصبح الملك الكاهن الأكبر لجميع الآلهة وإلهً وسيطا بين الآلهة والبشر، يتصل بالآلهة و يتلقى الأوامر منها في الأحلام أو داخل المعبد المقدس. ولكن الملك الإله في عهد الدولة الحديثة أصبح يقود الجيش في الحروب باسم الإله آمون – رع الذي يمنحه سيفه وعلمه الإلهي كي يتحقق النصر على الأعداء. وهكذا أصبحت صفات الملوك الآلهة تتميز بالمغامرة والشجاعة والبطولة الخارقة التي تفوق مقدرة البشر في الحروب والصيد. أما في عهد توت عنخ آمون وخلفائه فقد ضعفت مكانة الملك الإله وخضع لسيطرة كهنة الإله آمون. كذلك لم تعد للملك الإله تلك الرهبة والهيمنة على شعبه بل أصبح لابد من الاستعانة بالآلهة والقوانين. فالملك أصدر المراسيم والقوانين الإصلاحية التي تنص على إنزال عقوبات جسدية بالمظفين المسيئين، كما تنص على استنزال لعنة الآلهة على الفراعنة الذين لا يعملون بما جاء في تلك المراسيم. وقد انعكس ضعف مكانة الملوك على النواحي الفنية، إذ نلاحظ في

مشهد بمعبد الكرنك صورة الملك رمسيس التاسع مساوية بالحجم لصورة رئيس الكهنة امنحوتب، بينما كانت التقاليد الفنية في السابق تقتضي برسم صورة الملك أكبر حجما من صور الكهنة والموظفين، لأنه من طبيعة إلاهية تختلف عن طبيعة البشر. وهكذا نلاحظ أن جميع المقدّسات ومن بينها الملوك الآلهة قد قل احترامها وضعفت مكانتها.

في أواخر عهد الدولة الحديثة . ولكن بالرغم من ذلك ظل الملك يلقب بلقب الإله أو ابن الإله. أما عندما أخذ يحكم في مصر ملوك من أصل أجنبي كالليّبييّن ثم النوبيين فالآشوريين ثم الفرس فالإسكندر المكيدوني، لم يعد الملوك يدعون أنهم آلهة أو أبناء آلهة، ولم يعد أحد ينظر إليهم نظرة تقديس وتأليه. والخلاصة أن مفهوم السلطة الملكية الإلهية قد تطور من جلال الألوهية السامية والسلطة المطلقة المستبدة في عهد الدولة القديمة، إلى المسؤولية الاجتماعية للملك الراعي الصالح العادل الخاضع للحكم الإلهي الأعلى في عهد الدولة الوسطى، إلى الحكمة الإلهية المتصفة بالبطولة والشجاعة الخارقة في الفترة الأولى من عهد الدولة الحديثة، إلى الملكية المتخاذلة أمام سلطة كهنة آمون، إلى زوال الصفة الإلهية في عهد الاحتلال الأجنبي وكانت مهام الملك متعدّدة. فمهمته الدينية هي تعيين الكهنة وإقامة المعابد والمقابر الملكية والإشراف على العقائد الدينية، باعتباره إلها أو ابنا للإله أو الكاهن الأعظم أما مهمته العسكرية فهي الدفاع عن البلاد وحماية الحدود ومطاردة الأعداء وقيادة الجيوش، لذلك فمن الطبيعي أن يكون الملك صاحب مقدرة جسدية تساعده على القيام بالمهام الحربية التي هي جزء أساسي من واجباته. وكانت النقوش تظهر الملوك بمظهر القوة كمشاهد اصطياد للفيلة والتماسيح والأسود، أو في المشاهد الحربية. وكانت مهمة الملك القضائية هي إقامة العدل بين الناس ومنع كل ظلم واعتداء، فإليه ترفع ظلامات المتظلّمين، باعتباره القاضي الأعلى وصاحب السلطة المطلقة القائمة على الحق الإلهي والملك هو المشرع الأول الذي يسن القوانين.

ولكن حتى أواخر عهد الدولة الحديثة لم يعثر في مصر على قوانين مكتوبة كشريعة حمورابي مثلا في بلاد النهرين. أما بعدَ ذلك الحين فقد بدأت تظهر بعض القوانين والشرائع الصادرة عن الفراعنة، كالقوانين المتعلقة بالتجارة مثلا والتي تنسب إلى الملك بوكوريس الذي حكم مصر في نهاية القرن السابع قبل الميلاد.
أما بالنسبة لحياة الملك فقد كان يقيم في قصر عظيم يحتوي على قسمين أحدهما للحياة العامة الرسمية والآخر لحياته الخاصة يعيش فيه مع زوجة شرعية واحدة هي الملكة بالإضافة إلى أولاده وعدد كبير من المحظيات. وكان الملوك في أوقات فراغهم يمارسون الصيد أو يستمعون إلى الغناء والموسيقى مع مشاهدة الرقص.
وقد كان في القصر الملكي عدد كبير من الموظفين و منهم : المدير العام للقصر ومعاونوه وموظفو التاج والعرش والأطباء والمشرفون على غرف الملك وزينته ولباسه ورؤساء الحرس وغيرهم كثيرون وكانت التقاليد المتبعة في مقابلة الملك هي السجود له وتقبيل الأرض أمام قدميه، أو تقبيل قدمي الفرعون من قبل الشخصيات الكبيرة فقط، وبعد إذن خاص منه، وكان الملك يلبس لباسا خاصاً به، كما كان له عدة تيجان يستعملها أثناء الاحتفالات الرسمية، ويحيط عنقه بمجوهرات ذهبية ويحمل بيده شارات السلطة المقدسة أما تتويج الملك فيتم في احتفال كبير يسلم فيه شارات السلطة (الصولجان والسوط) ويوضع على رأسه التاج الأبيض رمز مملكة الجنوب ثم التاج الأحمر رمز مملكة الشمال. ويجلس الملك على عرش تحيط به أوراق البرديّ رمز الوجه القبلي وأزهار اللوتس رمز الوجه البحري. بعد ذلك يطوف الملك حول الحائط الأبيض ويطل على الدلتا والصعيد رمزا لتسلمه السلطة على مصر العليا والسفلي وتحمله مسؤولية حمايتهما. وكانت تلك المراسيم تتكرّر بمناسبة ذكرى تسلمه العرش كل عام.
وكان يخلف الملك بعد موته ابنه الأكبر، وفي بعض الأحيان كان الملك يشرك ابنه معه في الحكم تهيئة له لاستلام العرش. ولكن كان أحيانا يستولي على العرش مغتصبون غرباء عن الأسرة الحاكمة ويشكّلون أسراً حاكمة جديدة ولكي يعتبر

حكمهم شرعيا كانوا يتزوجون من أميرات من الأسرة المالكة السابقة وتجرى لهم مراسم التتويج التقليدية، وكانت الملكة أو الزوجة الشرعية للملك يجب أن تكون من دم ملكي عادة، مما دفع بعض ملوك الدولة الحديثة أن يتزوجوا من أخواتهم حفاظا على الدم الملكي. وقد كانت الملكة تقوم أيضا بالوصاية على ابنها إذا تولى العرش وهو طفل فتمارس السلطة الملكية حتى يكبر، أو تستأثر بالسلطة لنفسها في بعض الأحيان. وسجل التاريخ المصري أسماء ملكات كثيرات ممن فعلن ذلك، كالملكة نيتوكريس والدة بيبي الثاني من الأسرة السادسة والملكة ختشبسوت والدة تحوتمس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة، والملكة إنخسن آمون زوجة توت عنخ آمون التي أرادت الزواج من أمير حثي للحفاظ على عرشها بعد أن مات زوجها دون أن يترك ولدا يرثه. وهكذا كانت تلعب الملكات دورا في سياسة البلاد و أن كان ذلك الدور محدودا، أو أنه انتهى إلى الفشل في أكثر الحالات.

- ب – **طبيعة السلطة الدينية :** لو قابلنا جميع الديانات، بعضها ببعض، لنستخلص منها الجوهر المشترك بينها، لرأينا أن الديانة تتألف من ثلاث عناصر رئيسية، تقابل قوى ثلاثاً هي : الفهم والإرادة والعاطفة، أو بعبارة أخرى، قوى المعرفة والإرادة والحب، وتلك العناصر الرئيسية هي :

• المعتقد أو المذهب، وهو مجموعة من الحقائق يجب معرفتها والتصديق بها . فوجود اللّه، وأنه أسمى من الإنسان، وأنه له حقّ عليه في هذه الحياة الحاضرة وفي حياة مستقبلة. وأنه في هذه الدنيا واهب الخيرات، وسيكون بعد ذلك ديّاناً لنا، فيكافئنا على أعمالنا الصالحة، أو يعاقبنا على أعمالنا الشريرة، كل هذه الأمور هي بعض الحقائق التي لا بد لكل الإنسان من الاعتقاد بها لكي يحسب متديناً وهو بمعرفته إياها يكرم اللّه " بفهمه ".

• العنصر الأدبي، وهو مجموعة من الواجبات تتحتم معرفتها والعمل بها. فتمجيد الإنسان للّه ومعاملة الناسّ بالعدل، واحترامه نفساً وروحاً وجسداً،

وتجمله بالتقوى. هي نزر يسير من الواجبات التي لابد لكل إنسان من السير عليها لكي يصير متدينا، وهو بمراعاته إياها يكرم اللّه " بإرادته". العبادة، وهي مجموعة من الطقوس تتحتم معرفتها وإتمامها. فالإنسان، أياً كانت ديانته يتقرب إلى اللّه بها كما يتقرب إلى كائن محبوب، بواسطة طقوس ورموز معيّنة، يتممها وسطاء. وبممارسة الإنسان لهذه الطقوس يكرم اللّه "بعاطفته" حين ننظر إلى الأهرامات وأبي الهول ومعبد الكرنك وغيرها من الآثار الفرعونية الخالدة، ولا بدّ على المؤرخين والباحثين في مجال الدراسات المصرية القديمة. فبينما تفرد كتب وأبحاث التاريخ الفرعوني أغلب صفحاتها لسرد أسرار وجوانب الإنجاز المادي للمصريين القدماء فإنها تكاد تصمت تماماً عن الخوض في الإنجاز الأدبي أو المعنوي بصفة عامة، والحديث عن المواطن المصري البسيط أو طبقة العامة بصفة خاصة. ومن خلال مجمل ما كتب في هذا الصدد نجد أن المصادر والكتابات التاريخية تتّفق حول عدد من القضايا التي تمثل الهيكل الأساسي للأوضاع السياسية والاجتماعية في مصر القديمة، ونعرض فيما يلي ملخصاً لهذه القضايا الرئيسية :

أولاً : منذ بداية التاريخ السياسي لمصر القديمة كان الملوك الفراعنة يحكمون البلاد بالحق الإلهي، أي بوصفهم آلهة يختلفون في النسب والمنشإ والحقوق والواجبات عن سائر الشّعب. وقد تقبّل المصريون هذه القضية كجزء من عقيدتهم الدينية، وأصبح الملوك على هذا النحو فوق مستوى المساءلة أو المناقشة أو النقد. وإلى جانب خروج الفراعنة من الانتماء إلى الشعب فقد خرج أيضاً من هذا الانتماء كل من رجال الحاشية والبلاط الملكي بوصفهم أقرب الناس إلى الملوك، وطبقة الكهنة بوصفهما الوسيط بين الملوك والشعب، وأصحاب قانون الحق الإلهي الذي يمنح الفرعون المكانة التي تحول بينه وبين المسؤولية عن عمله وأحكامه وقراراته. وعلى الرغم من قناعة الشعب بمختلف طوائفه بالديانة المصرية، فإن هذه الديانة كانت في هيكلها الرئيسي تمثل

مصالح الملوك وأتباعهم من الحاشية والكهنة. وقد تضمنت أدبيات المرحلة ما يعرف باسم "أدب الحكمة" ويتمثل في مجموعة من النصائح والتعاليم التي تتخذ في الغالب شكل نصح الأب لابنه، ويعد هذا النوع بمثابة الإنجاز الأدبي الرئيسي للحضارة المصرية القديمة. وتدور هذه النصائح بوجه عام حول ضرورة التحلي بالأخلاق والفضائل مثل آداب المائدة والتواضع ونجدة الملهوف بالإضافة إلى التحذير من الخصال الذميمة، بينما لا تتطرق إلى أية حقوق يفترض وجودها للفرد لدى الجماعة أو الملوك.

ثانيا : استغل الملوك حقهم المطلق في ملكية كل شيء – الأرض وما عليها ومن عليها – بمقتضى الحق الإلهي، وقاموا باستنزاف كل أو معظم موارد البلاد في إنشاء الأهرامات والمعابد الجنائزية، وأدى ذلك إلى انهيار اقتصادي في نهاية عهد الدولة القديمة، وبدأت جموع الشعب التي ساهمت في بناء الأهرام تتعرض لمحنة الجوع والفقر، وشهدت البلاد عند وفاة الملك بسبي الثاني في نهاية الأسرة السادسة عصراً من الفوضى والانهيار، وهو ما يعرف في التاريخ باسم – الثورة الاجتماعية الأولى – وترجع جذور الثورة الاجتماعية الأولى في مصر القديمة إلى الفترات التي حكم فيها فراعنة الأسرة السادسة في ظل انهيار واستنزاف موارد البلاد. في ذلك العهد كان النبلاء والأثرياء من غير الحكام قد بدءوا في الظهور على مسرح الأحداث بما لديهم من ثروات ضخمة، وأصبحوا قادرين على مناقشة الملوك في إنشاء المباني الجنائزية الضخمة، وأصبحوا أيضاً قادرين على التطلع لممارسة الحكم ولم يقف في طريقهم في هذا المجال سوى قضية الحق الإلهي. هذا الوضع أدى إلى زعزعة الاستقرار السياسي والاجتماعي في البلاد، وساعد على شيوع الفوضى وتراخي قبضة الملوك في الإمساك بزمام الأمور بعد ظهور النبلاء كقوة اقتصادية وسعيهم للحصول على دور سياسي في البلاد وتعد أسباب الثورة الاجتماعية الأولى بمثابة ملخص واف للأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مصر منذ

توحيد البلاد وحتى نهاية عصر الدولة القديمة، والأسباب الرئيسية لهذه الثورة وفقاً لمختلف المصادر التاريخية هي :

1– انهيار الاقتصاد بسبب بذخ الإنفاق الحكومي.

2 – تخصيص هبات دائمة للإنفاق على مقابر الملوك.

3– زيادة الضرائب على الشعب وإعفاء الأرض الملكية منها.

4– شراء ولاء حكّام الأقاليم بمنحهم الأراضي.

5 – تأليه الملك وارتباط الطبقة الحاكمة به.

6 – سوء حال العمال والفلاحين وزيادة الضرائب عليهم.

7– الفساد الإداري في جهاز الحكم.

ثالثاً : رغم أن الثورة الاجتماعية الأولى قد حققت بعض النتائج الهامة مثل إقرار مسؤولية الملك عن الشعب وإمكانية أن يطلب الشعب من الفرعون السعي لتحقيق العدل في البلاد، ومثل الدعوة إلى المساواة وتكافؤ الفرص والعدل الاجتماعي، رغم هذا لم تشهد البلاد تغييراً جذرياً في نظم الحكم، ولم تتحسن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية كثيراً وإنما ظلت رهناً بشخصية الفرعون الذي يتولى السلطة. فقد شهدت البلاد بعض التحسن في عهد كل من سنوسرت الثالث وامنمحات الثالث، ولكنها عادت إلى حالة الضعف الشامل مع نهاية الأسرة الثانية عشرة، وكان نظام الإقطاع من أهم أسباب ذلك التدهور، وشهدت هذه الفترة دخول الهكسوس مصر وبسط سيطرتهم على منطقة الدلتا في ظل ضعف الحكام المصريين. وحين نجح أحمس في طرد الهكسوس وحلف أخاه على عرش طيبة شهد هذا العصر تمجيداً للجندية وتقديساً للروح العسكرية، وأصبحت الحرب غير قاصرة على الفرعون وإنما

هي حرب الشعب بأكمله. ورغم هذا فإن الأمور سرعان ما عادت إلى أسوإ مما كانت عليه وذلك في عهد بسماتيك الأول في الأسرة السادس والعشرين، وهو الفرعون الذي نجح في إحياء قومية البلاد وطرد الغزاة الأشوريين، ولكنه توسع في الاستعانة بالمرتزقة اليونانيين، وشجّع التجار الأجانب وقدم لهم مختلف التسهيلات وأبعد الوطنيين عن الحياة العسكرية العملية. وفي أعقاب عهد بسماتيك الأول، وفي ظل غياب شعبية قومية ودائمة لنظام الحكم استمرت البلاد على حالة التأرجح بين الاستقرار والاضطراب وفقاً لقوة وشخصية الحاكم ولم تلبث أن انهارت أمام العرس في الحقبة الأخيرة من عصر الأسرات. وتوالت الثورات الشعبية ضد الفرس دون جدوى إلى أن انتهى عهد الفراعنة حين ظهر الاسكندر المقدوني وانتصر على الفرس سنة 333 قبل الميلاد ثم دخل مصر في العام التالي دون مقاومة.

رابعاً : من خلال العرض الموجز لأهم ملامح التاريخ السياسي والاجتماعي لمصر الفرعونية يمكن أن نستخلص الحقائق الرئيسية التالية :

- ارتكز النظام السياسي على فكرة الملكية الإلهية، والملك بهذه الصفة هو مصدر السيادة في الدولة ومنبع الحق والعدل. وترتب على تأليه الملك جمع السلطات كلها في شخصه سواء كانت تشريعية أو تنفيذية أو قضائية. وقد فقدت الملكية جزءاً من قوتها وقداستها في عهد الإقطاع، وأصبح الملك الإنسانا أكثر منه إلها، ومع ذلك لم تكن هناك قوى أو تنظيمات شعبية تملك حق مسائلة الملوك أو حسابهم.

- رغم أن الثورة الاجتماعية الأولى قد أدت إلى إعلاء شأن العدالة والمساواة والمطالبة بالعدل الاجتماعي وتكافؤ الفرص، فإن هذه الأمور لم تتعد كونها مجرد شعارات يرفعها الناس والحكماء، ولم يكن من الممكن أن تتحول إلى تغيير جذري في نظام الحكم في غياب أي نوع من التنظيمات الشعبية. ولا

تذكر المصادر التاريخية لهذه الفترة أية إشارات لمطالبة شعبية أو حتى فردية بخصوص ضرورة المشاركة الشعبية الإيجابية لتحقيق الأهداف التي قامت من أجلها الثورة.

الأعمال الأدبية التي وصلت إلينا من مصر الفرعونية لا ترقى بحال من الأحوال إلى مستوى الفكر السياسي اليوناني، أو القوانين الرومانية، أو تشريعات حمورابي، فضلاً عن الفلسفة اليونانية القديمة أو الأدب اليوناني. وأدبيات الفراعنة لا تعدو أن تكون مجموعة من النصائح الأخلاقية العامة وبعض التعاليم بخصوص العالم الآخر وفكرة الثواب والعقاب، بالإضافة إلى بعض القصص والأساطير التي لا تخرج كثيراً عن هذا الإطار. ولعلّ رتابة الحياة والتقسيم الأزلي للأدوار بين أفراد وجماعات وطبقات الشعب هو السبب الرئيسي في هذا الجدب الذي عانت منه الحضارة المصرية القديمة. فبينما كانت بلاد اليونان مسرحاً لنشاط سياسي واجتماعي شبه يومي، وبلاد الرومان بهذه الإمبراطورية العظيمة يتم تكوينها بخطى مدروسة في الداخل والخارج، كانت مصر على العكس من ذلك، حيث تمثل فيها اكبر قدر من الاستاتيكية السياسية والاجتماعية في العالم القديم، وظلت أقدار البلاد رهناً بمستوى الجالس على العرش، وظلّ الشعب قابعاً في مكانه، راضياً بتوارث نفس الأدوار والأقدار جيلاً بعد جيل، وهذا الوضع بطبيعة الحال لا يمثل بيئة صالحة لظهور الفكر السياسي أو الأدب أو الفلسفة.

يكاد لا يخلو سجل كلّ من الملوك الفراعنة من حملات عسكرية في الجنوب لتأديب النوبيين، وفي الشمال لاتقاء شر الآسيويين، وفي الغرب ضد الليبيين. والدلالة الواضحة لهذه الواجبات الدائمة هي أن الحكّام المصريين في ظل غياب المؤسسات الشعبية وفي ظل غياب الفكر السياسي الواضح والدائم والعملي والدّينامي، لم يكونوا قادرين على تكوين دولة آمنة ذات حدود ثابتة.

ويمكن أن ينسحب ذلك أيضا على الفترات التي تمكن فيها بعض الفراعنة من التوسع شمالاً حتى سورية وفلسطين، ثم عادت حدود البلاد في العهود التالية لتتقلص وتنحصر في الرقعة التقليدية القديمة للبلاد. ذلك أن الغزوات التي كان هؤلاء الفراعنة يقومون بها لم تكن أكثر من غزوات عسكرية بحتة، حيث لا يذكر التاريخ أن حاكماً مصرياً قد تمكن من غزو إحدى المناطق غزواً سياسياً وحضارياً يصطبغ معه أهل البلاد بالصبغة المصرية، ولا يكون استمرارهم في الدولة مرتهناً بالردع العسكري من جانب الجالس على عرش مصر في العهود التالية.

كما اعتاد الملوك الفراعنة المبالغة في تقدير حجم انتصاراتهم العسكرية والحطّ من شأن أسلافهم بمحو أعماله من جدران المعابد والمسلاّت، فإن الأعمال الفنية المصرية هي الأخرى كانت تتصف بالمبالغة غير المبرّرة، ويتضح ذلك من مجرد النظر إلى أهرامات الجيزة، وتمثال "ممنون" وأغلب الأعمال الفنية الأخرى في مختلف المجالات. وحين نقارن بين الفن المصري القديم ونظيره اليوناني سوف نجد أن الأعمال الفنية اليونانية خاصة في مجال النحت تتصف بالواقعية الشديدة والاهتمام بالتفاصيل الدقيقة، وهو الأمر الذي تفتقده بشدة أعمال الفنان المصري القديم. يعدّ الفكر الديني في مصر القديمة مسؤولاً إلى حد كبير عن الأداء السياسي والاجتماعي في البلاد. فبمقتضى ألوهية الملك لم يناقش أحد من عامة الشعب أو حتى حكمائه مسائل جوهرية مثل جدوى الإنفاق شديد البذخ على المباني الجنائزية، ومثل حق الشعب في المشاركة في الحكم وغير ذلك من الأمور الهامة. وكانت قضية الفكر الديني هي الاختلاف الجوهري بين الحضارة المصرية والحضارات الرئيسية الأخرى مثل الحضارة اليونانية والرومانية. فبينما كان المصريون يؤمنون بأن الملوك من نسل الآلهة، كان اليونانيون يحاسبون حكامهم حتى على خشبة المسرح. وبينما كان المصريون يقضون حياتهم في الطاعة والولاء سعياً لثواب العالم

الآخر، كان اليونانيون يضعون لأنفسهم نظاماً دينياً يضم أسرة كاملة من الآلهة وأنصاف الآلهة، ويجعل لكل من هؤلاء الآلهة مهمة محددة تتصل بالحياة اليومية. ولهذا السبب لم يكن المواطن اليوناني يشتري الآخرة بالدنيا، ولم يكن على استعداد لممارسة الطاعة العمياء للحاكم باسم الدين أو الألوهية. ومن هنا نجح اليونانيون في بناء الحضارة بشقيها المادي والأدبي، ونجحت حضارتهم في التواصل الحقيقي مع كل العصور التالية، وبينما لا زال العالم بأسره يتدارس حتى الآن أعمال أرسطو وسقراط وأفلاطون ومسرحيات ايسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس واريستوفانيس، فإن الحضارة المصرية القديمة قد اكتفت بأن تترك للعالم مجموعة الآثار العملاقة وألغاز فن التحنيط بعد الموت. وبينما نجحت الحضارة اليونانية أيضا في صنع حضارة ومدنية أوروبا الغربية ووضعها على مقعد الصدارة والسيادة في العالم الحديث والمعاصر، فإن الحضارة المصرية قد اكتفت بتسليم البلاد للغزاة الذين تعاقبوا على مصر لمدة تزيد عن عشرين قرناً متواصلة، وصارت مصر بعد الاستقلال إحدى دول العالم الثالث ولم تزل. هناك بالطبع العديد من التفسيرات والتبريرات للأوضاع السياسية في مصر القديمة، ولعلّ أهم هذه التبريرات وأقربها للصدق والواقع هي تلك التي تستند على الظروف الجغرافية وعوامل البيئة. ففي مصر، حيث يمتد نهر النيل من جنوب البلاد لشمالها ويمثل شريان الحياة لجموع السكان، كان من الطبيعي أن توجد حكومة مركزية قوية تسهم في حماية وحدة واستقرار البلاد. فضلاً عن أن المجتمع الزراعي المستقر الذي أوجدته الظروف الطبيعية في مصر قد أدى بدوره إلى تكوين السمات الرئيسية في الشخصية المصرية، وأسهم أيضاً في التكوين العقائدي والوجداني لسكان البلاد منذ عصورها الأولى. ولكن ما نحن بصدده الآن ليس البحث عن مبررات وليس أيضاً الهجوم أو التحامل على حضارة عظيمة برغم ما يشوبها من نقائض، نحن ببساطة نبحث فقط النتائج المباشرة للنظام السياسي في مصر الفرعونية.

وهذه النتائج سوف تكون مؤشّراً صادقاً لما ستشهده البلاد بعد ذلك من أوضاع سياسية واجتماعية.وتمتاز الديانة باختصار لأسباب عديدةمنها :

1 – تقديسهم للحيوانات والطّيور.

2 – الميل الدائم للعودة إلى الماضي البعيد ومحاولة مزجه بالحاضر القريب.

3 – الاعتماد على السّحر والقوى الخفية.ولذلك تميزت الديانة المصرية القديمة بطابع خاص بين الديانات القديمة، ومن أهمّ خصائصها :

تعدّد الآلهة : فقد كان لكل إقليم معبود خاص، فقدّسوا الأسد وبالغوا في تقديس اللّبؤة، وجعلوا من الصقر رمزاً للشمس، وقدّسوا البقرة فاتخذوها رمزاً للأمومة وأسموها حتحور، وقدّسوا أبو قردان واتخذوا منه رمزاً للعلم وأسموه تحوت، وقدّس أهل هليوبوليس الشمّس وأسموها رع، وبقدر ما كانت تتسع وتنتشر عبادة إله منها، كان يعظم شأن الإقليم وتتسع مساحته على حساب الأقاليم الأخرى.

وفي الدولة الفرعونية الوسطى، جعلوا "أوزوريس" الأسطورة، متصدراً كل معبودات الأقباط، وفي الدولة الحديثة عبدوا آمون الذي انتصر على الهكسوس فأصبح ملك الآلهة وتنافس كل فراعنة الدولة في تشييد المعابد الضخمة له. إلى أن جاء أخناتون، وبالقهر والقوة والسلطان والجيش القوي، أرغم كل أقاليم مصر وأقباطها، أن يتركوا آلهتهم الإقليمية وأن يتوحدوا جميعاً حول إله واحد اختاره لهم أخناتون وهو الشمس ترسل أشعتها على كل الأقباط، نوراً وحياة، وكان أول حاكم فرعوني يكتفي بصورة الشمس ولم يجعل لها صنماً، كما لم يجعل لها زوجاً أو ولداً مثل كل الآلهة السابقة في حياة الأقباط وأقاليمهم الاثنين والأربعين.

أما أسطورة إيزيس وأزوريس فهي قصة مسلية في تاريخ مصر الفرعوني، يجهل المصريون اليوم أنهما شخصيتين وهميتين مثل شخصية "جحا" ومثل شخصية "بابا نويل"، أوجدها العقل في خياله، ثم جعل منها صورة في واقعه، غير مرئية لكنها تمتلك كل مقومات الحقيقة والصدق في حياة الأقباط. تلك هي أسس الحضارة المصرية التي لأجلها شُيدت الأهرامات ونُحتت الأصنام ونُسخت الوصايا وحُفرت القبور. في تاريخ الحضارات الشرقية القديمة جانباً جوهرياً فيها، وهو الدور المهم والمميز الذي لعبه الدين قديماً في تلك الحضارات، لدرجة يمكن أن نقول بأن الدين كان هو الدافع والموجه لتلك الحضارات وما قدمته للبشرية من إنجازات حضارية متنوعة : معمارية، سياسية، فنية، أدبية وغيرها. أما في وادي النيل فإن الدين المصري القديم يعتبر من أبرز مظاهر الحضارة المصرية، وتفيدنا النصوص الدينية التي نقشها المصريون على جدران المعابد والمقابر وورق البردي في معرفة الكثير من جوانب حياتهم وإنجازاتهم الحضارية في مختلف الميادين الإنسانية.

لقد استمدّ الدين المصري عناصره الأولية من مظاهر الكون والبيئة مثل الشمس والقمر والزلازل والفيضان والمطر والرعد، فقاموا بما يرضي تلك الظواهر ويجنبهم أذاها وآثارها المدمرة.

بدأ المصريون بتصوير آلهتهم بأشكال حيوانية مثل الثور والأسد، ومع تطور الحضارة المصرية تحوّلوا من تمثيل المعبودات من صور الحيوان إلى تمثيلها بصور آدمية مثل صورة (آمون) و(حتحور). ومع تطور الديانة المصرية ظهرت معتقدات دينية جديدة ونشأت الأساطير المصرية القديمة لتقريب المعبودات لإدراك الإنسان المصري، وبحثوا في نشأة الكون وما فيه من مخلوقات من خلال عناصر البيئة مثل الماء والزرع والأرض، وكانت عندهم عواصم دينية تزداد وتتناقص أهميتها تبعاً للأوضاع السياسية، فكانت هناك

مدينة "ممفيس" و "الأشمونين" و"هيليوبولس" التي نشأ فيها أقدم مذهب ديني فرعوني لتفسير نشأة الكون والخليقة.

وكان لرجال الدين دور بارز في الحضارة المصرية فكانوا يقومون بالصلوات والأدعية والإشراف على تقديم القرابين وإدارة أموال المعابد وتدوين شؤونها.

ثم تطورت العقائد الدينية في عهد المملكة الحديثة وتحول الفكر الديني تحولاً خطيراً في عهد الفرعون "أخناتون" صاحب الثورة الدينية في مصر القديمة، وهو الذي قام بتوحيد جميع الآلهة المصرية في إله واحد هو إله قرص الشمس "آتون" وبنى له عاصمة جديدة سماها "أخت آتون"، وهي تل العمارنة حالياً. ويتجلّى أثر الدين في الحضارة المصرية القديمة من خلال معتقداتهم، فقد اعتقد المصريون بأن الإنسان يتألّف من عنصرين هما الجسد والروح، وأن الروح تهجر الجسد عند الموت وتعود إليه في الحياة الثانية، واعتبروا القبر دار الروح. كما آمنوا بالبعث بعد الموت واهتّموا بالمحافظة على الجسد حتى تعود إليه الروح بسهولة ويسر، وحتى يبقى الجسد سليماً قاموا بتحنيطه ودفنه في مكان آمن بعيداً عن المؤثرات الجويّة والحيوانات، فلجأوا إلى بناء المقابر الفرعونية الضخمة من مصاطب وأهرامات مثل أهرامات الجيزة، ووضعوا مع فراعنتهم نصوص الأهرامات Pyramid texts التي تساعدهم في الدخول إلى العالم الآخر وعناية الآلهة بهم في حياة ما بعد الموت، وقد تطورت تلك النصوص فيما بعد إلى ما يعرف باسم "كتاب الموتى" Book of the Death ووضعوا مع الفرعون "مائدة القرابين" Libation table وعليها كل أصناف المأكل والمشارب حتى يتمتع بها في الحياة الأبدية.

إن كل ما تقدّم ليس غريباً، خاصة إذا تذكرنا أن المصريين اعتقدوا بأن الملك هو ظل الإله على الأرض وأن الملك خالد لا يفنى وأنه يتحكم في مصائر

الرعية في الحياة الأخرى من حيث الجنة والنار ولذلك تفانى المصريون في خدمة الفرعون في حياته ومماته.

اعتقد المصريون بفكرة الثواب والعقاب، ويظهر ذلك جلياً في مشهد محاكمة " آني" كما جاء في كتاب الموتى، حيث يصور المشهد عملية وزن قلب الإنسان في الميزان لمعرفة أعماله الصالحة من الفاسدة وبناءً على ذلك يتم الحكم عليه بالجنة أو النار.

إن هذا المشهد يذكرنا بحديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : ((إن في الجسم مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)).

إن أهمية الدين في الحضارة المصرية لم تخف على أحد في القديم أو الحديث، فعندما احتلّ الأشوريون مصر أهانوا الآلهة المصرية وحاولوا فرض عبادة الآلهة عشتار، وهي آلهة سامية، على الشعب المصري فرفض المصريون ذلك بشدة، واستمروا يقاومون الآشوريون حتى تمكنوا من طردهم نهائياً من مصر على يد بسماتيك الأول.

يقول المؤرخ اليوناني "هيرودوت" : "إن المصريين القدماء من أشد الشعوب تديناً"، وقد أدرك الإسكندر المقدوني هذه الحقيقة، فعندما احتلّ مصر تصرف بعكس الآشوريين، فقد لبس ملابس الكهنة المصريين وصلى في معبد الكرنك وذبح القرابين للآلهة، ووضع التاج الفرعوني على رأسه فاحترمه المصريون ورحبوا به فاتحاً لبلادهم رغم أنه كان أجنبياً غازياً.

خلاصة القول

إن الحضارات الشرقية حضارات دينية قامت على خدمة الدين، وهي تتميز عن الحضارات الغربية بمعتقداتها الدينية" الميثولوجيا" التي تناقش

أصل الكون والخليقة وأساطير الآلهة والصراع بين الخير والشر. كل ذلك يعتبر موضوعات مشتركة بين تلك الحضارات مثل العراقية والمصرية والكنعانية والآرامية والفينيقية والعربية والإسلامية، ويدلّ ذلك على وجود وحدة في التفكير الديني ينبع من مصدر واحد قديم.

إن وحدة التفكير هذه ربما هي التي جعلت عقيدة التوحيد بأديانها السماوية تتنزل على الأرض التي قامت عليها حضارات الشرق الأدنى القديم. أدى استغراق الدولة في مصر القديمة في مشروعات الري والبناء، والحرب وخدمة الآلهة، (وقد تكون خدمة الآلهة ومشروعات الري والبناء شبيهة بالخدمة العسكرية)، إلى استلزام واجب الطاعة العمياء لسلطات عليا، بل إنه حتى امنحوتب الرابع "اخناتون" ذلك المبتدع الأعظم في مجالي الدين والفن، لم يتسن له، وهو الفرعون، أن يفلت من عاقبة تمرده وتفرده وابتداعه، فأطبق عليه كهنة آمون وأشياعهم في الجيش وطبقة النبلاء، وأعادوا الأمور إلى نصابها القديم بعد التخلص منه، وأحيوا عبادة الآلهة القديمة التي سعى إلى استبدالها لقد شهدت مصر في عهد اخناتون صراعاً بين القوى الداعية إلى التجديد والإبتداع ،والعالمية والاستفادة من ثمار الحضارات المجاورة، وبين القوى المحافظة المتمثلة في الكهنة وأنصارهم ممن كانوا يرون في أي تجديد أو بدعة خطراً على مصالحهم ونفوذهم، ولا يرون في الحضارات الأخرى وفنونها ما يفوق أو يعادل ما قدمه الأسلاف من قدماء المصريين ويفسرون أي انحطاط في السلطة السياسية، أو أية هزيمة عسكرية، على أنه مظهر لغضب الآلهة على المصريين لهجرهم سُنَة الأوائل، وتبنّيهم لعادات أجنبية غير أن هذه الروح المحافظة في ذلك العهد كانت تخفي وراءها في واقع الأمر قلقاً عميقاً وتآكلاً ملموساً في الثقة بالنفس كان بوسع المصريين في الماضي، في وقت المملكتين القديمة والوسطى، حين كانت الحواجز الجغرافية تحميهم من الحملات والغزوات أن يعيشوا في اكتفاء ذاتي قائم على الإيمان بأنهم أرقى بكثير من

سائر الأمم، غير أن غزو الهكسوس لبلادهم زعزع من هذا الإيمان، كما زعزع منه، حتى بعد تمكنهم من طرد الهكسوس ما نجم عن غزوهم لأقطار أسيوية، واتساع حجم مبادلاتهم التجارية من هذه الأقطار، وكثرة المترددين المصريين على الخارج من الجنود والموظفين والتجار، وتدفق الأجانب على مصر، أما الاستيطان أو الانخراط في صفوف الجيش المصري، فقد مكّن من الاطّلاع على حضارات أخرى مغايرة، ليس بعض مظاهرها بدون حضارة الفراعنة وقد كان أعظم أمجاد أخناتون إدراكه أن العبادة القديمة السائدة في مصر، لا مكان لها في ظل هذه الظروف الجديدة، وأحوال العالم المتغيرة حوله، لا مكان لها في ظل هذه الظروف الجديدة، وأحوال العالم المتغيرة حوله، وأن من شأن استمرارها أن يقضي على مصر بالتحجر، لهذا أقدم على إغلاق المعابد القديمة، ومحو اسم الإله آمون، وابتداع عبادة قرص الشمس الذي تتعدى أفضاله حدود مصر لتشمل الإنسانية بأسرها، والذي يمكن للمصريين أن يجدوه في كل مكان يرحلون إليه في هذا العالم الواسع، ويمكن لغيرهم أن يجدوه متى قدموا إلى مصر بمجرد تطلع هؤلاء وأولئك إلى السماء فوقهم، وقد كانت هذه النظرة العالمية الثورية رد فعل منطقياً للواقع الجديد، فهؤلاء المصريون المنغلقون على أنفسهم لأمد طويل، أدهشهم حين خرجوا من جحورهم، وحين شرعوا في الانفتاح على العالم، أن يجدوا الشمس تسطع وتبعث الضوء والدفء في كل مكان يرتحلون إليه خارج مصر، شأنها في بلادهم، وأدركوا أن هذا الإله عالمي الخير الذي يسبغ نعمته على البشر أجمعين، من شأنه متى اشترك البشر في عبادته أن يخلق بينهم صلات من التفاهم والتآخي والسلام هي في صالح الجميع، لا كتلك الآلهة المحلية التي من شأنها أن تفرق لا أن توحد كان أخناتون إذن هو أول الموحدين في مصر القديمة، وأول الآخذين بأحد المعاني الإيجابية للعولمة، وأول داع في التاريخ إلى النظرة الكونية الشمولية، غير أن أتباعه كانوا قلة قليلة وسط بحر زاخر، فقد ناصره الجند والتجار والإداريون ممن طوفوا وجابوا أنحاء الإمبراطورية، واطلعوا على أحوال الغير، وحضارات

الغير، وديانات الغير، وخبروا تنوع الحياة والعقائد خارج حدود مصر، وقاومه رجال الدين ممن كانوا يمقتون التأثيرات الاجنبية، وأسر النبلاء الذين ارتبطت مصالحهم وامتيازاتهم بعبادة آمون، وحشود من الغوغاء المذعنين لدجل رجال الدين ولهيمنة النبلاء، وكانت قوة الرجعيين هي السبب في فشل محاولة لتعديل مسار مصر حتى تجاري النزعات العالمية الناهضة في منطقة الشرق الأوسط، كما كان لانتصار هذه الرجعية إثارة بعيدة المدى في الحضارة المصرية وفنونها، وفي نفسية الفرد المصري، فقد هجر على الفور فن تل العمارنة بواقعيته وحيويته وفرديته وأساليبه المتحررة المتنوعة، وانحدر فنا النخت والمعمار انحداراً ملموساً في عهد الرعامسة، بحيث بات التركيز الآن على الضخامة لا على الجمال والمشاعر الإنسانية، كذلك تعاظم ميل المصريين إلى الانغلاق على أنفسهم من جديد، والتطلع إلى الماضي وأمجاد السلف الصالح، ومحاولة السير على نهج المملكة القديمة في تقاليدها ومعتقداتها وفنونها، وإن كانت قد تسربت إلى الديانة الآن خزعبلات شعبية من شأنها بعث الأمل في نفوس المطحونين المتعبين من أفراد الشعب، فأضحى الخلود في جنات النعيم من حق الجميع وفي متناولهم "لا من حق من يرضى فرعون عنهم فحسب" وأصبح كافياً أن يوضع مع جثة الميت في تابوته بعض التعاويذ والتمائم السحرية، حتى تضمن له كل الحماية الضرورية من مخاطر العالم السفلي وعذاب القبر.

خامساً: أهم نتائج النظام السياسي في مصر القديمة يمكن إيجازها في النقاط التالية :

أ – الحقوق والصلاحيات المطلقة التي منحتها الديانة المصرية لشخص الملك أدت إلى ربط مصير البلاد بشخصية الحاكم صعوداً وهبوطاً، والقدسية التي أحاطت بالملوك جعلت الحديث عن تنظيمات شعبية أو مجالس نيابية أمراً مستحيلاً.

قوم يملكون الأرض، وآخرون يعلمون في زراعتها. وفي ظل هذه الأوضاع لم يكن متاحاً أن يظهر في مصر القديمة مفكّر سياسي وفيلسوف في حجم أرسطو، أو كاتب دراما في مستوى يوربيديس أو أريستوفليس، واقتصر الأدب المصري القديم على مجرد النصائح وأقوال الحكماء بالإضافة للأساطير التي تنتمي إلى الفكر الديني أكثر من انتمائها إلى الآداب.

هـ – أدى القصور الشديد في الإنتاج الأدبي بالإضافة إلى خلو الساحة السياسية من حركات النقد والتصحيح إلى عقم الفكر السياسي المصري، ومن ثم لم يجد الفراعنة العظام مثل رمسيس وتحتمس تراثاً سياسياً يحملونه معهم إلى البلدان التي قاموا بغزوها عسكرياً. وبالتالي كانت الإمبراطورية المصرية التي وصلت حدودها في بعض العصور إلى شمال سورية وفلسطين لا تمثل سوى إنجازا عسكرياً يحسب فقط لقائد فذّ وجيش قوي وظروف مواتية، ولكنه من ناحية أخرى إنجاز مهدد بالضياع في أية لحظة يتجه فيها مؤشر القوة العسكرية في غير صالح المصريين. ويمثل ذلك تفسيراً لعدم تمكن مصر الفرعونية من الاحتفاظ بحدودها خارج البلاد لفترات زمنية طويلة ومتصلة، ويفسر أيضاً اقتصار التأثير المصري في الحضارات المجاورة على مجرد الجوانب الفنية والتبادل التجاري.

و– الطاعة المطلقة التي كان الشعب المصري يدين بها تجاه حكومته وحكامه لم تشفع له لدى هؤلاء الحكام وإنما على العكس من ذلك كانت السلبية الشعبية سبباً من أسباب توجس الحكام وشكهم في قدرات وإمكانيات مواطنيهم. ونجد صدى هذا الشك والتوجس في ملفات الدولة الحديثة على وجه الخصوص، ذلك أن نجاح الجندي المصري في صفوف جيش أحمس لم يمنحه فرصة الاستقرار والاستمرار في أداء مهمته خلال ذلك العصر، وعاد المرتزقة في عهد بسماتيك، وأقيمت لهم المدن الخاصة، وأفردت لهم صلاحيات

ب – الفكر الديني وطبيعة الحياة في مجتمع زراعي مستقر وعدم الإبهام الفعلي والإيجابي والمنظم لعامة الشعب في الشؤون السياسية للبلاد أدى إلى غياب الوعي الطبقي والقدرة على ردود الأفعال الجماعية الصحيحة.

ج – الدور السياسي الذي لعبه العامة في الحضارات الأخرى وأدى لحصولهم على الحقوق السياسية يمثل الفارق الجوهري بين الحضارة المصرية القديمة وهذه الحضارات. وهو المسئول الأول عن الناتج الفعلي والنهائي لكل من الحضارة المصرية القديمة والحضارات الأخرى.

د – التفاوت الواضح والغريب بين الإنجاز المادي والإنجاز الأدبي في الحضارة المصرية القديمة يرجع إلى الفكر الديني ومستوى الأداء السياسي في مصر الفرعونية. فالمصري القديم حاكماً أو محكوماً لم يكن ينقصه الذكاء أو القدرة على العمل والإبداع كما يتضح من الآثار المعمارية والفنية للفراعنة ومن تراثهم الإداري والعسكري، ولكن قضية التوجه العام هي الفيصل في مسألة الإنجاز المادي أو المعنوي لإحدى الحضارات أو المجتمعات. وفي ظل النظام العام الذي ساد مصر الفرعونية كان من السهل ومن الطبيعي أن يتكاتف الشعب بأكمله لتنفيذ المشروعات العمرانية أو الأعمال الكبرى التي يعهد بها إليه الحكام، بالإضافة إلى مشروعات الري واستصلاح الأراضي والحروب والغزوات العسكرية. أما في مجال الأدب فالأمر يختلف، فليست هناك دوافع قوية أو مناخ ملائم لإنتاج أدب حقيقي. البلاد في حالة استقرار وسكون سياسي واجتماعي، الحراك الاجتماعي شبه منعدم، البيئة الطبيعية ساكنة شديدة الهدوء لا تشهد تغييراً يذكر على مدى قرون طويلة، الحاكم يملك ويحكم ويقرر ويفكر نيابة عن الشعب، الكهنة يحدّدون أفكار وتوجيهات وأقدار الناس ويختفظون لأنفسهم بأسرار كل العلوم، طبقة النبلاء أو الأثرياء ثابتة لا يدخلها وافد جديد ولا يخرج منها عضو قديم، النشاط الاقتصادي في البلاد محدود،

وامتيازات تفوق كثيراً ما كان مقرراً لأقرانهم من المصريين، هذا فضلاً عن الامتيازات التي تقررت في نفس هذا العصر للتجار الأجانب خاصة القادمين من بلاد الإغريق.

الفصل الخامس

حضارة بلاد الرافدين القديمة

- أولا : الحكم السومري القديم
- ثانيا : الحكم الأكدي.
- ثالثا : الحكم السومري الثاني.
- رابعا : الحكم البابلي القديم.
- خامسا : الحكم البابلي الوسيط.
- سادسا : الأشوريون.
- سابعا : العصر البابلي الحديث.
- ثامنا : الاخمينيون الفرس.
- تاسعا : الإنجازات الحضارية في بلاد الرافدين القديمة.

حضارة بلاد الرافدين القديمة

تمهيد

تجمع المصادر المختلفة على أن السومريين سكنوا القسم الأسفل من السهل الذي عرف " منذ آلاف السنين بموقع جغرافي ممتاز مما جعل منه عاملا مساعدا على قيام حضارة منفصلة على أرض تكونت بين نهرين دجلة والفرات وقد سماها الإغريق : (ميسوبتاميا) وورد ذكرها في التوراة بسهل (شنعار) وسميت هذه المنطقة ببلاد (سومر). قد شيّد السومريون مدنهم في جنوب العراق مع بداية عصر الزراعة في بلاد الرافدين، في حدود 9000 سنة قبل الميلاد. وعلى إثر ذلك تطورت القرى الزراعية إلى مدن وتعتبر هذه المدن هي الأقدم كـ "حسونة"، ثم"سمراء"و"حلف" و "العبيد" و"الوركاء" وأخيرا "جمدة نصر". وخلال هذه الأطوار التي نشأت فيها المدن شهد العراق، اتساع الزراعة وبداية الحياة الحضارية، ومن خلال تطور المدن عرف بناء الحضارة أيضا فن التعدين، وابتداع دولاب الخزف وصنع الآجر المفخور والعربة ذات العجلة وكذلك المحراث والسفن الشراعية. التي أحدثت انقلابا كبيرا في نوعية المواد التجارية، حيث أن الواسطة التي كانت تستخدم لنقل البضائع التجارية قبل ظهور السفينة الشراعية تتمثل في الحيوانات. والتجارة بواسطة الحيوانات لا تكون ملائمة للكسب والربح إلا في حالة اقتصارها على المواد الثمينة والخفيفة الوزن كالذهب والفضة والأحجار الكريمة. بينما السفينة ساعدت على الاتجار في مواد أخرى ثقيلة ومتنوعة. وعرفت هذه المنطقة فنّ النّحت، وظهرت المباني العامة كالمعبد حيث كثرت وازدادت أهميّتها منذ طور (العبيد) وعرف طور الوركاء(3500 ق. م) الكتابة ومن المعروف أن الكتابة قد أرست قواعدها تماما خلال طور (جمدة نصر) في حدود سنة 3000ق. م. وتاريخ منطقة بلاد الرافدين قد مر بعدة مراحل هامة منها :

عصر فجر السلالات الذي بدأ في العراق منذ 2800 ق. م واستمر لمدة ستة قرون .

أولا – الحكم السّومريّ القديم

وكان يعرف بالعصر السومري القديم أو بعصر دويلات المدن قبل أن تتوّحد البلاد تحت مملكة كبيرة واحدة. ويقسم العلماء هذه الحقبة الزمنية من تاريخ العراق إلى ثلاثة عصور هامة هي على التوالي : فجر السلالات الأول2700– 2800(ق. م).

ثم فجر السلالات الثاني 2600 –2700 (ق. م).

وأخيرا فجر السلالات الثالث 2400 – 2600(ق. م). ومن الأمور المتفق عليها بين غالبية العلماء المختصين في العصر الحاضر أن السومريين هم سكّان العراق الأصليّون وهؤلاء ليسوا من الساميين[22]. وأنهم كانوا يعرفون بأصحاب حضارة العبيد في وسط العراق وجنوبه وكانت أراضيهم تمتد جنوبا إلى جزيرة ديلمون (البحرين في الوقت الحاضر) قبل أن ترتفع مناسيب مياه الخليج العربي ليصل على حدوده الحالية، ولغة السومريين كانت تعرف باللغة الملتصقة وقد دونت بها السجلات الرسمية وأعمال الملوك والأمراء وعلاقاتهم مع غيرهم من الحكام كما نضجت الكتابة وانتشر استعمالها في العصر السومري فقد شملت شؤون النّاس العامة كالمعاملات التجارية والأحوال الشخصية والمراسلات والآداب والأساطير والشؤون الدينية والعبادات وشملت أيضا القوانين التي نظمت حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية. وكانت أقدم إشارة موثقة تشير إلى وجود القضاة فعلا ترجع بتاريخها إلى حوالي2370 ق. م. حيث وردت في أحد النصوص المسمارية [23].

ثانيا– الحكم الأكدي

انتهى عهد فجر السلالات بقيام "سرجون" الأكدي (2371 2316– ق. م.) بتوحيد بلاد الرافدين في مملكة واحدة. كان سرجون من الأكديين وهم فرع من

الأقوام السامية التي نزحت من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين. ربما في أوائل ألالف الثالثة قبل الميلاد. أو قبل ذلك بقليل. وكانت القبائل الأكدية الرحالة تحتل البلاد المعروفة بأكد الواقعة شمال سومر وتقيم فيها مدنا كبيرة هي : (بورسيبا) وكيش، ونفر وإجادة. فأصبح في سهل بلاد الرافدين شعبان مختلفان ومتنفران وكان من الطبيعي أن يشتد الصراع بينهما على النفوذ، وكانت المدن أيضا في قتال مستمر على أن ظهر سرجون سنة 2750ق. م. حيث حسم الصراع عندما قام بعدة غارات على السومرين قضى فيها على سومر وجعل السهل كله تحت سلطانه ونفوذه. (24)

وليس من المستبعد أن الأكديين قد عاشوا جنبا إلى جنب مع السومريين منذ أقدم العصور وعرف القسم الأوسط والجنوبي من العراق منذ ذلك الزمن باسم البلاد (سومر وأكد)، حكم مؤسس السلالة الأكدية سرجون خمسة وخمسين عاما أدخل خلالها الكثير من الإصلاحات على نظام الحكم والجيش بما في ذلك تطوير أساليب الحرب والسلاح. وكذلك حصل تقدم عظيم في العمارة والفنون بعامة التي تميزت في العصر الأكدي بالقوة والحيوية والحركة. ويعد "نرام – سين" أقوى ملوك السلالة الأكدية الذي حكم زهاء أربعين عاما.

عم الاضطراب في المملكة أواخر العهد الأكدي فقد حكم بعد "نرام – سين" ملوك ضعاف مما شجع الأقوام الجبلية وهم الكوتيون الذين عرفوا في النصوص المسمارية القديمة بأعداء الآلهة، على غزو بلاد "سومر وأكد" إن حكمهم الذي دام حوالي مائة سنة كان عهدا مظلما كادت تنقطع فيه عنا أخبار العراق القديم، وقد عوض عن ذلك ازدهار الحضارة في جنوبي العراق وخاصة في مدينة "لكش" وما يجاورها. وقد اشتهر من بين الأمراء السوريين في أواخر هذا العهد أمير أو ملك اسمه "جودية" الذي عرف بتماثيله الكثيرة التي وصلتنا والذي عمل على إحياء الآداب السومرية وتشييدالعديد من المعابد الفخمة.

ثالثا- الحكم السّومري الثاني

ثارت على الكوتيين مدينة "الوركاء" بقيادة أميرها السومري (أوتو خيكال) الذي لقب نفسه بملك "سومر وأكد" وأهاب بأهل البلاد لحرب الطغاة الأجانب، فالتفت حول المدن وتمكن من القضاء على جموع الكوتيين الكبيرة وخلص البلاد منهم.

انتقل الحكم السومري بعد ذلك إلى مدينة "أور" وتكونت فيها سلالة عرفت بسلالة "أور الثالثة" أسسها الملك (أور – نمو) الذي تعد أيامه من عهود العراق المجيدة وآخر عهد في حياة السومريين السياسية (2113 – 2006 ق. م) لقد استطاع ملوك هذه السلالة الخمسة أن يعيدوا إنشاء إمبراطوريّة واسعة على غرار الإمبراطورية الأكدية شملت جزءا كبيرا من أقاليم الشرق الأدنى. وانتشرت مع التجارة والفتوح حضارة العراق القديم تماما كما كان عليه الحال في العصر الأكدي. لقد اشتهر ملوك هذه السلالة بأعمالهم العمرانية الفذة وامتازت دولتهم بالتنظيم وحسن الإدارة في الداخل والخارج وأصبحت العاصمة (أور) في زمنهم قبلة الشرق القديم ليس من النواحي العمرانية والفنّية والاقتصادية فحسب بل إنهم سنّوا الشرائع بحسب العرف الاجتماعي ووحّدوا الشؤون القضائية في البلاد. وقد امتزجت حياة السومريين الجبلية بحياة الأكديين البدوية السامية في سهول بابل مما أدى ذلك إلى الأزدهار الحضاري وخاصة في ميدان الزراعة واختفت وراءه أحقاد دفينة وذكريات مؤلمة وقد اشتهر من ملوكها سرجون الأكدي السامي ونرام سن السومري.[25]

رابعا- الحكم البابلي القديم

في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد قامت في العراق أسرة حاكمة جديدة عرفت بسلالة بابل الأولى (1894–1595 ق. م) اشتهرت بملكها السادس حمورابي (1728 – 1686 ق. م) الذي جمعت في شخصه خصالا فذّة جعلت من

القائد والسياسي والمصلح والمشرّع فاستطاع بهذه الخصال أن يوّحد البلاد. ثم وقعت حرب ضروس بينه وبين العلاميين من أجل الحصول على السيادة والمساواة .وبقيت تلك الحروب التي دارت بين الفرقين سجالا مدة من الزمن إلى أن أخضع حمورابي جميع بلاد العلاميين.[26] وأظهر حمورابي في تلك الفترة حزما وتدبيرا حسنا مما مكنه من مدّ توسعاته بعد ذلك على شمال بلاد الرافدين وإلى جهات الهلال الخصيب الأخرى. وأخذ بابل عاصمة له بعد أن عمرها ووسعها وجعلها أحدوثة زمانه، حتى سميت البلاد كلها باسمها. ومن أعماله المهمّة سن شريعة واحدة تسري أحكامها في جميع أنحاء المملكة عرفت بقانون حمورابي التي تعد من أولى الشرائع المتكاملة في العالم القديم حيث تجمع بين القانونين المدني والعقوبات فضلا عن الأحوال الشخصية وحمورابي حكم حوالي 43 عاما كانت كلها حقب ازدهار، فكان أعظم ملك عرفه التاريخ. فقد قام بأعمال كثيرة منها تشييد المعابد وبناء المدارس، وحفر الأنهر وشق الترّع. وكل هذه الأعمال خلدت ذكره في بطون كتب التاريخ. وبعده بدأت بابل تضعف شيئا فشيئا حتى انقرضت سلالته في عهد أحد أحفاده المدعو (شموشودتنا) بعد أن حكمت هذه السلالة مدة 155سنة. وقد تميز العصر البابلي القديم بظاهرة اتساع المدن وكثرتها، كما حدث تطور مهم في ازدهار العلوم والمعارف البشرية، حيث انتقلت من أطوارها العملية على طور التدوين والكتابة والبحث. وعلى إثر ذلك انتشرت العلوم البشرية إلى أنحاء العالم القديم. غير أن لكل بداية نهاية فقد هجم الحثيون على سهل بلاد الرافدين وأوقعوا فيه نهبا وسلبا وخربوا كل ما شيده حمورابي.

خامسا – الحكم البابلي الوسيط

لقد غزت بلاد الرافدين في أواخر العصر البابلي القديم أقوام جاءت من الشرق من الشمال الشرقي عرفوا بالكشيين. أسّسوا سلالة حاكمة جديدة

دام حكمها زهاء خمسة قرون. وقد عرف هذا العهد بالعصر البابلي الوسيط الذي يعد من العصور المظلمة في بلاد الرافدين. هذا فضلا عن الحثيين الذين ليسوا من الجنس السامي وقد نزحوا من منطقة الأناضول وسلكوا نهر الفرات واستولوا على مدينة بابل ومكثوا فيها أكثر من قرن ثم انسحبوا إلى المكان الذي أتوا منه قبل مجيء الكيشيين الذين لم يخلف هؤلاء وثائق أو سجلات تاريخية بلغتهم الأصلية وغنما استعملوا لغة بلاد بابل وقد تخلّوا عن ديانتهم التي كانوا عليها من قبل ليعتنقوا الديانة البابلية. وقد أسسوا في منتصف عهدهم عاصمة جديدة قرب بغداد في المكان المعروف بعرقوب التي اشتهرت قديما(دور- كوريكالزو) أي مدينة الملك الكيشي كوريكالزو. ومن الملاحظ على أن هؤلاء القوم اندمجوا بأهل بلاد الرافدين القديمة وقبلوا حضارتها وتطبعوا بطابعها. وقام بهذه الدولة نحو 36 ملكا فحكموا مدة 576 عاما. فق كان العلم القديم المتحضر في ذلك الوقت تخت سيطرة مملكتين عظيمتين هما المملكة الحيثية في بلاد الأناضول وشمال سوريا، والمملكة المصرية في وادي النيل وجنوب سوريا.[27]

سادسا – عصر الأشورين

وصادف قيام السلالة الكشية نمو المملكة الآشورية في القسم الشمالي من العراق. فبدؤوا ينازعون الكشيين زعامة البلاد السياسية. والآشوريون فرع من الأقوام الجزرية التي هاجرت في الأصل من شبه جزيرة العرب. وهناك نظرية أخرى مفادها أنهم جاؤا من جنوب العراق من أرض بابل وحلوا في شمال بلاد الرافدين في زمن لعله في العهد الأكدي ومما يدعم ذلك أنهم يتكلمون بلهجة من اللهجات البابلية. ويرى غالبية المختصين أن اسمهم مشتق من اسم معبودهم الإله "آشور"، و يمكن وضع تاريخ الآشوريين في ثلاثة عهود : القديم والوسيط والحديث. والآشوريون هم قوم ساميون نزلوا شمال بلاد بين

النهرين حوالي عام 3000 قبل الميلاد وتزامن ذلك مع نزول الأكديين بأرض سهل شنعار. وتجمع المصادر المتوفرة لدينا أن الأشوريين كانوا على اتصال بالسومريين على أن سيطر ملوك بابل سيطرة تامة على جميع الأراضي الرافدية أمثال سرجون الأكدي وحمورابي البابلي دخلوا تحت حكمهم وقد تدربوا على القتال في صفوفهم.

والعهد الآشوري القديم وتدخل فيه حقب طويلة لا سيما إذ أدمجنا فيه عصور قبل التاريخ، لقد بدأ الآشوريون في هذا العهد ببناء مملكة قوية موحدة مستقلة، ظهر منهم ملوك أقوياء مثل "إيلو لأ شوما" الذي عاصر مؤسس سلالة بابل الأولى وكذلك شمشي أدد الأول (1814 – 1782ق. م) الذي بلغت المملكة في زمنه من القوة ما مكنها من فرض سلطانها على القسم الشمالي من بلاد بابل، ودأب الآشوريون على تنمية كيانهم السياسي. تعرّضوا فيه إلى سلسلة من الامتحانات والمصاعب بسبب ضغط الدول والأقوام التي كانت تجاورهم خرجوا من كل ذلك أشداء أقوياء إذ خلقت منهم قوة عسكرية رهيبة فرضت سلطانها على شعوب العالم القديم لعدة قرون تلت. ويعد شلمنصر الأول (1266–1243 ق. م) من أعظم ملوك هذا العهد سيما في حقل التوسع والفتوح الخارجية بعد أن توطّدت شؤون المملكة الداخلية في عهده ولقد تدهورت الأوضاع الآشورية في أواسط القرن الثامن قبل الميلاد انتهت بثورة قامت بها مدينة "كالخ" الآشورية على الملك "أشوره نراري" الخامس فقتل وتولى زمام الأمور تيجلاتبليزر الثالث (745–727 ق. م) الذي بدأ عهدا جديدا في تاريخ الآشوريين تكونت فيه آخر وأعظم إمبراطورية آشورية حيث صارت فيه مجددا سيدة الشرق القديم، وكان من أعظم إنجازاتها توحيد بلاد بابل وآشور في مملكة واحدة الملك سرجون الثاني يعيد الملك سرجون الثاني (727–705 ق. م) واحدا من أعظم ملوك هذه الحقبة ليس فقط بسبب انجازاته الفنية والمعمارية العظيمة والتي كان منها تشييد عاصمة جديدة قرب نينوى

أطلق عليها اسم "دور شروكين" أي مدينة سرجون والتي تعرف خرائبها بـ "خرسا باد" في الوقت الحاضر، كما عرف بفتوحاته الخارجية العظيمة منها القضاء على المملكة اليهودية الشمالية "السامرة" بسنة 721 قبل الميلاد وترحيل الكثير من سكانها إلى أماكن أخرى داخل حدود الإمبراطورية الآشورية وكذلك قضاؤه على التحالف بين الفرعنة والدويلات الصغيرة في فلسطين وسوريا، وكان المصريون قد أرسلوا جيشا قويا لمساعدة قوات التحالف، فتصادم الجيشان قرب مدينة رفح تمخضت عن انحدار قوات التحالف وفرار القائد الفرعوني[28].

أما آشوربانيبال (668– 626 ق. م) فيعد من أكثر ملوك هذا العهد ثقافة فقد أغرم بالأدب والمعرفة فجمع الكتب من أنحاء البلاد وخزنها في دار كتب وطنية خاصة شيدها في عاصمته نينوى جمع فيها مختلف أصناف العلوم والمعارف التي بلغتها حضارة العراق والتي عرفتنا بنواحي الحضارة العراقية القديمة المختلفة.

سابعا– العصر البابلي الحديث

آخر العهود العراقية الزاهرة في العصور القديمة (626–539 ق. م) ويعد حكم نبوخذ نصر الثاني (604–562 ق. م) بحق من العهود المجيدة في التاريخ البشري عموما و فترة انتعاش قوية عاشتها الحضارة البابلية ، فلم تسجل الكتابات التي خلفها هذا الملك إلاّ أخبار البناء والتعمير في جميع مدن العراق المهمة. من أعماله العمرانية الرئيسية كان بناء الزاقورة وتشييد عدد كبير من المعابد الفخمة في بابل، وكان من جملة إنجازا ته في هذا الميدان أيضا إقامة شارع رائع عرف بشارع الموكب ومدخل مهيب ضخم يدعى بباب عشتار، يقع وراء هذا الباب قصره الفخم بجنائنه المعلقة الذي عرف في المصادر اليونانية بإحدى عجائب الدنيا السبع وفي زمنه أعلنت دولة يهودا الصغيرة العصيان مع

عدد من الدّويلات الشامية الصغيرة الأخرى بتحريض من الفراعنة التي لم تكترث لنصائح النبي "أرميا" وتحذير ملكها "يوهوياقين" من وخامة العاقبة. فجرد نبوخذ نصر حملة تأديبية لم تقو "يهودا" على مقاومتها فسقطت العاصمة أورشليم في عام 596 ق.م فرحل قسم من سكانها ومعهم ملكهم عن فلسطين، ونّصب نبوخذ نصر بدلا عنه عمه "صدقيا".[29] وبعد بضع سنوات اشتركت "يهودا" في عصيان جديد و بتحريض من ملوك مصر الفراعنة أيضا الذين حاولا استرجاع مكانتهم في سوريا و فلسطين. لقد كان غضب الملك البابلي في هذه المرة عظيما فدمر المدينة وأحرق الهيكل ورحل من سكانها عددا كبيرا جدا إلى العراق واضعا بذلك حدا لمملكة يهودا. واليهودية Judaism فقد عرفها الباحثون في إشاراتهم التي تجمع على أنها الملة التي يدي بها اليهود وهم أمة موسى عليه السلام كانت في أصلها قبل أن يحرفها اليهود من كتاب التوراة، سميت اليهودية بذلك نسبة إلى اليهود، وهم أتباعها، وسموا يهودا : نسبة إلى "يهوذا" ابن يعقوب الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل الذين بعث فيهم موسى عليه السلام، فقلبت العرب الذّال دالا. وكانت عقيدة اليهود قبل تحريفها، عقيدة التوحيد والإيمان الصحيح المنزلة من اللّه تعالى على موسى– عليه السلام–، لكنهم حرّفوها وابتدعوا فيها مالم ينزله اللّه ثم لمّا مات موسى– عليه السلام– أخذ أحبارهم يحرفون ويبدلون في التوراة [30]وقد أوردت عدة طبقات لرجال الدين عند اليهود في كتب العهد القديم القاباً، تدل على وظائف معيّنة عند اليهود هي :

الأباء : وهم الذين عاشوا في عصور قديمة، ومنهم آدم وشيث وأخنوخ، ممن عرفوا قبل الطوفان. ومنهم نوح وأولاده، ممن عرفوا بعد الطوفان، ومنهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهم الذين ذكرهم العهد القديم على أنهم أصول لشعوب كبيرة. وهؤلاء الآباء هم رؤساء شعبهم الذين كانوا يديرون أموره. وهناك طبقة الأنبياء الكتبة، وطبقة الكهنة، والأويون والنشنيم، والمنذريون..

وأما الفرق اليهودية التي قامت بين اليهود بعد رجوعهم من السبي البابلي ثلاث فرق كبيرة، وفرق أخرى صغيرة. وقد ظهرت هذه الفرق بعد ختام أسفار العهد القديم في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. وقد ظهرت فرق كبيرة، مثل الفريسيون والصدقيون، والاسينيون، والسامريون، والكتبة والهيروديون، والجليليون، والبيرتنيون والغيورون. كما ألّف اليهود، عقب السبي البابلي، هيئات أهما السنهدريم والمجمع[31].

لقد وقع ذلك الحدث بسنة 594 ق. م خلف هذا الملك العظيم عدد من الملوك الضعاف وبخاصةّ آخرهم نبونائيد (555– 539 ق. م) فتدهورت الأوضاع في البلاد خلال عهودهم وانتهت تلك الإمبراطورية العظيمة بسقوط بابل على يد "كورش" ملك الإخمنيين بسنة 539 ق. م وليعفى على حضارة العراق وتطمر علومه وأجاده لقرون طويلة تلت عصر البابليين.

ثامنا– عصر الأخمينييّن الفرس

فقد بات من الثابت تاريخيا أن قمبيز ظل خاضعا للنفوذ الميدي على الرغم من أنه كان يحكم مملكة موحدة فلم يكن مستقلا كل الاستقلال، ولكن في عهد خلفه "كورش الثاني" اصطدمت القوتان الفارسية والميدية واستطاع كورش أن يقضي على هذه المملكة الأخيرة واتخذ عاصمتها "اكباتنا" (همدان) عاصمة إيران الموحدة وبذلك بدأ عهدا جديدا لإيران حيث احتلت بعد ذلك مركز السيادة في الشرق القديم، وقد تمكن كورش من توسيع مملكته فبسط سلطانه حتى حدود البحر المتوسط غربا والهند شرقا بل وتمكن كذلك من احتلال بعض المدن والجزر اليونانية واحتل بابل وبذلك قضى على أكبر منافس في الشرق القديم، ومنذ ذلك الحين انتهت مدينة بلاد النهرين واستمر "كورش" الثاني في عملياته الحربية في الشرق والغرب موطدا أركان إمبراطوريته، وكان سياسيا ماهرا فلم يكن قاسيا في معاملته– الأعداء ولم يدمر بابل بعد اسقاطها– أما

- الأسرى الاسرائيليون الذين كانوا قد جلبوا إلى آشور وميديا فقد أعادهم إلى وطنهم الأول فلسطين.

ولمّا اعتلى "ولد قمبيز الثاني" عرش الإمبراطورية تمكن من غزو مصر فأصبح الفرس يحكمونها من الأسرة السابعة والعشرين إلى الأسرة الحادية والثلاثين باستثناء فترات قصيرة ثار فيها المصريون على الحكم الفارسي، وبعد موت قمبيز انقسمت الإمبراطورية إلى عدد من الولايات التي كانت تحاول الإستقلال ولكن خليفة "دارا الأول" تمكن من انقاذ الإمبراطورية وأعاد الاستقرار إلى أجزائها المختلفة بعد أن خاض نحوا من 19 معركة حربية.

ويعد " دارا الأول" من أهم الملوك الذين حكموا الإمبراطورية الفارسية التي كانت تتكون من عشرين ولاية حيث استطاع هذا الإمبراطور بفضل جهوده أن ينعش الحركة التجارية في أجزائها المختلفة، وتوسع في إنشاء الطرق وأمر بحفر القناة التي تصل بين النيل والبحر الأحمر، ولذلك يرى بعض المؤرخين بأن هذا الإمبراطور يعد كما يقال "يهودي عصره" نظرا لما لقيه في ميدان التجارة كذلك نشط هذا الملك في تشييد المباني وتجميل العاصمة واستخدم في ذلك أرز لبنان والنحاس وخشب الأبنوس الوارد عن طريق مصر واستعان بالعمال الميديين والمصريين والبابليين أيضا كما استخدم نظام نقد ثابت استعملت فيه العملة بدل المقايضة وفي نهاية عهده ساءت العلاقات اليونانية الفارسية مما أدى إلى قيام الحرب بينهما، وقد انهزم الجيش الفارسي في الموقعة المشهورة باسم ماراثون سنة 490 ق. م وبعد ذلك بقليل أي في عهد "اجزر كسيس الأول" الذي تولى بعد "دارا" هزم الأسطول الفارسي في موقعة "سلاميس" سنة 480 ق. م وقد تلا هذا الملك ملوك ضعاف كان عهدهم مليئا بالحروب والثورات إلى أن انتهى الأمر بانتصار الإسكندر الأكبر فأصبحت إيران ضمن أملاك السلوقيين ولم تتمكن من العودة إلى النهوض إلا في عهد الساسانيين الذي استمر إلى أن دخل العرب إيران سنة 651 م.

ولا شك أن الإمبراطورية الإيرانية كان لها أكبر الأثر في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم، فقد استعملت اللّغة الآرامية كلغة رسمية وهذه انتشر استعمالها كلغة دولية في الألف الأول قبل الميلاد، كما أن العقيدة الزرادشتية نمت وترعرعت في ظل الإمبراطورية الأخمينية وكانت معاصرة للديانة البوذية ومازالت هاتان العقيدتين منتشرتين في كل من إيران والهند ولم يحل تمسك الإيرانيين بعقيدتهم دون تسامحهم الديني في غالب الأحيان واتّجهوا في سياستهم وحكمهم للشعوب اتجاها إنسانيا، فلم يدمروا مثلما دمّر الآشوريون ولم يشتتوا سكّان بعض المناطق كما فعل غيرهم بل على العكس من ذلك نجد أنهم في بعض العصور كانوا يميلون إلى اتباع سياسة تهدف إلى إنعاش التجارة و تعميم الرخاء في الولايات المختلفة. واستمر الحكم الفارسي من 539 إلى331 ق. م.[32]

تاسعا– الإنجازات الحضارية في بلاد الرافدين القديمة

إذا انتقلنا إلى نشوء أولى الحضارات في العراق القديم يمكن القول أنها كانت بجهود العراقيين الأوائل في تفاعلهم مع البيئة الطبيعية في وسط وجنوبي العراق، فمن المعروف أن الزراعة تعتمد في هذا الإقليم دوما على الإرواء الصناعي الذي كان لا يتم إلا بالسيطرة على الأنهار وإقامة السدود وتجفيف الأغوار. إن الري– كما هو معروف – كان الدّعامة الأساس في حياة الاقتصادية لهذا الإقليم وعلى ذلك فقد تجلّت عبقرية الإنسان هنا بأجل مظاهرها في الإرواء الصناعي وإن نشوء أول حضارة في بلاد الرافدين قد تحقق بلا أدنى ريب، بعد أن سيطر سكان هذا الاقليم على الأنهار فيها وذلك عن طريق إقامة السدود وحفر الأنهار والجداول وتجفيف الأهوار، فذلّلوا البيئة واستغلوا إمكانتها العظمى، ليس هذا فقط بل استغل العراقيون الأقدمون ارتفاع مناسيب نهر الفرات قياسا إلى دجلة فشقوا أنهارا عظيمة من الفرات إلى دجلة

لتروي أراضي واسعة كانت بأحوج ما تكون إلى الماء. لقد طغت أخبار شق الأنهار والجداول على غيرها من أخبار الملوك وأعمالهم. إن حفر أو شق نهر جديد كان يعدّ بحد ذاته حدثا هاما يؤرخ به الكتبة الرّسميون للدولة الأحداث الجسام.

نتيجة لكل هذا نلاحظ أن أول شئ يلفت النظر في العراق شهرة البلاد الزراعية إلى الأزمان المتأخرة حتى أن الكتاب اليونان – مثل هيرودوتس– قد تحدثوا عن وفرة المحاصيل الزراعية في هذا الإقليم، وهو ما يذكّرنا بتسمية المؤرّخين والبلدانيين العرب لأرض العراق بـ "السواد" لكثرة زرعها وخضرتها ومن الأمور المتفق عليها إن فن زراعة البساتين نشأ في العراق مما ساعد الإنسان كثيرا على الاستقرار ومن ثم نشوء الحضارات المتقدمة المتطورة، والنّخلة – على ما يرّجح– كانت أقدم وأهم شجرة في تاريخ العراق الزراعي القديم حيث اختص العراق بزراعة النخيل منذ فجر التاريخ. وكانت العادة أن تزرع الفراغات بين النخيل بالأشجار المثمرة الأخرى مثل التين والرمان والتفاح والكروم وغير ذلك. وما يزال أعظم وأوسع مركز لزارعة النخيل في العالم لا سيما المنطقتين الوسطى والجنوبية منه وفي سبيل تحقيق الاستقرار والأمن في البلاد وللحفاظ على هذه المنجزات والمكاسب العظيمة كان من الضروري وجود حكومات قوية مستقرة. وكان الملك في العراق القديم على رأس السلطة حيث عدت سلطته التنفيذية والتشريعية مستمدة بشكل مباشر من الآلهة لحكم البلاد، فهو الذي كان يتولى قيادة الجيش وقت الحرب حيث أن من أولى واجباته المحافظة على حدود الوطن و كذلك توفير الوسائل الكفيلة التي تساعد البلاد على الرّخاء الاقتصادي عن طريق تنفيذ المشاريع الحيوية العامة مثل حفر القنوات والأنهار و بناء المعابد تقربا من الآلهة، لقد خلّف الكثير من الملوك العراقيين القدماء مآثر كتابية أكدوا فيها ما ذكرناه حتى أن بعضهم قد صوّر نفسه وهو يحمل سلال التراب والآجر رمز قيامه بتنفيذ المشاريع العمرانية

الكبرى وبخاصة بناء المعابد تقربا للآلهة و الكثير منهم قنن الشرائع والقوانين في سبيل تنظيم الحياة العامة ونشر العدل بين الرّعيّة ومن الأمور المعروفة للجميع أن أولى الشرائع المدونة في العالم قد ظهرت في العراق القديم وهناك من الإشارات ما يدل بشكل قاطع على ظهور القوانين المدونة في عصور فجر السلالات. إن الشرائع في العراق القديم لم تكن أولى الجهود البشرية في تنظيم الحياة الاجتماعية فحسب بل إنها دونت بأسلوب علمي وبلغة قانونية دقيقة. وإنها قوانين بهيئة مواد متسلسلة مقتصرة على الشؤون المدنية لا تتعرض للعبادات في شئ و كان من تمسك سكان العراق الأقدمين باحترام القانون والنظام أن تصوروا الكون كلّه على هيئة مملكة تحكمها الآلهة يتجلى فيها مبدأ الطاعة وبخاصنة طاعة القوانين والسّير بموجب أنظمة المجتمع وأعرافه الشفهية والمدونة وبلغ من تقديرهم لفضيلة الطّاعة أنهم تخيّلوا ظهور عهد ذهبي في يوم ما تسود فيه الطاعة والنظام وسيادة القانون بين البشر كما كان لهم إنجازات كبيرة في إقامة المدن التي كان لها دور حضاريّ.

ومن ثمرات الحضارة الناضجة نشوء الصناعات الأولى وكذلك التجارة وبخاصة التجارة الخارجية لجلب المواد الخام التي اعتمدت عليها تلك الصناعات.[33] ومن البديهي أن يصاحب كل ذلك تقدم العلوم والآداب والفلسفة وفي العراق القديم بدأت أولى المحاولات الفلسفية الجريئة الخاصة بأصل الكون والوجود والأساس في مكونات المادة. ومن المؤكد أن السومريين قد سبقوا الفلاسفة الإغريق بقولهم بمبدإ العناصر الأربعة الأوّليّة التي عدّت أصل جميع الأشياء.

ومن البديهي أن يولي العراقيون القدماء أيضا الأدب الكثير من اهتمامهم. لقد كان شأنه شأن الآداب العالمية القديمة الأخرى يشرك الآلهة في الملاحم والقصص والأساطير. أما الشعر السومري والبابلي فقد كان يخضع لفن خاص

من النظم والتأليف فهو موزون ولكنه غير مقفى. إنه من النوع المعروف في الوقت الحاضر بالشعر المرسل. وما خلّفه لنا العراقيون القدماء من الروائع الأدبية أكثر من أن يُحصى. ربما أهمها "ملحمة جلجامش" و"قصة الخليقة" "وقصة الطوفان" وعددا كبيرا جدا من الأساطير.

وفي باب العلوم الصّرفة كالرياضيات مثلا عرف البابليون أسسا مهمة في خواص الأعداد وكذلك في العمليات والطّرق والمعادلات الجبرية الأساسية. ومن ذلك معادلات الدرجة الأولى بأنواعها المختلفة فضلا عن معادلات الدرجة الثانية والثالثة. لقد اتبعوا في طرق حلّها عمليات مدهشة لا تكاد تصدّق لتطابقها مع الطرق العلمية الحديثة ومما يقال اليوم بوجه عام إن الفضل في تقدم الجبر الحديث يعود إلى البابليين والعرب أكثر مما يعود إلى اليونان. ومن الأمور المتفق عليها أيضا في تاريخ المعارف البشرية أن البابليين هم الذين أسسوا علم الفلك الرياضي وبدؤوا يدونون ملاحظاتهم وإرصاداتهم أو حساباتهم الفلكية منذ العهد الأكدي، وتقدم هذا العلم إلى درجة كبيرة مذهلة في العهد البابلي القديم. أما معرفتهم بالعلوم الطبيعية مثل علم الكيمياء، على سبيل المثال وبخاصة ما يتعلق منها بخواص المواد وتأثير الحرارة فيها أو العوامل الطبيعية الأخرى فقد بدأت عندهم في وقت مبكر جدا والتي لا سبيل في هذا الملخص من الدخول في تفاصيلها الدقيقة المدينة أور تقع إلى غرب نهر الفرات بنحو 10 أميال وأرك، وار يدو، ولا جش وغيرها وكان السومريون يتمتعون باستقلالهم وهم أول المجتمعات التي سعت إلى الاستقرار والعيش في حياة مستقرة في قرى صغيرة ثم نمت وازدهرت تلك القرى وأخذت تقترب نحو اتخاذ شكل المدينة مع تحقيق نمط معيّن من الكيان الاجتماعي السياسي وصاحب ذلك ظهور التخصص الحرفي وتقسيم العمل واتساع نطاق التجارة الخارجية وقد نجم عن ذلك عند السومريين نضوج فكري تكلل بظهور البدايات الأولى للكتابة في سنة 3200 ق. م والتي كانت بحق محصلة حضارية كبرى في



تاريخ البشرية أجادت بها الحضارة السومرية. إذا عدنا إلى خريطة الشرق الأدنى وتتبعنا المجرى المشترك المكون من نهري دجلة والفرات من مصبّه في الخليج الفارسي إلى أن ينفصل المجريان (عند بلدة القرنة الحديثة) ثم إذا تتبعنا نهر الفرات متّجهين إلى الغرب وجدنا في شماله وجنوبه المدن السومرية القديمة المطمورة هي : إريدو (أبوشهرين الحديثة) واور (المقير الحديثة) وأورك (وهي المسماة إرك في التوراة والمعروفة الآن باسم الوركاء) ولارسا (المسماة في التوراة باسم إلا سار والمعروفة الآن باسم سنكرة) ولكش (سبرلا الحديثة) ونبور (نفر) تتبع بعد ئذ نهر الفرات في سيره نحو الشمال الغربي إلى بابل التي كانت في يوم من الأيام أشهر بلاد الجزيرة (أرض مابين النهرين) تجد إلى شرقها مباشرة بلدة لكش مقر أقدم ثقافة عرفت في هذا الإقليم ثم سر بعدئذ مع النهر صعوداً قرابة ستين ميلا حتى مقر اجاد قصبة مملكة أكد في الأيام الخالية.

الفصل السادس

حضارة الإغريق والرومان

- حضارة الإغريق في العهد المقدوني
- الحضارة الرّومانية القديمة واحتلال بلاد المغرب القديم
- الحضارة الرّومانية القديمة
- علاقة قرطاج بسكان بلاد المغرب قبل الرّومان
- الحروب البونّية الأولى والثانية والثالثة وسقوط قرطاج
- الحضارة الأمازيغية
- الاحتلال الرّوماني لبلاد المغرب القديم
- الاحتلال الوندالي لبلاد المغرب
- الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب

حضارة الإغريق في العهد المقدوني

الأوضاع العامة للبلاد الإغريقية تحت رعاية مقدونيا قبل بداية التوسع.

أ- الوضع السياسي

إن المعلومات المتوفرة لدينا عن الأوضاع العامة في بلاد الإغريق تشير إلى ظهور مقدونيا كقوة جديدة في ذلك الوقت وتزعمت بلاد الإغريق[34] عن طريق القوة العسكرية ويتضح ذلك جليا من خلال شخصية "فيليب الثاني" [35] الذي استطاع أن يوحّد بلاد الإغريق التي كانت تعيش تخت نظام سياسي مقسم إلى دوليات متعددة يغلب عليها نظام المدينة، وكانت تلك الدوليات مستقلة عن بعضها البعض استقلالا أدى إلى المخاصمات والمنافسات والحروب الداخلية التي أضعفت من قوتها السياسية والاقتصادية. وتجمع المصادر التاريخية في إشاراتها على أن مقدونيا بلد يقع إلى الشّمال الشرقي من بلاد الإغريق، ويحدّها البحر الأسود من الشرق كما تحدّها آسيا الصغرى من الجنوب، ومن الشّمال تحدّها بلاد الأليويين "ألبانية الحالية" ومقدونيا بلد قائم حتى اليوم وإن كان منقسما جغرافيا بين ثلاث دول هي : بلغاريا ويوغوسلافيا، والإغريق (اليونان) وكانت مقدونيا ولا تزال بلدا تعيش فيه مزيج من الشعوب والقوميات وكلمة مقدونيا كما أوضحها "جون جنتير" [36] تعني في اللغة الإنجليزية مجموعة من العناصر المتنافرة مقدونيا أو مسدو نيا Macedonia.

فيبدو من الإشارات التاريخية الواردة في المصادر أن المقدونيين كالإغريق كانوا من سلالة أولئك البرابرة القساة الخارجين عن نطاق الحضارة المدنية الإغريقية الأيّونية. وكانوا منتشرين في شمال بلاد الإغريق التي كانت ذات طبيعة قاسية، أثّرت على سلوك وطبائع سكانها، مما أدى إلى وجود شعب

قاسي شجاع مقدام. ولهذا اختلف سكان مقدونيا عن الإغريق من حيث أنهم لم ينجبوا فنانين وأدباء. وعلماء، أو فلاسفة، ولم ينالوا قسطا من الحضارة[37] رغم أن المؤرخ "بلوتارخ" يرجع في إشارته إلى أن أصل الإغريق والمقدونيين واحد. وإنما عامل وجود الأرض الصعبة هو سبب الاختلاف الذي أدى إلى التميز بينهما في بعض الخصوصيات المكتبية. هذا ربما مما جعل المقدونيين يختلفون عن أبناء عمومتهم الإغريق. لكن ظهر من بينهم رجلان عظيمان كان لهما شأن في تاريخ مقدونيا خاصة، وتاريخ الإغريق عادة في القرن الرابع ب. م. [38] هما فيليب الثاني وابنه الإسكندر الثالث.

فيليب المؤسس المقدوني لدولة مقدونيا إذ عرف عنه أنه من بين الملوك القلائل في الالتزام والصرامة ولهذا أظهر بقيادته الحكيمة الحاذقة تنظيما لم يعهد من قبل في بلاد الإغريق منذ وفاة "بريكليس Pericles".[39]

ولكن كانت هناك عدة عوامل ساعدت على بروزه في صورة القائد الحكيم الناجح، أهمها لأن عهده تزامن مع تفكك دولة المدينة، وتصاعد حركة التحدي المقدوني، أمام حكم الأقلّية الفارسي في الخارج مما أدى بالمعارضة في الداخل إلى التضامن والتحالف معه من أجل الدفاع عن بلاد الإغريق من الأخطار المحدقة بها، وهذا التضامن الوطني سمح لفيليب أن يجعل من نفسه حاميا للمجلس الديني وأمينا وراعيا لأكبر خزينة حامية آنذاك تمثلت في خزينة "الأكانثيين" Acanthiane التي كانت محفوظة في معهد "أبلون" Appolon المقدس في مدينة "دلفي" Delphes [40]. هذا كما قال بلوتارخ حسب ما أخبرتنا به سجلات "برز داس" Prasida. وهذه السجلات أكد بها المؤرخ بلوتارخ معلوماته حول أهمية بيت المال وحراسها، بينما غيره لم يذكرها، ولكن معظم المراجع تؤكد أن الأكانثيين أجلد وأجلف من الاثنين[41]وهؤلاء أجدّ من غيرهم في الحفاظ على ممتلكات هذا المعبد المقدس. وكأن "برجا رد رمون" ربط بين

الجلد والخشونة ووازع الإخلاص والإيمان والوفاء لقداسة المعبد دون أن يبين النمط الفكري القديم في مدينة دلفي، واكتفاء بذكر الفكر الرافض للملكية المقدونية في مدينة أثينا. لكن فيليب بعد أن أصبح ملكا على مقدونيا سنة 369 ق.م. لم يتخلص من أحكامه المسبقة، ولهذا كان يميل أكثر للأكانثيين والتقرب منهم دون سواهم وكأنه حصل له شرف عظيم عندما نصب نفسه راعيا ومشرفا على شؤون هذا المعبد، واعتبر ذلك أكبر عقبة أزيلت من طريقه ومن ذلك الحين أخذ الإجراءات اللازمة لتكوين جهاز إداري قوي يمكنه من التحكم والإشراف على سائر المدن الإغريقية[42] إذ قسم البلاد إلى دوائر إداريةحتى سهل له السيطرة عليها، كما ألزم كل المقدونيين بأداء واجب الخدمة العسكرية، وعلى كل دائرة تقديم معونة مالية ومن هذا الإجراء يتضح التباين الواضح بين المواطن المقدوني وغير المقدوني في بعض إجراءات في القضايا الحساسة التي تهم أم المملكة لأن الثقة مقتصرة وموقعة على المقدونيين دون سواهم، أما المساهمة المالية في إعداد الجيش تخص الجميع، وهذا الإجراء الهدف منه الاستعداد لمواجهة فارس التي كان يعمل فيها الكثير من المرتزقة الإغريق منذ خمسين سنة خلت [43] وربّما يرجع تاريخ بداية الارتزاق إلى نهاية حكم بريكليس (460– 430 ق. م)[44] لأن مع نهاية هذا العصر بدأت الديمقراطية في الانهيار كما بدأت المصاعب المالية وقلّت موارد بلاد الإغريق الاقتصادية، وأدى ذلك إلى ظهور ظاهرة الارتزاق في بلاد الفرس إلى جانب الصراع القائم بين المدن اليونانية الذي أدى إلى قيام حروب طاحنة تسببت بدون شك في اشتداد الأزمة أكثر التي أثّرت على الطبقات الأكثر حرمانا.[45] كما قام الملك فيليب الثاني بتجهيز حملة كبرى وعلى فارس في ربيع 337 ق. م تخت قيادة أكبر قائد محنك من قادة مقدونيا بارمنيون – Parmenion.[46]

ولكن وقعت حوادث داخلية في تلك الفترة منعت فيليب من الاستمرار في الصراع مع فارس[47] ويبدو لي أن الدافع من وراء السياسة بصفة عامة أنه كان

يطمح إلى تحقيق هدفين : الأوّل توحيد بلاد الإغريق تحت زعامته، وقد تبلور تنفيذ هذا الهدف أكثر بعد أن حقّق "فيليب" النصر.[48] على مدينة شيرونة Chéronne وخرب ودمرّ معظم المدن الشهيرة على إثر ذلك الانتصار وأصبح قائداً على بلاد الإغريق كلها[49] وإذا كنّا في القرن العشرين للميلاد نميل إلى الاعتزاز ببعض المظاهر التي تحيزّ إليها أشد التحيز بعض المؤرخين القدماء كل الاعتزاز بالشخصيات القوية المؤثرة مثل شخصية فيليب، إلاّ أن إحساسنا بالخطيئة لم يكن مع ذلك معدوما تماما بأية حال من الأحوال عندما اختلف مع ديودور الصقلي وأقول : أن فيليب المقدوني أقام إمبراطورية عسكرية استبدادية على أنقاض تلك المدن، التي بنيت بمجهود عدة أجيال متعاقبة على بلاد الإغريق لتحقيق الوحدة الوطنية وبسط سيادته على أغلب المدن والمناطق لإخضاعها، بينما تمثّل الهدف الثاني في غزو العالم القديم وخاصة الإمبراطورية الفارسية، العدو التقليدي لبلاد الإغريق[50]

وجدير بالملاحظة أن غزو العالم القديم في تصور "أريان" ليس هو العالم القديم بالمفهوم الحديث، وإنما العالم المحيط ببلاد الإغريق المتمثل في المستعمرات التي كانت تحت نفوذ الإمبراطورية الفارسية والمناطق الأخرى المتحالفة معها، لكن من المؤكد تاريخيا أن فيليب قد حقق الهدف الأول في حياته. بينما حقق الهدف الثاني ابنه الاسكندر بعد وفاته·

وهذا ما سيبينه مضمون فصول البحث فيما بعد وفي خريف 396ق. م اغتيل الملك فيلب على يد شاب من الأشراف يدعى "بوزنياس" Pausnies [51] حسب ما ورد ذكره في المصادر، أن هذه العملية قد أثارت جدلا حاد واحتمالات عديدة أدت إلى خلق نوع من الشكوك في البيت الملكي الحاكم [52].

وبتعبير أوضح إن فيليب تزوج بامرأة أخرى على زوجته الأولى "أولمبياس" Olympise [53]ما سبب هذا الزواج لأولمبياس بطبيعة الحال إثارة

غضبها الشديد على "فيليب" تحت دافع الغيرة والحقد مما أدى بها إلى تأجير الشاب "بوزنياس" وإغرائه بالمال لتنفيذ عملية اغتياله لفيليب[54] وهناك احتمال آخر أن أولمبياس حذرت الإسكندر من مغبّة زواج أبيه من تلك المرأة التي سوف تنجب لفيليب ولدا يكون منافسا للاسكندر في وراثة العرش وربما أولى منه لأن أم المحتمل إنجابه مقدونية الأصل[55] ونتيجة لهذين الاحتمالين، تم اغتيال "فيليب". ولكن يبدو لي منطقيا أن حادثة اغتيال فيليب قد جاءت نتيجة لتزايد ظاهرة نشاط المعارضة التي كانت تدعو إلى تحرّر الإغريق من نفوذ الحكام الذين انفرد بالسلطة والسيطرة أمثال "فيليب" الذي عمل على إغراق المواطنين بالواجبات دون إعطاءهم متسعا من الحقوق بغضّ النظر عن التهمة الموجهة إلى أولمبياس أو حتى الإسكندر نفسه الذي استفاد من الظروف الملائمة أكثر من عملية الاغتيال بالذات ولكن كل هذه العوامل مترابطة سمحت للإسكندر وأن يتولى عرش مقدونيا كوريث شرعي دون أي منافس له. وعمره لا يتجاوز العشرين سنة.

وفي الوقت نفسه تولى داريوس أو دارا [56] الملك الفارسيّ العرش الذي استغل هذا الأخير الأوضاع الناتجة عن الأحداث التي دارت في القصر المقدوني فعمل على توسيع دائرة الحروب ونقل وقائعها إلى أراضي مقدونيا [57]. ولكن حداثة عهده وصغر سنّه اتّجه بسرعة إلى تأمين الوضع الداخلي في بلاد الإغريق قبل أن يواجه أعداه الفرس.

ويضيف أريان قائلا : "لقد قضى الإسكندر على بعض الثّورات الداخلية في كل من تراقيا [58] والمناطق المجاورة لها التي كان يقطنها عدد كبير من البرابرة"[59].

وليس معنى ذلك لأن الإغريق قد ظهروا في معظم المدن الإغريقية وهم يحملون طابعهم الحضاري المتميز وهم كأي شعب آخر لم يخلقوا – آنذاك منذ

النشأة الأولى – وإنما يقول في هذا الصدد أجد تحيز "أريان" يظهر جليا إذ وقع في غمرت الأوهام والأحلام من تفضيل الجنس الإغريقي عن سواهم إذ وصف غيرهم بالبرابرة وهذا وليد التعصب والهوى وللجنس الإغريقي.

لكن مقالة "أريان" قد مضى عهدها، فإذا كان لهذه المقالة بعض العذر وعن المؤرخين الغربيين أو حتى العرب الإخباريين. فما عذر من يأخذ بها اليوم بعد أن تقدمت الدراسات التاريخية والنقدية ؟

في حين أن "ديودور الصقّلي" يؤكد على وصول أخبار إلى الإسكندر مفادها يقول : (أن أهل مدينة "طيبة "Thebes" [60] ثاروا ضده موقف عن زحفه نحوهم وذلك في عام 335 ق. م [61] دون أن يشير إلى نتيجة ذلك التوقف والتوجه إلى تلك المدينة حتى يعرف الباحث مصيرها؛ فليس بين المؤرخين من لا يخطئ "فديودور الصقلي" اشترك مع معاصريه في معظم مايقولون ويفعلون فعندما أخذ يشيد ويمجد بأعمال الإسكندر في تخريب مدينة طيبة[62] بين لنا بطريقة غير مباشرة، مصير هذه المدينة وما تعرضت له من تعسف عنيف ودمار على يد أول قائد على رأس أعلى سلطة في بلاد الإغريق.

ثم وجد الإسكندر نفسه مهددا من الخارج فانصرف على الفور إلى متابعة تنفيذ مشروع والده في الشرق والقضاء على التهديد الفارسي وهذا التحرك يتطلب عدة إجراءات عملية لتهيئة الظروف الملائمة قبل قيامه بالحملة على فارس كان أهمها.

أولا : شرع في توحيد بلاد الإغريق حتى يجعل كل الإغريق أمة واحدة تنسى الخلافات المحلية وتقف أمام أعدائها بعد أن حاول الفرس تشتيتها عن طريق إثارة الشغب ورشوة كبار وقادة الإغريق من ذوي الضمائر الميتة والنفوس الضعيفة بالذهب والهدايا الثمينة، وهذا ما أضعف سلطة الدولة في بلاد الإغريق في العصر الذي نتكلم عليه.

وقبل أن يشرع الإسكندر في غزو آسيا بخمس سنوات أرسلت مدينة أثينا [63] Athenes سفراء إلى مدينة سوسة Suss[64] لتطلب من الملك الفارسي أرتخششتا الثالث Artararxes[65] إعانات مالية. لكن يتّضح أنّ هذا الملك رفض طلب مدينة أثينا لأنه كان في موقع قوة معتمدا على إمكانياته الحربية وقدرته السياسية في مقاومة الاضطرابات التي حدثت في معظم أجزاء الدولة الفارسية[66] كما تميّز عهده باستعادة السيطرة التي أعادت للإمبراطورية هيبتها ومكانتها بين دول تلك المنطق.

ثانيا : انتخاب الإسكندر قائدا أعلى للقوات المسلحة المقدونية في مدينة "كورنثة Corinthe" [67]، خلفا لوالده فيليب، كما اختير الإسكندر قائدا عاما للحملة على آسيا.

ويتّضح من هذه الأوضاع الصعبة ظهر الإسكندر وكان ظهوره في فترة زمنية متميزة من تاريخ العالم القديم إذ وجد الدولة الفارسية تمر بمرحلة صعبة في أوضاعها الداخلية وخاصة في عهد أرسيس (336– 338ق. م) الذي عهدت فيه الفوضى أدت إلى عدم استقرار الحكم كما كثرت فيه الاغتيالات [68]ولكن لما تولى "داريوس" أو دارا الثالث عرش الإمبراطورية تنبه إلى القوة المقدونية الناشئة الجديدة. فبدأ يعمل على استتاب الأوضاع الداخلية والتخلص من "باكوس"[69]. ومؤامراته على البيت الحاكم وقام بإثارة الفتن في بلاد الإغريق لعرقلة أحلام الإسكندر في غزو الشرق فمنح المنح لمدينة أثينا ورفعتها علنا. ولكن وافق عليها شخصيا ديموستينس Damosthénes [70] المعارض منذ عهد فيليب والد الإسكندر الذي كان يهاجم فيليب في إحدى خطبه مهاجمة لاذعة.

كما أشيع خبر أن الإسكندر توفي في تراقيا[71] ولكن كل هذه الفتن والإشاعات يبدو لي أنّها باءت بالفشل لأن الإسكندر هاجم مدينة طيبة واحتلّها سنة 338 ق. م.[72] ولقد توالت انتصاراته في بلاد الإغريق ومقدونيا قبل

التحرك نحو آسيا الصغرى إذ ترك حوالي 12000رجلا و1500 فارسا في إدارة مقدونيا وتراقيا لمراقبة بلاد الإغريق وتحت قيادة "أنتبارتر" Antiparteur[73]

كما ترك الإسكندر أمه أولمبياس محمية وخرج من عاصمته ومسقط رأسه بيلا Pella[74]، بعد سلسلة من الاحتفالات ذبحت فيها الذبائح كما هو مألوفا للآلهة في جبال أولمب وخاصة الإله "زيوس" Zeus كما أمر بإقامة المباريات الرياضية[75]

ويتضّح من هذا أن الإسكندر ولم يحتفل للعقيدة والإيمان بالآلهة بينما احتفل ليظهر أمام الإغريق بأنه ورع وتقي قريب من الآلهة، حتى يضمن لنفسه مكانة لكسب مودة أعداءه ويزداد تعلق أصدقاءه به أكثر.

ب- الوضع الاقتصادي

يرجع ضعف وانهيار اقتصاد بلاد الإغريق إلى عاملين : عامل داخلي وعامل خارجي.

العامل الدّاخلي : ولننقل الآن إلى الحديث عن معظم الاقتصاد في بلاد الإغريق، وذلك بطبيعة الحال في إيجاز شديد. تكاد معلوماتنا عن هذه النظم تنحصر فيما تمدنا به المراجع الأجنبية وإذا كانت المراجع التي ترجع إلى عهد "فيليب" و"الإسكندر المقدوني" قليلة جدا، تكاد لا تمدّنا بشيء يذكر عن موضوع الاقتصاد، فإنّنا نجدها تبيّن سيطرة الطبقة الأرستقراطية التي تتألف من النبلاء والفرسان وعلى أهم الموارد الاقتصادية، قد أدت إلى تبديد معظم الثورات الهامة في ازدهار البلاد نتيجة لاشتراك تلك الطبقة في الخصومات والحروب التي قامت بين المدن الإغريق [76] كحربي (مسينا) الطويلتين736-720 ق. م (650- 620 ق. م) الحروب البيلوبونزية التي دارت بين إسبرطة وأثينا 404- 431(ق. م) التي انتهت بانتصار "إسبرطة" على أثينا. والتي اشترك

المؤرخ توكيد يدس[77]ويعتبر أعظم المؤرخين القدماء من وصف هذه الحروب مستسقياً معلوماته من مشاهدته الشخصية والشهود العيان والوثائق الرسمية وخطب القادة والساسة[78] ونتج عن هذه الحروب ركود تجاري هام شمل معظم بلاد الإغريق وما جاورها واستمر الضعف في التبادل التجاري بين مدنها لانعدام الأمن والاستقرار فيها إلى أن وصل فيليب الثاني إلى العرش المقدوني وفي سنة 360 ق. م.

– **العامل الخارجي** : لقد نشبت عدة حروب بين الإغريق والفرس (490–478 ق. م)[79] كانت نتائجها احتلال الفرس لبلدان آسيا الصغرى والشاطئ الإفريقي الغربي، مما انعكس على الميدان التجاري الذي سجل ضعفا ملحوظا لفقدان المراكز التجارية في البلدان المحتلة من قبل الفرس[80].

هذا فضلا على افتقادها لبعض الأسواق التجارية الهامة في الجزء الغربي للبحر الأبيض المتوسط في كل من جزيرتي (صقلية) و(سرا قوسه) نتيجة للتوسع القرطاجي الذي كان أكبر منافس تجاري وهناك إذ اغتنم القرطاجيون فرصة الحروب الداخلية بين المدن الإغريقية للتدخل في شؤون المستعمرات الإغريقية التي احتلّت في القرن السادس قبل الميلاد من قبل "الماغونيين" الذين توسعوا في صقلية على حساب المستعمرات الإغريقية [81].

ورغم ذلك لما تولى الإسكندر المقدوني عرش مقدونيا سنة 336 ق. م سارع إلى وضع الحلول المناسبة للتغلب على مشكلة الضعف المالي في بلاد الإغريق، فقد أولى اهتمامه بإعلان الوحدة الحلف المدن الإغريقية في مدينة "كورنثة سنة 336 ق. م"[82]حتى يجعل التكامل الاقتصادي بين المدن ممكنا.

وطلب من كلّ مدينة، من مدن الحلف إرسال المقاتلين من أجل تدعيم حملته على آسيا لتوجيه الأزمة الاقتصادية خارج البلاد[83] وهنا من غير المستبعد أنه استعمل وسائل لا تخلو من أساليب العنف، والاقتصاد لنهب

وسلب الأموال من أصحابها بالقوة. وجعل موارد حملته من ثروات الأقاليم التي سيغزوها في المراحل التالية من زحفه كما كان يفرض على كل إقليم يغزوه دفع ما يحتاجه جيشه من معدات "حربية" ومواد غذائية [84] وهنا يتضح لنا أن الاسكندر المقدوني كان هدفه الأول من الغزو هو نهب كل ما يقع في يده من أموال وفي سبيل تحقيق هذا الهدف استخدم جميع الطرق الإنسانية للحفاظ على مبدإ قوة الاقتصاد الإغريقي ولعل إحراز النصر فيما بعد من قبل الإسكندر كان من أهم دوافعه لجمع الثروات لتخليص بلاد الإغريق من الأزمة الاقتصادية التي كانت تعاني منها يوم ذاك.

كما كانت أكبر مشكلة واجهة الإسكندر وهي مشكلة تكوين الأسطول المقدوني في هذا الصدد يرجع "روبرت كوهن" أن الضعف الناجم عن عدم كفاءة القوات البحرية المقدونية يرجع إلى قلة الموارد المالية[85]ولكن المعضلة الكبرى التي واجهت الاسكندر لا تتوقف عند حد قلة الموارد المالية فقط. وإنما تجاوزت حتى إطار الهيكلة العامة لجهاز البحرية من ناحية التكوين البشري، فإن أغلب العناصر التي يتكون منها الإسكندر المقدوني لا تنتمي لأصول مقدونية ولهذا، من المحتمل أن ثقة الإسكندر فيها كانت نسبية إن لم تكن منعدمة، ويتّضح من ذلك أن الإسكندر في بداية انطلاق حملته كان حذرا جدا من تعيين كل مواطن إغريقي إذا لم يكن مقدونيا.

معنى ذلك أنه لا أساس للقول بأممية الإسكندر، فليس في الأمر شك أن التعصب العرقيّ المستتر الذي لم تظهر معالمه في مؤلفات الباحثين الغربيين، كما له عميق الدّلالة في تصرفات الإسكندر اتّجاه توظيف الجنود والتفريق بين انتماءاتهم العرقية. ولكن قد تم تكييف هذه الظاهرة حسب الحاجة لتحقيق نصيبا من أحلامه التوسعية.

ج- الوضع الاجتماعي

لقد ساد بلاد الإغريق نظام اجتماعي بسيط، فقد كانت طبقة الأقلية الحاكمة فيه على رأس الهرم الاجتماعي تمتلك معظم الأراضي الزراعية المنتجة، هذا فضلا على احتلالهم لأهم المراكز الحساسة في الدولة، التي منحتهم امتياز يتناسب مع دورهم العسكري الذي ازدادت أهميته أكثر بين أفراد المجتمع الإغريقي لمعاناته من كثرة الخصومات والفتن التي أدت إلى نشوب الحروب بين المدن الهامة وعليه أصبح عمل الفرد لا يقاس بما يقدمه من إنتاج يفيد به المجتمع عموما، بقدر ما يقدم من تضحيات في سبيل حماية أموال وأملاك الطبقة الحاكمة "الأرستقراطية" صاحبة السيادة والثروة، وبالتالي حتى المواطن العادي قد ساهم في زيادة التباين الاجتماعي الذي تسبّب في ظهور أزمة سياسية حادة مثلت أدوارها عدة أطراف شاركت في تنفيذها كالمعارضة التي زاد نشاطها عن طريق المعارك الكلامية والانتقادات لأصحاب الثروات والحكام وخاصة الملك، وأدى ذلك إلى ظهور عصيان تمرد كل من مدينة "شيرونة" ومدينة "طيبة" اللتين كان مصيرهما سحق الإغريق وإزالة الثانية من الوجود من قبل فيليب الثاني في عام 337 ق.م وقد انعكس ذلك على الطبقة الدنيا من المجتمع التي تضم المزارعين الذين ينحدرون من أهل البلاد الأوائل المدعوين بالهيلوتيين Heletes الذين حرموا من حقوقهم السياسية وانخرطوا في صفوف الجيش المقدوني كخدم للمحاربين النبلاء. وأما الذين رفضوا الانخراط منهم قد توجهوا إلى احتراف مهنة الارتزاق في داخل وخارج بلاد الإغريق للتعبير عن معارضتهم للنظام المقدوني[86].

وعندما وصل الإسكندر إلى الحكم أدرك أن المجتمع الإغريقي في حاجة إلى حياة أكثر توازنا بين طبقاته المختلفة، وأن الخطر الداخلي الذي طوّق هرمه الاجتماعي من كل النواحي. لا يمكن التغلب عليه لأنه يعتبر بمثابة الإرث

التاريخي الثقيل الذي لم ينس الإغريق همومهم الداخلية، التي أفرزتها مراحل تاريخية سابقة ظهرت فيها زعامة المدينتان. "إسبرطة" و"أثينا" لبلاد الإغريق في العهد الكلاسيكي الذي أدت فيه أعباء المواطنين البؤساء الذين فقدوا الأمل في العيش الكريم لذلك أراد الإسكندر وإعادة الأمل الذي فقده الإغريق عن طريق إحداث مشكلة جديدة هزت واستقطبت اهتمام كما الشرائح الاجتماعية الإغريقية وبرزت فوق كل مستوى وعلى كل المشاكل المحلية كما قضت على معظم الصراعات الداخلية، ووجّهت أغلب الأنظار إلى خارج بلاد الإغريق نحو بلاد فارس العدو التقليدي لهم لأنها كانت في حرب شبه دائمة بينهما(87). لذلك نجد تحضير حملة الإسكندر على الصعيد الاجتماعي تدخل فيه عدة عوامل تاريخية سوف يجب عليها هذا البحث من خلال فصوله الآتية، كما أن اعتماد فارس حكم المدن على الحكام الطغاة وحكومات الأقلية الموالية لهم(88) قد تسبب ذلك في ضعف السلطة المركزية الفارسية المتمثلة في شخص الملك "داريوس" الثالث الذي فقد التحكم في إدارة الأقاليم البعيدة التي تضم عدة شعوب وأقلّيات مختلفة دينيا وقوميا عن الفرس، مما أدى إلى عدم الخضوع من قبل تلك الشعوب التي كانت تعبر عن سخطها، تجاه الحكم الفارسي بعدة طرق للمعارضة. نتج عن تفكك اجتماعي أدّى إلى تهيئة الظروف أمام الإسكندر المقدوني للقيام بحملته على فارس، ونظرا لتلك الظروف المساعدة له فقد ظهر الإسكندر بمظهر الشّابّ القائد الذي تلاحمت الأساطير في قصّة حياته لدى المجتمعات التي وصلت إليها أخباره التي لم تلبث أن تحولت بدورها من حقيقتها إلى ما يشبه الأساطير التي زودت بالخيال الشعبي في تمجيد بطولاته من قبل الكتاب والمؤرخين الغربيين الذين ضخموها أكثر في معظم كتاباتهم القديمة والحديثة. كما أن موته المبكر ساعد على إظهار غروره أكثر في كتابات من اهتموا به حتى المؤرخين العرب ورد عندهم ذكر "ذو القرنين" كما ورد في آية من القرآن الكريم وتنازع فيه الناس فمنهم من رأى أنه الإسكندر ولقب بذي

القرنين ومنهم من رأى أنه غيره[89] لكن من المحتمل أن الذي ورد ذكره في القرآن الكريم واشتهر بذي القرنين حسب أخبار المؤرخين العرب هو عربي يعني كثير الذكر في أشعار العرب، اسمه الصعب بن ذي رائد بن الحارث الرائش بن الهمال[90] هذا الأخير الذي ذكر في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا﴾.(الآية 84 من سورة الكهف).

وقوله تعالى : ﴿قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾ ولكن وصف الإسكندر بذي القرنين لأنه قام بتأليهه نفسه حيث أن القرون كانت في العراق القديم ترمز إلى الألوهية وعلى ما يبدو أن قرني الإسكندر المقدوني متأثرة بقرني الملك "نرام سين" رابع ملوك الإمبراطورية الأكدية الذي أله نفسه بحيث كانت القرابين تقدم له حتى زمن الإسكندر المقدوني وقد انتشرت قصة ذي القرنين في معظم كتابات المؤرخين المسلمين، كابن الأثير الذي ذكره تحت عنوان : "ذكر الإسكندر ذي القرنين" قائلا : ".. كان فيلفوس أبو الإسكندر اليوناني من أهل بلده يقال لها مقدونيا كان ملكا عليها وعلى بلاد أخرى، فصالح على خراج يحمله إليه في كل سنة فلما هلك فيلفوس ملك بعده ابنه الإسكندر واستولى على بلاد الروم أجمع فقوى دارا فلم يحمل إليه من الخراج شيئا..." [91] وهذا النص يبين لنا مدى إعجاب ابن الأثير بتضخيم صورة الإسكندر المقدوني، لأن الدراسات الحديثة رجّحت أن الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ليس الإسكندر المقدوني، إنما هو ملك من ملوك حمير كان اسمه الصعب لقب بذي القرنين السيار الذي كثر ذكره في الشعر العربي مثل لبيد الذي قال فيه :

لو كان حيا بالحياة مخلدا　　في الدهر خلده أبو يكسوم

والصعب ذي القرنين أصبح ثاويا　　بالحنو في جدث هناك مقيم [92]

وفي هذا الصدد يضيف "إسماعيل مظهر" قائلا : أنه بحث عن ذي القرنين للتأكّد منه فوجده ملكا من ملوك حمير يسمى الصعب ويلقب بذي القرنين ورد ذكره في كتاب التيجان لابن هشام وبرواية وهب بن منبه. ويقول إسماعيل مظهر لما كنت غير متحقق من ذلك كتبت للأستاذ أ. هـ رجب A.H.R Gibb كتابا استوضحه فيه – أمر ذي القرنين– فأجاب قائلا : أظن أن الكلمة التي تعنيها في شأن ذا القرنين والتتبع الصعب هو ما كتب نكلسون Nicholeson في كتاب تاريخ أدب العرب ص 17. ويقول لا أعرف من ذكر ذلك من مؤلفي المغرب غير اليمنيين مثل نشوان بن سعيد الحميري في كتاب "شمس العلوم"[93].

من هذا القول يتضح لنا أن لقب ذي القرنين فيه غموض، وليس هناك أدلة قاطعة تؤكد صحة أقوال المؤرخين من هو ذي القرنين الحقيقي ؟ الذي ورد ذكره في الآية السابقة بغض النظر عن الذي ورد ذكره في الشعر، فطبيعي بعد كل هذا أن يبقى ذو القرنين محل علامة استفهام سواء كان الإسكندر المقدوني أم غيره – كما أسلفت بذكره – فإن القرون من علامات القيادة والسمو، وليست علامة خصوصية تميّز بها الإسكندر وحده عن غيره.

كما كان الإسكندر معجبا بإلياذة هوميروس وما تضمنته من الآلهة إغريقية :

فقد كان هوميروس (القرن التاسع أو الثامن) وهزيود (حوالي القرن السابع) هما الشاعرين الذين زودا العالم الهيليني بالأساطير إذ تتضمن الإلياذة أخبار كثيرة عن آلهة جبال أوليمبوس وصفاتهم وعلاقات بعضهم ببعضهم الآخر.

الحضارة الرومانية واحتلال بلاد المغرب القديم

الحضارة الرّومانية القديمة

بينما كان الشرق الأدنى من حوض المتوسط الشرقي حتى الهند مغمورا بالعصر الهيلنستي والحضارة الإغريقية كما تعرّضت له في حضارة بلاد الرافدين، كان الحوض الغربي للمتوسط يسقط شيئا فشيئا تحت بلدة صغيرة قوية في وسط شبه جزيرة إيطاليا هي(روما) التي تأسست في 21 أفريل 753 ق. م واستطاعت أن تتوسع بالتدريج وتستولي على سهل (لاتيوم) المحيط بها ثم عاش على شبه الجزيرة كلها، ثم توسعت فيما بعد خارجها نحو صقلية وسواحل فرنسا الجنوبية وإسبانيا وشمال إفريقيا وكانت السيطرة في هذه المناطق لقرطاجة المستعمرة الفنيقية، واستمر معها صراع روما قرنين " الثالث والثاني ق. م" وكما أسلفت جرت خلالها الحروب البونية الثلاث. وانتهت هذه الحروب بتدمير وخراب قرطاجة سنة146 ق. م وحرث موقعها ولعن أرضها، ثم اتجهت روما نحو الشرق فاستولت على البلقان كله وفيه بلاد الإغريق ثم على آسيا الصغرى[94].

ثم استطاعت أن تحطم الدولة السلوقية سنة 64 ق. م وأخيرا ألحقت مملكة البطالمة في مصر نهائيا سنة 31 ق.م بعد موقعة أكتيوم هكذا أصبح البحر المتوسط بحر الرومان وتحولت الجمهورية الرومانية 27– 509ق. م إلى إمبراطورية دام حكمها أربعة قرون حتى انقسمت إلى قسمين شرقي وغربي 395 ق.م ثم انهار القسم الغربي بانهيار روما سنة 476 م على يد البرابرة الوندال الذين غزوها من وسط أوروبا واستمر بقاء القسم الشرقي بزعامة القسطنطينية حتى سنة 1453م حتى فتح سقطت بيد السلطان العثماني محمد الفاتح وتمتاز الحضارة الرومانية بأنها :

1 –حضارة أرستقراطية

فكان المجتمع الروماني يتكون مبدئيا من :

أ– المواطنين الرومان وفيهم تحصر الأهلية الحقوقية في الدول الرومانية أي أن لأحدهم حق التمتع بالحقوق العامة "أن ينتخب وينتخب" وبالحقوق الخاصة أن يمتلك ويتزوج ويقاضي.

ب– من غير الواطنين وهم الغرباء الذين لشعوب خاضعة لسلطة الرومان أو غير خاضعة ولم يكن لهم شئ من تلك الحقوق ولو أنهم نالوها بالتبرع في أواخر عصور الرومان 198– 212 م "كما حدث للشباب البربري في سبتموس سفيروس".

والمواطنون الرومان أنفسهم كانوا على طبقات في رأس القائمة يأتي :

النبلاء في المولد أو الثروة. والوظائف الكبرى وقف عليهم ثم الفرسان : وبيدهم التجارة والصناعة ثم طبقة المساكين وهم الفقراء والأحرار والمعتقون وكانوا إما موال للأغنياء أو عمالا في المدن أو مزارعين وفي أسفل القائمة يأتي

العبيد وقد ازداد عددهم بتراكم الثروة وكثرة الحروب حتى من كان لا يملك ثلاثة منهم يعد من الفقراء هكذا كانت قيادة مجوعة الشعوب الرومانية أرستقراطية محدودة.

2– حضارة ممعنة في التّرف

وأوضح ما ظهرت هذه الصفة في العهد الإمبراطوري حين بلغت حضارة روما مرحلة النضج الأخير وقد دفع الأباطرة ، أنفسهم ، بهذا الترف، إلى نهايته ليشغلوا الشعب عن السياسة وكانت قاعدتهم في الحكم "السلم في الولايات والخبز والألعاب في روما" وتمثل الترف في تلك الكثرة الهائلة من الملاهي العامة التي توفرت في روما

مثل الحمامات التي كان أشهرها حمامات ديوكليسيان ولم تكن للاستحمام فحسب بل الاستحمام والرياضة ومزودة بحدائق للنزهة وشوارع وقاعات للمطالعة والمحاضرات وعمال لتقليم الأظافر والتمشيط وصنع الحلوى وبيع الخمور، وهناك ميادين سباق العجلات والركض وكان منها ميدان مدرج يتسع لـ35 ألف شخص وقد أولع الرومان أي ولع بالسباق وكان حتى الأطفال منهم يتراهنون على المتسابقين ويتحزبون ويتصايحون. وقد تحدث مذابح واضطرابات بسبب السباق وهناك الملاعب منها ملعب (قسبازين) يتسع 87 ألف شخص جالس و30 ألف واقف معهم وقد خصص للألعاب 175يوما من كل سنة تمضي بين تمثيل وصراع بين الأسرى المحكومين بالإعدام والحيوانات الضارية أو عجلات الحرب ويتلذذ الرومان بالدم المراق في الملعب وكثيرا ما يقررون مصير المغلوب أو يلقون بأناس عزل مقيدين للوحوش الجائعة وأحيانا يقيم الإمبراطور حربا حقيقية بين قطع الأسطول الروماني يكون وقودها آلاف الأسرى، فقد أسرفت روما في استعباد الناس من الأسرى والبلاد التي تختلها وغرقت في الترف والفساد. وقد تفنن الرومان بالمآدب والمآكل النادرة . يتناولون الطعام و هم على الأرائك متكئون ولا تمر فترة طويلة ليعودوا للطعام من جديد أما روما فكانت غارقة في اللهو الرخيص وقد قلدت بعض المدن الكبرى في الولايات روما من ترفها ولو أنها لم تبلغها. وكانت الديانة المسيحية التي ينعتونها بالبساطة والزهد ثورة على هذه الحياة المعقدة ورد فعل شعبي ضد البذخ الأرستقراطي ولذلك تعلق بها البؤساء وقاومتها روما بشدة دامية وأهمها ثورة العبيد عام 139 قبل الميلاد. واختفى الزراع والفلاحون الأحرار ليحل محلهم عبيد يكرهون روما. وعليه قامت عدة حروب أهلية. كما تعرضت المسيحية لاضطهاد روماني استمر أكثر من ثلاثمائة عام. لكن المسيحية انتشرت بسرعة، وخاصة بعد تمايزها عن اليهودية وانصرف اتباعها عن السياسة. وفي القرن الرابع الميلادي تنّصر الإمبراطور قسطنطين، وصارت المسيحية هي الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، وانتشرت

الكنائس والكاتدرائيات والفكر المسيحي والشعر والفلسفة المستمدة منها. وتعززت الكنيسة بمرور الزمن، وتضاعفت ثروتها ونفوذها، ولكن في المقابل تم إضعافها بدافقة البحبوحة الدنيوية، وتغذيه النزعة الفردية والتحايل السياسي، وفكر الشك، ونشأ داخل وفي عمق المسيحية تيار كان نائما ثم بدأ في النهوض من جديد يدعو إلى الوثنية الأبيقورية الكلاسيكية متظاهرا بأفكار الإصلاح الديني الذي أدى بالمسيحية إلى الانقسام إلى عدة مذاهب لا تخلو من الصراع والتطاحن.

3 – حضارة روما حضارة عمران

ولعل عمرانها كان من متّممات الترف إذ لم يهتم الرومان بالفنون سوى البناء. واتخذوه واسطة لإظهار عظمتهم لذلك تعلقوا بكل ما هو فخم وضخم من الأبنية وكانت أعظم آثارهم المباني العمة مثل ما هو في جميلة ومقاد وسطيف وشرشال إلخ وقد عنى الرومان بالطرق العامة فأنشئوا منها شبكة بقيت آثارها إلى اليوم ودعموها بالجسور العظيمة لتسهيل إدارة الولايات وحركات الجيوش فاستفادت منها التجارة فائدة كبيرة وكانت تبلط بالحجارة وترصف بالحصى ولا تزال آثار كثيرة من الطرق والجسور باقية لاَ في إيطاليا وإسبانيا فحسب بل حتى في شمال إفريقيا.

4– الحضارة الرومانية حضارة متصلة

وكانت الحضارة الرومانية في الواقع ليست في الآداب والفكر سوى استمرار للحضارة اليونانية، تأثرت واتبعت خطواتها وقلدتها وما الأديب الروماني فرجيل وهوارس الشاعران، "وتيت ليف" المؤرخ "ومارك أوريل" الإمبراطور الفيلسوف سوى ظلال باهتة لهوميروس وهيرودوت وسقراط ذلك لأن الرومان كانوا قليلي الخيال حضيض الشعور البديعي. وإنما تظهر العظمة الحقيقية للحضارة الرومانية في النواحي العملية : في تنظيم الجيش وفي الإدارة والتشريع وهذه الأمور هي في واقع الأمر عماد إمبراطوريتها.

5 – الإدارة الرومانية

تقلب على روما أنظمة سياسية ثلاثة تبعا لتطورها و لاتساع أملاكها وتقدم حضارتها واتصالها بالأمم الأخرى. كانت مدينة روما القديمة ملكية ينتخب الملك فيها انتخابا مدى الحياة من هيئة الشعب ويصادق على ذلك مجلس الشيوخ الذي هو بمثابة مجلس شورى الملك.

وسلطة الملك مطلقة، عسكرية وسياسية ودينية وقضائية ولسنا ندري ما هي الحوادث التي أدت سنة 509 ق. م إلى إسقاط الملكية وإعلان الجمهورية . ولكنها جمهورية أرستقراطية من نوع خاص : حل محل الملك فيها قنصلان ينتخبان ويحكمان معاهدة سنة واحدة فقط لا تجدد. ولكل منها جميع سلطات الملك واشاراته المميزة من ملابس وحراس عدا السلطة الدينية فينتخب لها ملك رمزي وبقي ملك مجلس الشيوخ "السناتو" استشاريا وإن زادت سلطته بتضاؤل سلطة القنصليين عمليا وبحقّه في محاسبتها بعد انقضاء حكمها أما هيئات الشعب " الكوميتا كوريا والكوميتا سانتوريا " فكان لها بجانب انتخاب القنصليين السلطة التشريعية أيضا. وفي خلال تطور النظام السياسي كانت روما تتوسع كان العوام في روما يتكاثرون دون أن يكون لهم حقوق الرومان فاستطاعوا بالنضال والتهديد نوال حق الانتخاب حكام شعبيين لهم اسمهم تريبون ومدة أحدهم سنة واحدة. له نفس حصانه القنصل مع حق حماية أفراد الشعب وكان هذا النظام الجمهوري يتحول أحيانا، حين تحدق الأخطار الخارجية بروما إلى نظام دكتاتوري وذلك بأن يقرر الشعب توحيد القيادة بقنصل واحد مطلق الصلاحيات، وقد بلغ الدستور الجمهوري أوج كماله في القرن الثالث ق. م ثم بدأت العيوب والنواقص تتشابه باتساع الإمبراطورية. واضطر الرومان لمواجهة الأحوال والشعوب الجديدة وحدثت تجاوزات كثيرة سببها من جهة القناصل الذين كانوا يحاولون بانتصاراتهم الحربية، فرض

دكتاتوريتهم بقوة الجيش والشعب على روما، ومن جهة أخرى، انقلاب حكومة روما الجمهورية إلى(أوليغاركية) ضيقة أي حكومة أقلية احتكرها مجلس الشيوخ دون أن يحسب حساب لطبقة الأثرياء الجدد الذين أثروا في التجارة والحروب وفي التزام الجباية والأشغال العامة في الولايات المفتوحة.

- لهذين السببين وأسباب أخرى انهار التوازن الدستوري في روما وما جاء عهد اكتافيوس سنة 27 ق.م حتى انقلبت روما إلى النظام الإمبراطوري بالرغم من أنها حافظت على كل الشكليات الجمهورية.

جمع الإمبراطور أغسطس "أوكتافيوس" بيده كل السلطات وأبقي في نفس الوقت على منصب القنصليين والتريبيون، إلخ.

لكن عدم وضع نظام رسمي للوراثة جعل المنصب الإمبراطوري سببا لكثير من الخلافات في المستقبل.

وبقي مجلس الشيوخ الهيئة المحترمة التي تنتخب صوريا فقط الإمبراطور وتعيين الحكام والقناصل من قائمة يقترحها الإمبراطور أيضا أما أمور الدولة فكانت منوطة بدواوين أشبه بالوزارات وتأسّس في القرن الثاني مجلس شورى من أعضاء مجلس الشيوخ و علماء الحقوق لتهيئة المراسيم وتدقيق مصالح الدولة و كان الإمبراطور يعيّن الموظفين للقيام بالأشغال العامة و المالية والإدارة و أعظم هؤلاء وظيفة، قائد الحرس الخاص الذي أخذ بالتدرج يحل محل الإمبراطور في القضاء، فكان لذلك ينتقي من كبار الحقوقيين وأما الولايات فلم تكن روما في أول عهدها بالفتح تأبه بإدارة أمورها لأن نظامها كان مقصورا عليها فكانت تكتفي بأخذ الجند والجزية وتترك للقوم حكومته وقوانينه، فلما فتحت روما البلاد خارج إيطاليا أخذت تقسمها إلى ولايات ترسل بكل منها حاكما يدير أمورها، ولمّا كثر عدد الولايات أخذت روما ترسل كل قنصل أنهى مدة قنصلته حاكما إليها بلقب برد قنصل وللحاكم كل السلطات

مطلقة في الجيش والقضاء والإدارة والقضاء والمال وغالبا ما كان يسئ استغلالها لأنه كان يعتبر الولاية ملكا له وقد انقسمت الولايات في العهد الإمبراطوري إلى نوعين : ولايات الإمبراطور، ويحكمها وكيل عنه وولايات المشيحة التي كان لمجلس الشيوخ أن يعيّن لها الحكام.

وقد راقب الأباطرة هؤلاء الحكام مراقبة شديدة وجعلوا للولاية حقّ الشكوى، كما تركوا لها إدارة شبه مستقلة هي نموذج مصغر عن الجهاز الإداري في روما نفسها.

6- التّشريع الرّوماني

هو أعظم ما خلّد أثره عن الرومان. بدأ الفقه الروماني في عهد الملكية القديمة غير مدون يعتمد على العرف وحده ويمنحه الكهنة الصفة الدينية على أن مساوئ العرف ظهرت في العهد الجمهوري وتململ الناس والكثير منهم من غموض القانون و بقائه سرّياّ لحد كبير، لا يعرفه غير الكهنة وكافحوا كي يسجل ذلك القانون الذين يحكمون بموجبه ولا يعرفونه.

وهكذا عيّنت هيئة من عشرة حكام لمدة سنة واحدة لوضع مشروع القانون المنشود فاستناروا بآراء ومعارف وفداً أرسلوه خصيّصا إلى بلاد اليونان للاطّلاع على قوانين صولون ووضعوا مجموعة من المواد القانونية دوّنت على عشرة ألواح خشبية ثم أضيف إليها بعد مدة بعض النواقص في لوحين آخرين فتمّت ألواح اثني عشر لوحا نشرت سنة 449 ق. م.

ويظهر من تحقيقات العلماء أن قوانين الإداري ألواح رومانية الأصل بالجملة وما أخذ عن اليونان فيها طفيف وثانوي لكن هذه القوانين التي وصفت مدينة روما ضعفت عن سد حاجة الإمبراطورية الرومانية التي اتسعت أرضها وتعدّدت شعوبها وتغيرت شروطها الاجتماعية والاقتصادية ولذلك عدّلت

بالتدريج بوسائل عديدة من أواسط القرن الثاني ق.م ويسمّى العصر الذي يبدأ سنة 150 ق. م وينتهي سنة 305 م بالعصر المدرس للفقه الروماني لتعدد مصادر التشريع فيه وبلوغه الذروة في الأحكام والاتّساع وظهور أعظم المشرعين الرومان .

7- الدّيانة الرّومانيّة

قد بنى الرومان المعابد والهياكل والتماثيل للآلهة بدلا من الذّبائح. كما أن ديانة الأسرة قد ظهرت في عهد الملكية واستمرت في النصف الأول من عهد الجمهورية، هذا فضلا عن المؤثرات الاتروتسكية والإغريقية التي ظهرت جلّيّة في الديانة الرومانية الرسمية عبر العصور. فدخل عدد آخر من الآلهة الاغريقية مجموعة المعبودات الرومانية. فعبادة التوأمين "كاستور" و"بولوكس" الديوسقوري Dioscuri دخلت روما عام 484 ق. م بحسب قول "ليفيوس" المؤرخ الروماني. ومع أن للرومان آلهة للشفّاء تدعى سالوس Salus فإنه بعد تفشّي الطاعون في روما عام 293 ق. م وستطلاع الكتب السيبولية أدخلت عبادة إله الشفاء الإغريقي اسقلبيوس Ascalepius الذي سماه الرومان إيسقولابيوس Aesculapius وازداد تعلق الرومان بالعرافة الاتروسقية لأمرين :

أولا : بسبب إيفاد ابنائهم إلى أترووريا لدراسة التعاليم الاستروسقية disciplinio Etrusea الخاصة بذلك.

ثانيا : بسبب استخدامهم خبراء في العرافة الأتروسقية havuspices صار لهم جماعة من المؤيّدين ازدادت أهميتهم بمرور الزمن. حتى شكلت منافسة شديدة لجماعة العرّاف الرّومان augures على الرغم من أن لكل جماعة من العراف أساليبها الخاصة في التعرف على الإرادة الإلهية.

والرومان سواء في عبادتهم للآلهة، الأسرية أم في عبادتهم الرسمية ، هم لا يتضرعون إلى الآلهة ، من أجل أن تمنحهم بركات روحية تطهر قلوبهم ونفوسهم، وإنما من أجل أن تسبغ عليهم بركات مادية تكسبهم الصحة والثروة. وترجع سيطرة الديانة على عقول الرومان إلى ثلاث عوامل :

العامل الأول : أن الديانة كانت رمزا للوحدة، وأن عبادة الأسرة رمز لوحدة الأسرة وأن العبادة الرسمية رمز لوحدة الدولة.

العامل الثاني : إن الإيمان العميق بقدرة الآلهة، على مساعدة من يكتسب رضاها عن طريق إقامة شعائرها طبقا لأصولها الصحيحة بالخير والبركة وأن تصب جام غضبها على من يغفل إقامة هذه الشعائر بكل دقة.

العامل الثالث : إن قوة التقاليد الدينية في احترام السلطة الأبوية دعمته مثل ما دعمت الشّعور بالواجب.

إن هذه الديانة الرومانية كان لها الأثر الخُلُقيّ الرفيع الذي سمى بالنفس الإنسانية فوق مستوى الدناءات. قد أسهمت في تنمية صفتين هامتين كانتا من أبرز ما اتسم به الخلق الروماني في هذه الفترة بوجه خاص. وهما الشّعور : بالواجب والحفاظ على التقاليد.

وباعتقاد الرومان أن ما يصيبهم في حياتهم من خير وشر هو متوقف ليس فقط على إقامة الشعائر الدينية للآلهة بل على إقامتها طبقا لأصولها الصحيحة لذلك كانت إقامة هذه الشعائر على هذا النحو الصحيح تحتّل أهمية كبيرة في الحياة العامة والخاصة على حد سواء. لأن قدرة الآلهة الرومانية كفيلة بأن تكلأ برعايتها المجتمع الروماني مثل ما تكلأ الأفراد ومن هذه الشعائر وأصول تطبيقها كان يتألف القانون الروماني المقدس، وهو الذي صار جزءا هاما من القانون الروماني العام. ولما كان الكهنة هم حراس القانون المقدس،

فإن ذلك كان المصدر الذي استمد منه الكبار منهم ما تمتعوا به من مكانة ونفوذ عظيمتين في الدولة الرومانية.

فقد كان الكهنة يعنون بالحفاظ على التقاليد الدينية للدولة، ويثابرون على تفسيرها إضافة إلى سوابق جديدة إليها ويباشرون بأنفسهم أو يشرفون على إقامة الشعائر الدينية في المناسبات العامة، وبعض المناسبات الخاصة . ويصفون للحكام الطقوس الدينية واجبة القيام بها عند الإقدام على أعمال عامّة. كما كان العرّاف يستمدون قوتهم من الاعتقاد بأن الآلهة كانت تصدر تحذيرات على هيئة ظواهر معيّنة كما يمكن عن طريق مراقبتها تبين اتجاهات الآلهة إزاء أي عمل يعتزمون القيام به. لذلك كان على كل حاكم قبل الإقدام على أي عمل عام استطلاع رغبات الآلهة، وعليه الالتزام بإشارة العراف والانتباه إلى عدم الوقوع في خطإ التطبيق لأن ذلك سيرتد عليهم بالشر، وبخاصة إذا أغفل نصيحتهم.

علاقة قرطاج بسكان بلاد المغرب قبل الرّومان

فمنذ أن أسس الفينيقيون مراكزهم التجارية على الحوض الغربي للبحر المتوسط، بدأت الاتصالات بينهم وبين السكان وزادت هذه الاتصالات في عهد القرطاجيين وشملت عدة ميادين ففي الميدان السياسي أخذ الأهالي يتأثرون بنظام قرطاج السياسي حيث نجد أن النوميديين قلدوا القرطاجيين في هذا النظام يعتمد على حكام سموا بالأسباط أو الأشفاط suffetes وهذا ظهر في عهد ماسينيسا عندما أراد أن يمدن البربر حتى يسهل عليه أخذ الضرائب منهم، إلى جانب دخول الفرسان النوميد يين الجيش القرطاجي وأظهروا شجاعة كبيرة وفي الميدان الاقتصادي فأوجد القرطاجيون أحسن الأسواق.

وكان الأهالي أحسن الزبائن وكانت التجارة بين الأهالي والفنيقيين مقايضة يأخذ القرطاجيون من السكان : الأنعام والصوف والجلود وريش النعام، والعاج والزيت والحبوب والذهب الذي ذكره هيرودوت في الفقرة 196

وفي المقابل يدفع القرطاجيون إليهم من مصنوعاتهم وما يجلبونه من المشرق كالثياب الملونة وأواني الزجاج والفخار والأسلحة والخمور وأدوات الزينة وفي الميدان الاجتماعي كان القرطاجيون يختلطون بالأهالي اختلاطا كبيرا في كافة نشاطات العمل إلى جانب الاختلاط في النسب وخير دليل على ذلك زواج ملك نوميديا الغربية سفاكس سوفينيت، الأميرة الارستقراطية القرطاجية وكذلك نجد أن البربر الأهالي سموا أبناءهم بأسماء فينيقية مأخوذة من آلهتهم مثل مسنتبعل وأذربعل وصدر بعل وبعل كما هو معروف كبير الآلهة الفنيقية وكانت قرطاجة في بداية نشأتها تدين بولائها للسكان الأصليين والدليل على ذلك أنها كانت قرطاج الأتاوة للسكان الأصليين مدة لا تقل عن ثلاثة قرون ونصف من الزمن هذا على عكس ما ذكره هيرودوت عن علاقة القرطاجيين بالأهالي كانت تتم بطريقة غير مباشرة وكان القرطاجيون يضعون البضائع ويأخذون في المقابل ذهبا فإن بدا لهم ثمنا عادلا أخذوه وإن لم يكن كذلك لا يأخذونه حتى يعادل سلعتهم وفي هذه العملية كما يقال لا يخدع أي فريق منهما الآخر وكأنه غير متأكد من ذلك رغم أن القصة وردت على لسان القرطاجية أحد أطراف المبادرة التجارية.

– الحروب البونية الأولى والثانية والثالثة وسقوط قرطاج

كانت الحروب البونّية نتيجة من نتائج الصرّاع الذي دام حقبة من الزمن ومن ميزات هذا الصراع أنه تبلور في تصادم المصالح على مناطق الانتاج الغزير مثل الجزر البريطانية مصدر مادتي الفضة والقصدير، واسبانيا ووصلوا مشارف نهر السنغال واستغلال واحتكار منطقة استخراج الذهب ولكن من المعروف أن الصراع تركز في جزر البحر الأبيض المتوسط .

1- الحرب البونية الأولى

الأسباب والمراحل

1- رغم أن قرطاج لم تكن ميالة للدخول في حرب مع روما ولكن روما ادّعت أن قرطاج تعد العدة للهجوم على شبه جزيرة إيطاليا وبذلك قامت روما بشن حرب وقائية تحت ستار حماية مصالحها الاقتصادية.

2- كانت روما واثقة من سيطرتها على اليابسة بفضل تفوقها المتمثل في قوة جيوشها البرية كما كانت قرطاج مطمئنة إلى قوة تفوق أسطولها البحري على معظم جزر البحر المتوسط وبالتالي تحالفت ضدها عدة جزر مع الرومان ومنها سرقوسة تحت لواء حاكمها هيرون.

3- إنّ روما بدأت تبني أسطولا يحتوي على مائة سفينة خماسية وعشرين سفينة ثلاثية وقد اقتبسوا صنعها من سفينة خماسية قرطاجية ارتطمت بسواحلهم، ودّربوا ملاّحيهم على اليابسة قبل أن يبحروا وتجرأوا على أكبر الأساطيل في العالم القديم فاحتلوا الرومان على اقريجنتي في سنة 262 – 261 ق. م وباعوا 25000 عبد ولكن سرعان ما توقف زحفهم بسبب الحصون المنيعة ونحن نعلم أن الحرب نشبت في سنة 264 ق. م ودامت إلى 241 ق. م واستمرت الحرب الأولى 23 سنة فكانت الحرب متكافئة بين الطرفين ولكن سرعان ما حقق الرومان نصرا لهم في ميليس سنة 260ق.م ثم حاولوا أن ينقلوها إلى أراضي قرطاج.

نتائج هذه الحرب

بعد أن أرغم الأسطول القرطاجي من مغادرة صقلية كلها وألزموهم بدفع غرامة مالية قدرها 2000 تلنطا Telents أي يساوي 20 مليونا من الفرنكات الفرنسية وبعد ذلك سيطر الرومان على صقلّيّة ثم غزوا على المستعمرات

القرطاجية في البحر فملكوها : مثل كورسيكة وسردينية التي دخلوها بدون حرب عندما كان القرطاجيون مشغولون بثورة النوميديين فانقضّ عليهم الرومان فاغتنم الرومان الفرصة فجردوهم من تلك المستعمرات وبذلك أجبروا على طلب الصلح فكلفهم السلم غاليا ولم يدم هذا السلم أكثر من اثنين وعشرين سنة فقد واجهت كل من روما وقرطاجة مشاكل كبيرة منها ثورة الغاليين ضد روما سبب التحالف ضدها كما تمرد المرتزقة في قرطاج لأنه لم تدفع لهم منذ زمن طويل أجورهم ودام تمرّدهم أكثر من ثلاث سنوات وتغلبت على هذه الأزمة بفضل عبقرية قائدها " هملكمار البرقي " وكان الرومان دائما يترصدون حركات القرطاجيين لمنازلتهم ثانية وإجلائهم من اسبانيا والمغرب ولكن هملكار البرقي سرعان ما أسس إمبراطورية جديدة في إسبانيا جعل قرطجنة عاصمتها ونظم جيشا محترفا وبث فيه روح الطاعة والوطنية ولم يبخل عليه في الأجور وأصبح يعوّل عليه في مواجهة الخطر، واسندت قيادته لأخيه حنبعل 226 ق. م

2- الحرب البونية الثانية 218 – 202 ق. م

عند تولي حنبعل قيادة الجيش القرطاجي قام بتجهيز جيش كبير كان أغلبه من البربر الشجعان، هذا بعد أن استطاع حنبعل أن يكسب مودتهم بإحسانه اليهم ولكن من المعروف عنه أنه تربّى على كره الرومان وعندما خلف أباه في قيادة الجيش راح يلغي الاتفاقيات والمعاهدات القديمة التي كانت بين قرطاجة وروما و لذا هاجم سنة 219 ق. م مدن "سوغونته" التي كانت تحميها روما وهذا كان السبب المباشر لإندلاع الحرب البونية الثانية. وواصل حنبعل زحفه نحو إيطاليا لضرب روما من الخلف فاجتاز نهر الأبر وجبال "البيرنيه" ونهر الرون وجبال الألب، وعدّ العدة وقسم جيشه ورتّبه قبل أن يلتقي بالجيوش الرومانية لكنه انتصر عليها في معركة تريبية سنة 217 ق. م ثم معركة "كان" وانتصر فيها إلا أن هذه المعارك أنهكته وأتعبت جيشه فتراجع إلى

"كايو" ينتظر هناك المدد ولم يصل إليه شيئا نظرا لخلاف بينه وبين مجلس الشيوخ القرطاجي اللّهم إلا اقبال أخيه صدر بعل حاكم إسبانيا الذي كان يرافقه الاسبان والغاليون لكنه قتل هذا الأخير عند ضفاف نهر "الميتور" سنة 207ق. م وكذلك حتى جزيرة سرقوسة عجزت عن نجدة حنبعل لأن الرومان استولوا عليها. وتمكن وحده من قهر الجيش الروماني في "كالايره" في ذلك الوقت تمكن "شيبيون" الإفريقي من مخالفة النوميديين بمهاجمة قرطاجة. فأدى ذلك إلى ترك حنّبعل محاصرة روما والتوجه إلى بلاده بعد أن فقد جنبعل القسم الأكبر من جيشه ولهذا لم يتمكن من التغلب على "شيبيون" وانهزم في معركة جامة سنة 202 ق. م وطلب جنبعل الصلح بعد ذلك وكانت شروطه قاسية جدا لقرطاج التي اضطرت أن تدفع لروما 54 مليونا. وأن لا يكون لها أسطولا بحريا وأن تسرح جنودها والاعتراف بنميديا دولة مستقلة ومسينيسا ملكا عليها. وبعد فترة من الزمن حوالي 50 سنة استطاعت قرطاج أن تستعيد من مجدها وازدهارها رغم الجزية الكبيرة التي كانت تدفعها لروما آنذاك. وعندما زار أحد أعضاء مجلس الشيوخ "كاتون" قرطاج لا حظ أن هذه النهضة في قرطاج عدوة للرومان" وبعد عودته إلى روما راح يردّد على مسمع مجلس الشيوخ الروماني عبارته الشهيرة : "يجب أن ندّمر قرطاج " وبعد ذلك شنّت روما حربا ثالثة دون أي سبب وأوضحت سوء نيتها تجاه قرطاج وطمعها في خيراتها وتطبيقا لمقولة" كاتون" الذي أخذ يحرّض في مجلس الشيوخ بقوله لهم " إنه ليس بينكم وبين أرض إفريقيا التي تنتج هذا التين إلا مسيرة ثلاثة أيام" فتكونت الرغبة في قلوب الرومانيين لاحتلال إفريقيا والقضاء على الدولة القرطاجية وأصبح تدمير قرطاج شعار يهتف به خاصتهم و علمتهم يطالبون به مجلس الشيوخ تهديم قرطاج ، تهديم قرطاج.

وبذلك أرادت أن تفرض على قرطاج شروط أقسى وأثقل من أية شروط سابقة فأدرك القرطاجيون أن لا مفر من الحرب وقرروا المقاومة فدامت المجابهة مدة سنتين من 149–147 ق. م.

3- الحرب البونيّة الثالثة وسقوط قرطاج

قررت روما بالفعل احتلال قرطاج وأخذت تعد الجيوش فجهزت جيشا كبيرا يضم أكثر من 80 ألفا من المشاة و4000 من الفرسان وأكثر من 150 سفينة حربية منها حوالي 50 سفينة خماسية وتقدّمت بهذه القوات الهائلة نحو عتيقه بإفريقيا "تونس الحالية" وولت قيادة هذا الجيش العظيم إلى شيبيون الإميلي، واستخدم القرطاجيون بذكاء وشجاعة كل الوسائل المتوفرة لديهم ليدفعوا يبعدوا الحصار عن مدينتهم فأنشأوا أسطولا بأثاث بيوتهم وصهروا الحلي وصنعوا منها سيوفا وصنعوا من شعر النساء حبالا للسفّن وبنوا أسطولهم في سرّيّة تامة فنجح في الخروج من المرفإ الداخلي خروجا مفاجئا عبر منفذ خفي. لكن أميرال الأسطول كانت تنقصه الجرأة والتجربة فأجّل المعركة لليوم التالي وضيع الفرصة الثمينة منه ودبّت المصائب في البلاد وخاصة المجاعة غير أنها بقيت تقاوم ببسالة مما سببت هزيمة "سيبيون" عدة مرات ولكن أخيرا نجح في تحطيم أسوار المدينة فاخترقها الى المرفأين وفقدت قرطاج أملها في النجاح ودبّ فيها اليأس، وما بقي إلا حفاظهم على البقاء حيث استمرت المقاومة مدة ستة أيام، إلى تحطيم آخر بيت وآخر تاريخ وآخر رجل كان كل شئ فيها يحارب وهكذا سقت الحضارة التي دامت أكثر من 668 سنة من 1146 ق. م إلى 814 ق. م وهلك الجميع لولم ينج في اليوم السابق بضعة آلاف ووصل "سيبيون" إلى قلعة "بيرسا" وأصبح حاكم المدينة وسيدها.

وفي معبد "أشمون " حاصر بعض المحاربين الرومان القائد القرطاجي "صدر بعل" مع زوجته وأطفاله بعد أن ظلّوا يقاومون ومن المعروف أن صدر بعل أصر على مقابلة "سيبيون" سرا ليطلب منه العفو، وسرعان ما علمت زوجته بضعف زوجها القائد القرطاجي فصعدت إلى أعلى المعبد مع أولادها ووجهت الكلمات التالية إلى "سيبيون" قائلة : "إنني أرجو لك أيها القائد الروماني كل

النجاح لأنك تتصرف بالحقوق التي تمليها عليك الحرب، لكني أطلب من الآلهة القرطاجية ومنك أن تعاقبوا زوجي "صدر بعل" كما يجب لأنه خان وطنه وآلهته وامرأته وأولاده ثم رمت بنفسها مع أولادها في النار التي أشعلها الرومان في غابة قرطاج .

وهذه التضحية العظيمة تدل على المجد البطولي التي عرفته نهاية قرطاج إلى أن أزيلت من الوجود وفي هذه الفترة انتهى صراع وبدأ صراع آخر جديد أي انتهى صراع الروماني القرطاجي وبدأ الصراع الروماني مع السكان . ومن ذلك نستنتج أن الصراع يبدأ مع بداية ظهور الدول أو نهايتها.

الحضارة الأمازيغيّة

ظهرت الحضارة الأمازيغية منذ زمن واغل في القدم في شمال إفريقيا كحضارة لكن الدولة الأمازيغية لم تظهر للوجود إلا في الفترة التي عاصرت الحروب البونية بين القرطاجيين والرومان وبالرغم من قيام ثلاث ممالك لها كيان سياسي في المنطقة إلا أن هذا الكيان لم يعترف به إلا من خلال الحرب البونية الثانية بعد معركة " جامة " أو زامة سنة 202 ق.م. عندما وقعت معاهدة الصلح بين للدولتين العظيمتين روما وقرطاج والتي جاء في أحد بنودها كشرط أساسي في المعاهدة :

"الاعتراف باستقلال نوميديا من طرف القرطاجيين ومسينيسا ملكا عليها"

الإطار السياسيّ والتاريخيّ

بعد ذلك بدأت الرؤية في الوضوح حول النظام السياسي الذي تقاسمته ثلاث ممالك في المنطقة هي : نوميديا الشرقية ماسولة ومسينيسا ملكا عليها ونوميديا الغربية مازيسولة وسفاكس ملكا عليها ولها عاصمتان "سيرتا"

و"صاغة ". وإلى شمال المغرب الأقصى كونت مجموعة القبائل مملكة سميت بموريطانيا و"بخوس" ملكا عليها.

نوميديا الشرقية "ماسولة "

وكانت نوميديا الشرقية تشمل القسم الشرقي من مقاطعة قسنطينة "منطقة الأوراس حاليا" فقد تقلصت حدودها الشرقية أما التوسع القرطاجي، يرجع تأسيسها الأول إلى "غايا" ابن "نارفاس" وغايا لم يورث ابنه الأكبر" مسينيسا عرش مملكته بل ورثها أخوه ثم ابن أخيه بعد ذلك ربط ماسينيسا علاقته مع روما و خاصة مع " سيبيون " إذ ساعده هذا الأخير على دخول سيرتا "203 ق. م" بعد أن هزم الملك سيفاكس ملك مازيسولة "نوميديا الغربية" وسرعان ما احتل ماسينيسا كافة الأراضي التابعة لنوميديا الغربية والشرقية أي من نهر الملوية غربا، إلى طبرقة شرقا. وكان ماسينيسا رجلا عظيما حيث استطاع أن يتحكم في شعبه ويمدنه ويجعل منه دولة موحدة مستقلة وبعد ذلك أصبح عاهلا لا سيد قبيلة وقال عنه المؤرخون "كان، ماسينيسا من بين ملوك البربر العظماء فانه يشبه يوسف بن تاشفين المرابطي وعبد المومن الموحدي والشريف المغربي ملاي إسماعيل، فلقد تمكن ماسينيسا من بسط سلطانه من موريطانيا إلى قورينة وكما شجع العمران وعمّم الفلاحة وأخذ نظامه السياسي من نظام قرطاج الذي يعتمد على الشافطين رغم أن هذا النظام موزع بين أبنائه من هنا رأى فيه الاغريق والرومان الملك الحق ونسي ماسينيسا الكثير من رعاياه الأحقاد وصراعهم الغريزي للملوكية وساهم الود والخوف معا في تعلق الناس به وتواصلت عبادته على مر العصور.

نوميديا الغربية " مازيسولة "

كانت مملكة مازيسولة على رأسها سيفاكس وهو من قبيلة زناته وهي من البربر البتر، الذي كان من أعظم ملوك البربر حيث مدت إليه قرطاج يدها تطلبه

المعونة وزوجته فتاة من طبقة ارستقراطية وهي ابنة صدر بعل، وعندما أضعف ماسينيسا خصمه عمت سلطته بلاد المغرب الأوسط كلها.

ويقول شارل أندري جوليان : "كان يقلد في حياته ملوك اليونان وتوهّم أن مصير بلاد البربر سيكون بيده" ولكن حكمه لم يطل حيث سقط عندما زحف ماسينيسا على عاصمته الشرقية "سرتا" سنة 203 ق. م ومن المعروف أن له عاصمة أخرى كانت تسمى "صيغة" أو صاغة شرق نهر الملوية.

وتبعد عن هذا النهر شرقا بـ 90 كلم وكانت لهذه العاصمة ميزات إستراتيجية، إذ تقع في مرتفع صخري والمحاطة بمنحدرات وعرة تبلغ حولي 100 متر ارتفاعا ويجري بالقرب منها نهر يمر بأرض وعرة أيضا الذي يسمى نهر المساقة "الرحل" وكان إقليم نوميديا الغربية صالحا أكثر من نوميديا الشرقية، ويقول جوليان أيضا "أن سوق سنابل القمح البالغ حجمها حجم الخنصر يتجاوز طولها المترين وأن أهلها كانوا يتحصلون على صابتين من دون أن يبذلوا جهدا يذكر في العناية بالأرض ويظفرون بإنتاج يقدر بـ 240 مقابل واحد ".

مملكة موريتانيا

فلقت تأسست شمال المغرب الأقصى في القرن الثالث قبل الميلاد جماعة كثيرة من القبائل سموا بالموريين أو مملكة موريتانيا وتوسع نفوذ هذه المملكة في أواخر القرن الثالث إلى أن بلغت في القرن الأول حدودها نهر المساقة سالف الذكر وكان على رأسها ملكا يدعى بخوس. وكانت عاصمتها هي طنجة أو وليلي، وهذه العاصمة لم تظهر بوضوح إلا في عهد يوبا الثاني وابنه بطليموس في موريتانيا الغربية كما كانت مقرا للرومان بعدها وتسمى أيضا بقصر فرعون وكان من ملوكها بوكار وكانت له علاقة طيبة مع ماسينيسا وعندما تولى الملك بخوس الأول ارتبط بيوغرطة عن طريق المصاهرة سنة 114 ق. م ثم استعان به في هروبه مع الرومان سنة 107 ق. م واقتسم أبناء بخوس

الأول مملكته لما مات في سنة 80 ق. م وهما بعيد الأول الذي أخذ موريتانيا الغربية وبخوس الثاني الثاني الذي أخذ موريتانيا الشرقية، وكانت موريتانيا مشهورة بزراعة القمح، وتمّ إلحاق بلاد البربر بقرطاج واحتلالها من طرف الرومان وخاصة الأراضي القريبة منها جنوبا التي كانت تحتلها منذ زمن قديم قبائل من جداله، وضمت روما أيضا إليها سيرتا الصغرى كما عينة روما هيئة مكونة من عشرة شيوخ تشرف على مصير مكان لقرطاج من ممالك قبل الحرب.

الاحتلال الرّومانّي لبلاد المغرب القديم

احتل الرّومان إفريقيا منذ سنة 146 ق. م على إثر سقوط مدينة قرطاج، وإمبراطوريتها التجارية وتحويل هذه الممتلكات إلى مقاطعة رومانية تدعى المقاطعة الإفريقية ˝ إذ ضمّوا لها كل من طبرقة "وباجة" "ودقه "

وكانت روما كلما احتلت مقاطعة جديدة ضبطت مساهمتها وقسمتها أي أراضيها على المعمرين وعهدت روما حكم إفريقيا إلى قاض في رتبة معين للقنصل ويسمى بريطور أو إلى بريطور قديم يقوم مقامه ويدعى بروبريطور ويعين لمدة سنة مثل فترة انتخاب الشافط عند القرطاجيين. ومنذ أن ضمت روما ادارة مقاطعة اسبانيا أصبح لروما مسؤولون برتبة بريطور وابتداء من عهد الإمبراطور سيلا الذي جعل عددهم ثمانية بريطور وأجبرهم على ممارسة الحكم في روما وهذا في سنة 81 ق. م. لقب نائب الحكم المكلف بافريقيا ببرو قنصل. استمر الرومان في الهيمنة دون التعرض لأية مقاومة قد تسبب لهم أخطارا كبيرة . إلى غاية سنة 238 م.

غير أنه كلما توسع الرومان وحاول بسط نفوذه إلا وتقف في سبيله معارضة في شكل ثورات محلية بالغة الخطورة والضراوة على إثر ذلك اضطر الرومان إلى القيام بحملة لإخمادها ومحاولة القضاء عليها، وفي عهد التافيوس أغسطس قامت عدة تمردات وثورات منها على سبيل المثال لا الحصر ثورة قبيلة

الجيتول أو "جدالة" على حدود موريتانيا الجنوبية وقد أدى ذلك التمرد إلى زعزعة استقرار مملكة يوبا الثاني، المعروفة بموريتانيا الطنجية القيصرية وجدالة كان لها انتشار ونفوذ على معظم أنحاء الصحراء من خليج سرت الكيرى إلى حدود موريتانيا الطنجية والقيصرية جنوبا .

واستمرت ثورتها أكثر من ثلاثين سنة، كما أنّ قبيلة المزالمة لم تنقطع ثوراتها ومقاومتها للاحتلال الروماني وهذه القبيلة لها نفوذ كبير في كل من شمال الجزائر وتونس.

الاحتلال الروماني و تنظيمه الإداريّ

المقاطعات الأربع هي :

- إفريقية البروقنصلية.
- نوميديا.
- موريتانيا القيصرية.
- موريتانيا الطنجية.

¤ إفريقية البروقنصلية

ظهر هذا المصطلح منذ سنة 81 ق.م أثناء عهد "سيلا" sylla حيث لقب نائبه المكلف بإفريقية بلقب بروقنصل غير أن ذلك لم يتم إلا بعد أن انتصر "أكتافيوس" على معارضيه، بعد أن مرر حيلته في التظاهر بلعب دور المتخلي عن الحكم، فأدى ذلك إلى منحه من قبل المجلسين، مجلس الشيوخ ومجلس الشعب لقبا جديدا هو "لقب" أغسطس ومنذ ذلك التاريخ في 27 ق. م اسندت له سلطة" البروقنصل" وكانت افريقية البروقنصلية تشمل كل من إفريقية القديمة وإفريقية الجديدة التي ظهرت بعد انتصار القيصر على انصار "بمبيوس"

وحدودها شرقا لبدة مقنة وغربا حتى "هيبوريس ريجيوس" عنابة وجنوبا حتى غدامس.

كما ضمّت إليها مملكة "ستيوس" ابتداء من سنة 44 ق.م، وكانت البروقنصلية تضم بصفة خالصة الأراضي التي شهدت مقومات الحضارة والتطور في جميع الميادين، كما أن البروقنصل من أهم الشروط التي يجب أن تتوفر فيه أن يكون عضوا في مجلس الشيوخ ويكون برتبة قنصل متميز عن غيره من القناصل بحيث يمكن لأعوان الإمبراطور الذين يتصلون به مباشرة كانوا يتسببون في عرقلة نفوذه سنة بعد أخرى، وباختصار فإن البروقنصلية تعتبر مستعمرة استيطانية لقدماء الجيش.

نوميديا

كانت نوميديا قد احتلّها أغسطس بعد أن سقطت مملكة يوبا الثاني، وهي تمتد من الجزائر العاصمة ايكوزيوم وأيول غربا إلى غابة روسيكادا (سكيكدة شرقا) ونوميديا من الناحية القانونية كانت تابعة للبروقنصلية، غير أن حاكمها له صلاحيات أمنية وله سلطة الإشراف على الأراضي الواقعة في جنوب منطقة إفريقيا القديمة ومنطقة المدن الخمس طرابلس، وكان على رأسها مندوب مفوض بقيادة الكتيبة الثالثة من الجيش الروماني كما تعتبر جميع أراضي نوميديا ضمن المناطق العسكرية، وهي مقاطعة أمنية أكثر منها إدارية، لأن الكتيبة الثالثة المعروفة باسم اغسطس التي اسندت إليها مهمة حماية كل المكتسبات الرومانية كان مقر معسكرها شمال شرق تبسة في حيدرة الذي اشتهر بـ "لمباز" وهذا المعسكر تم بناؤه في 128 م واسندت لتلك الكتيبة حماية كل الأراضي التي احتلتها روما من الحدود البحرية شرقا إلى الحدود الموريتانية غربا كما كانت في حالات استثنائية ترسل هذه الكتيبة فرقا خارج إفريقيا البروقنصلية و تم ذلك في 198 م عندما قدمت الدعم والمساعدة للقائد

الإفريقي سبتموس سيفروس من أجل الانتصار على منافسه في الإمبراطورية بالرغم من أن الغرض الأول لإنشائها قصد مراقبة سكان الجبال الذين كانوا يهددون سلامة القوافل التجارية التي كانت تعبر بين الصحراء والمراكز التجارية على السواحل و عليه فإن نوميديا كانت ذات أهمية عسكرية أكثر منها إدارية.

موريتانيا القيصرية والطنجية

كان يحكم موريتانيا القيصرية وكيل الإمبراطور من رتبة الفرسان وأنشأها الاحتلال في سنة 46 ق. م بعد انتصار القيصر وأصبح سيد العالم، وأسندت مهمة حفظ النظام من قبل الاحتلال الروماني إلى هذا الوكيل وتمتع بصلاحيات واسعة منها قيادة الجيش في هذه المقاطعة تخضع لأوامره وجمع الضرائب مهمة الاشراف على الأشغال العامة ويدير الشؤون العامة الادارية والاقتصادية وحتى الاجتماعية، فكانت موريتانيا القيصرية مقرا مفضلا للموظفين والتجار، و هذا بعد أن كانت في السابق مستعمرة لأفراد الاحتلال فقط وتليها في الأهمية موريتانيا الطنجية فقد كانت مقر اقامة وكيل الإمبراطور الذي يشرف على قوات الاحتلال الإضافية، كما استعملت روما ما يعرف بسياسة الليونة مع سكان الحدود فكانت تنصب عليها مسؤولين من تلك المناطق اثبتوا ولاءهم للاحتلال الرّوماني.

مقاومة الاحتلال الرّوماني

1- ثورة يوغرطة.

2- تاكفاريناس.

3- ثورات القرن الأول والثالث.

- ثورة فيرموس.

– ثورة جيلدون.

4– مقاومة الاحتلال البيزنطي.

مقاومة الاحتلال الرماني

لقد احتلّ الرومان افريقيا منذ 146 ق. م بعد انتصارهم في الحرب البونية الثالثة على إثر سقوط مدينة قرطاج، وهيمن الرومان على المنطقة كلها دون أن يتعرض لمقاومة تزعجه إلى غاية سنة 238 م.

غير أنه كلما توسع الرومان وحاول بسط نفوذه، إلا وتقف في سبيله معارضة عنيدة في شكل ثورات محلية بالغة الخطورة والضراوة على إثر ذلك اضطر الرومان إلى القيام بعدة حملات تأديبية لإخمادها ومحاولة القضاء عليها.

وخلال عهد اكتافيوس "أغسطس" قامت عدة تمردات وثورات منها على سبيل المثال لا الحصر ثورة قبيلة "الجيتول" أو جدالة أو لواته. التي هددت موريتانيا من حدودها الجنوبية وقد أدّى ذلك التمرد المستمر إلى زعزعة استقرار مملكة يوبا الثاني، المعروفة بموريتانيا القيصرية. وقبيلة جدالة تؤكد المصادر التاريخية على أنها ذات نفوذ وانتشار كبيرين في جميع أنحاء الصحراء يمتد من خليج سرت الكبرى إلى حدود موريتانيا الطنجية والقيصرية جنوبا، واستمرت ثورتها أكثر من ثلاثين سنة، كما أن قبيلة "المزالمة" في المرتفعات لم تنقطع ثوراتها ومقاومتها للاحتلال الروماني وهذه القبيلة لها نفوذ كبير في كل من شمال الجزائر وتونس.

1– ثورة يوغرطة (111– 105ق. م)

لقد استولت جيوش يوغرطة وصهره "بوكوس" على مدينة سيرتا (قسنطينة حاليا) قصد منع وصول الإمدادت إلى ماريوس وعزله عن طريق البر

من القنصلية الرومانية بإفريقيا في سنة 106ق.م، فقد اشتبك ماريوس مع يوغرطة وبوكوس في عدة معارك طاحنة كانت آخرها معركة وادي العثمانية بالقرب من سيرتا.

ودامت الحرب لمدة ثلاث سنوات هذا فضلا عن المعركة الدبلوماسية التي فضل فيها رشوة أعضاء مجلس الشيوخ ومنهم السيناتور "بابيوس" الذي كان له الكثير من الأتباع في المجلس وقوة النفوذ، فرشاه يوغرطة بمال كثير وبهدايا نفيسة من قبل نوميديا.

كما كان يوغرطة لدهائه يتظاهر بالصداقة لروما، ويخفي عداوته الشديدة لها غير أنه في الأخير أدرك بوكوس أن الرومان من الصعب الانتصار عليهم فتآمر على صهره يوغرطة، ثم يلقي عليه القبض في هذه المؤامرة الدنيئة ثم يسلمه لروما بحثا عن مقابل لذلك غير مبال بعلاقة المصاهرة والقرابة والجوار والمصير المشترك.

وعليه تم القضاء على يوغرطة نتيجة لمؤامرة من بوكوس طمعا في كسب ودّ الرومان ونال مقابل ذلك لقب حليف وصديق الشعب الروماني كما ضم إليه الجزء الغربي من نوميديا، وبذلك يسهل على الرومان تقسيم نوميديا الموجودة حسب رغبتهم بين عدة ملوك ضعاف يسهل استعمالهم ضد بعضهم وضربهم عند الحاجة.

وعلى إثر حرب يوغرطة اتضحت عدة نتائج منها :

1– تغير حدود المملكة النوميدية، بحيث أعطى الثلث الموالي لموريتانيا من الأراضي لبوكوس الأول وفاء من الرومان ثمنا لتحالفه معهم ومساهمته في إلقاء القبض على يوغرطة العدو اللدود لروما.

2- تم تنصيب الأمير غودا Gauda أخ يوغرطة على الجزء الشرقي من نوميديا، وهذا حسب تجسيد رغبة الرومان لأن غودا كان ضعيف الشخصية إلى درجة أن بعض المصادر تصفه بالأحمق أو المعتوه، وبذلك أصبحت نوميديا مكانا مفضلا لكل من هو يعمل لصالح الرومان من رجال الأعمال والمال والجواسيس.

3- استصدار الرومان لقوانين خاصة تعطي الحق لقدماء المحاربين الذين ناصروا ووقفوا إلى جانب روما في الحصول على قطعة أرض تصل مساحتها 25 هكتارا يفلحونها ويزرعونها وهذا نظرا لما قدموه من دعم لها في حربها ضد يوغرطة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر قانون "ساتورنوس" علم 103 ق. م.

4- على إثر تلك الحرب وهزيمة يوغرطة اعتبر مجلس الشيوخ الروماني المملكة النوميدية ملك عام للشعب الروماني المنتصر، وبالتالي تراجعت الاستقلالية النوميدية واندمجت في الحضارة الرومانية، وهذا في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكرست سياسة الرومنة والاعتماد في كتابة التاريخ على مؤرخي الحوليات الرومانية الذين كانوا يمجدون ويضخّمون أمجاد الرومان في أعمالهم.

2- تمرد تاكفاريناس

لم يعان الرومان في مستعمراتهم من التمرد مثلما عانوه في بلاد المغرب الأوسط من ثورات وتمرّدات وانتفاضات الكثير عليهم.

لقد قامت عدة تمرّدات منها تمرد قبائل الجرمانتس سنة 78 م في الجنوب الشرقي الجزائري وجبل نقوسة ولم يخمد ذلك التمرد إلا بجهود كبيرة، بينما في الشمال كانت تمردات قبيلة المزالمة متكررة مثل عصور قديمة ناصرت هذه القبيلة تمرد كل من يوغرطة وتاكفاريناس "17 م – 24 م"

وتجمع المصادر التاريخية في أشاراتها على أن الثائر تاكفاريناس، تمرد على الرومان لأنهم يحتقرون السكان المحليين ويرونهم طبقة دنيا خلقت لوطء أقدام روما وتسخيرهم في الأعمال المهينة في أغراضهم وكان الرومان يحتكرون الوظائف العليا لأنفسهم و لا يتركون للسكان إلا الوظائف الوضيعة الصعبة التي لا يستطيع أبناء روما المدللون القيام بها، وكان الرومان يتقاضون أجورا عالية، لكن السكان يتقاضون عكس ذلك، وكان أغلب الشباب يفرّون من الخدمة العسكرية إلا القليل منهم مثل تاكفاريناس الذي عمل ضمن صفوف الجيش الروماني وتدرّب فيه على أساليب القتال قبل أن يفر ويتمرد وبدأ في تحضير الشباب للثورة ومقاومة الرومان المحتلين بعد دراسة الأخطاء السابقة التي وقع فيها غيره فقد عمل تاكفاريناس على :

1– توحيد القبائل وتحضيرها للمقاومة.

2– تأمين حدود القبيلة المزالمة و تطويق الرومان من جميع الجهات.

3– التمرد على دفع الضرائب الرومانية الثقيلة والقوانين الجائرة التي أفقرت السكان الذين التجئوا إلى العمل بأجر زهيد في أراضيهم التي أجروها للرومان.

4– عدم دفع الغرائم المفروضة على العقار التي كانت تدفع إما عين أو حبوب.

5– طالب تاكفاريناس بإرجاع الأراضي لأصحابها.

6– توقيف المشاريع الاستيطانية الرومانية.

وعلى إثر ذلك جمع تاكفاريناس عناصر بشرية ممّن انخرطوا في عصابات من قطاع الطرق والمتشردين والمظلومين وقادهم إلى التمرد وتخريب

ممتلكات الرومان العامة، ثم درّبهم على أساليب القتال وقسّمهم إلى فرق وتسند إليهم مهام تتناسب مع قدراتهم القتالية بدءا من سنة 17م، وهذا بعد أن وجّه نداءا عاما للقيام بالثورة ضد الرومان والتحرر من جبروتهم، فنزل تاكفاريناس جنوده من جبال أوراس فهجم على بعض المراكز الحربية الرومانية فقتل الكثير منهم وأخذ الكثير من الأسلحة والأسرى كذلك، فانتشرت حركته التمردية من خليج سرت الكبرى إلى المغرب الأقصى فأرسل إليه السكان عدة لوائح مساندة من قبل السكان يبايعونه على الثورة و التمرد ويؤيدونه في نضاله، وامتدت تلك الثورة إلى الجنوب لأن الجيتوليين كانوا يكرهون الرومان، فلما تمرد تاكفاريناس رحّبوا به وفرحوا فرحا كبيرا ولمّا التجأ إليهم آزروه وأيّدوه فألّف منهم جيشا دربه أحسن تدريب، وعلّمه الأساليب الرومانية في القتال وخاصة حرب العصابات، وحضّر جيشه من الجيتول مدة عام، وفي ما بين عام 18– 20م هجم تاكفاريناس بجنده من قبائل جيتولية على الرومان في وادي باجيدة في ناحية "لمباز" بشمال الأوراس وقد تمكّن من أن يحقق النصر ويلحق الهزيمة بالقوات الرومانية، وعليه قامت روما بتعزيز قوات البروقنصل "ابرونيوس" بإرسال الجنود والعتاد إليه بعد أن فاجأهم تاكفاريناس بكتائبه في حرب خاطفة فهزمهم شر هزيمة، فاحتل مراكز الرومان فغنم منها الأسلحة كما حاصر عدة مدن منها مدينة " تالة" في غرب إفريقيا وحاول احتلال الحصن الروماني في قالمة، وعلى إثر ذلك أيد سكان المغرب تاكفاريناس واعتبروه مخلصهم من ظلم وشر الرومان المحتلين، وكان تاكفاريناس في موقف قوّة تسمح له بالتفاوض من موقع قوة وعليه أرسل وفدا إلى إمبراطور الرومان "تيباريوس كلوديوس" يعرض عليه الصلح، على أن يرجع الرومان إلى الولاية الرومانية وأن يكتفوا بها، وينسحبوا عن بقية إفريقيا ونوميديا وإعادة الأراضي التي مكانت قد انتزعت من قبيلة المزالمة فرفض الامبراطور طلب تاكفاريناس فأرسل إلى الجيلوتيين في الصحراء فوعدهم بالعفو الشامل إن هم تخلوا عن مساندة تاكفاريناس ووضعوا السلاح.

كما خصص الإمبراطور الروماني جائزة كبيرة لمن يقوم باغتيال، تاكفاريناس، غير أن الجيتوليين لم يتخلوا عنه فازدادوا تأييدا له وآزروه للاستعداد من جديد في مواجهة الرومان، وفي سنة 21 م عين الإمبراطور "تيباريوس" لحرب تاكفاريناس قائدا آخر أكثر كفاءة من القائد الأول كاملوس هو " إبليسوس" وأرسل معه جيشا جرارا للقضاء على تاكفاريناس الذي التجأ إلى الصحراء.

وكان يوبا الثاني في أثناء هذه الحروب على تاكفاريناس هو الوالي على غرب نوميديا وعلى المور، وكان يوبا الثاني حليفا مخلصا للرومان في إخماد الثورة فقد توفي يوبا الثاني في عام 23 م و في الوقت نفسه كان تاكفاريناس مرابط في الصحراء يراقب الأوضاع عن قرب، ولما توفي يوبا وولى مكانه ابنه بطليموس الضعيف الشخصية انضم الكثير من سكان شمال إفريقيا إلى ثورة تاكفاريناس، كما انضمت قبائل الجرمانتس إليها.

وكان الرومان مهتمين بشؤون هذا التمرد الذي زعزع كيانهم في بلاد المغرب فقد عينوا قائدا ثالثا لمحاربة تاكفاريناس يدعى "دولا بيلا"، فأقام "دولا بيلا" مراكز مراقبة عسكرية في حدود الصحراء لمنع تاكفاريناس من الالتجاء إليها، كما قام القائد الروماني بمعاقبة وقتل كل من يناصر تاكفاريناس من سكان الصحراء.

وباءت كل محاولات " دولا بيلا " بالفشل في منع الجيلوتيين من مساعدة ثورة تاكفاريناس، وعلم دولا بيلا أنه لا يستطيع التغلب على تاكفاريناس بالهجوم المباشر الذي لم ينل منه شيئا لأن تاكفاريناس كان يتبع أسلوب حرب العصابات التي تعتمد على المفاجأة والمباغتة، ولهذا اتّبع "دولا بيلا" الهجوم المفاجئ على خصمه تاكفاريناس وهو آمن في مجموعة قليلة من المقاومين وعليه بدأ القائد الروماني في رصد خطوات تاكفاريناس عن كثب وعندما استراح تاكفاريناس في قصر قديم وسط غابة شرقي سور الغزلان، باغته دولا بيلا في جيش كثير العدد والعدة وطوق تاكفاريناس واتباعه المكان وعزله عن

أنصاره، فتأكد تاكفاريناس أنه مقتول أو مأسور ففضل الموت الكريمة على الأسر الذليل، فقاتل حتى قتل سنة 24 م بعد أن سبب مصاعب كبيرة للرومان مدة ثمانية سنوات.

3- ثورات القرن الأول والثالث

ثورة فرموس وجيلدون (372-395 م)

إن التمرد الذي أثّر على الرومان وكاد يقضي على وجودهم في بلاد المغرب هو تمرد كل من فرموس وجلدون.

ومن المعروف تاريخيا أن فرموس وجيلدون كانا أخوين وهما ابنا الملك " نوبال" ملك منطقة جبال القبائل، وكان الملك "نوبال" وأبناؤه مسيحيين من أتباع المذهب الآريوسي الدنتوسي عكس الرومان الذين هم من أتباع المذهب الكاثوليكي وكان هذا الملك مخلصا لقومه قوي الشخصية مؤثرا في معظم رعاياه، ولما توفي في 370 م خلفه ابنه فرموس في الزعامة والملك، وكان أخوه جيلدون ينافسه في ذلك، وكان يتربّص به من أجل أن يسقطه ويزحزحه من طريقه.

وتجمع المصادر التاريخية في إشارتها أن بلاد المغرب في ذلك كان يغلي كرها وعداوة للرومان، وخاصّة أتباع المذهب المسيحي "الكاثوليكي".

وكانت المنطقة كلها تنذر بانفجار و ثورة عارمة وكان فرموس من أول المتمردين لعلى الرومان، وفي سنة 372 م قام بثورة على الرومان في جبال جرجرة، فأيّده كل المسيحيين من السكان الذين هم من أتباع المذهب الدنتوني كما تلقى فرموس المساعدة القوية من الموريطانيتين الطنجية والقيصرية قصد الإعداد للثّورة فجند أكثر من عشرين ألفا فقد هجم على موريطانيا القيصرية "شرشال" فألحق بها خسائر معتبرة فحرقها وقتل الكثير من الرومان وأعوانهم

وامتد التمرد الذي قاده فرموس إلى مناطق كثيرة من نوميديا مما أدى إلى تحرك جيش الكتيبة الثالثة المرابطة في نوميديا والجيش المرابط في إفريقيا لقمع ذلك التمرد الذي هزم الجيوش الرومانية مما اضطر الرومان في بلاد المغرب إلى الاستغاثة بروما.

وعلى إثر ذلك أرسل الإمبراطور "ولنتنيانس" جيشا كبيرا تحت رئاسة القائد الماهر "ثأودوسيوس"، وكان "ثأودوسيوس" يقدر و يضع لقوة فرموس ألف حساب لكثرة جنده وشجاعة أتباعه ، فأيقن أنه لا يستطيع إخماد ثورة "فرموس" والتغلب عليه إلا بجند قوي من سكان المغرب، وكان على علم بالخلاف والتنافس بين الأخوين فرموس وجلدون فعزم على الاستعانة بجلدون ضد أخيه فرموس.

وفي سنة 373 م وصل "ثأودوسيوس" بجيشه إلى جيجل، ثم توجه إلى منطقة سطيف بعد ذلك أرسل "ثأودوسيوس" إلى جلدون يستميله ويطلب منه مد المساعدة، ووعده بالمنصب والسلطة إن هو أعانه على هزيمة فرموس، فقد وافق جلدون على طلب القائد الروماني فانضم إليه مع جيش كبير من انصاره فأدى ذلك إلى دعم القائد الروماني الذي اشتبك بفرموس في معارك طاحنة انتهت في صالح الرومان مما أدى بفرموس إلى طلب الصلح، ثم نقض الرومان الصلح فجدد فرموس التمرد وجمع ما يقارب عشرين ألفا بها "ثاودوسيوس"، فغير ثاودوسيوس أسلوب المعركة من المواجهة إلى المحاربة بالدهاء والكيد فجنّد له بعض الخونة من أنصار فرموس المقربين منه للتخلص منه والقضاء عليه، فعلم فرموس بالمكيدة ويئس من أخيه الموالي للرومان ففضل أن لا يقع في يد أعدائه فانتحر في سنة 375 م و على إثر ذلك انتهى تمرده الثوري وبقي سكان المغرب على عهدهم في كره وعداوة الرومان المحتلين.

وأما جلدون الذي جازاه الرومان بالدرجات الرفيعة فتقّلد أعلى المناصب العسكرية ففي سنة 387 م عين رسميا أعظم قائد على فيلقين رومانيين، وفي سنة 395 م توفي ولي نعمته وصديقه " ثأودوسيوس" على إثر ذلك حاول أن يستقل فرفض الاعتراف بالسيادة الرومانية وأصبح معارض لها فوجد المساندة من المسيحيين الدونتوسيون، وفتك جلدون بالرومان المستعمرين وبمؤيديهم من المذهب الأورثوذوكسي، وأدى تمرده إلى قطع التموين من الحبوب المغربية إلى روما وأعلن تمرده في 397 م الأمر الذي أدى بروما إلى التعجيل في إعداد حملة للقضاء على تمرد جلدون واستعانت عليه بأخيه مسيزال، وكان مسيزال بإيطاليا لأنه كان عدوا لدودا لجلدون الذي قتل ولديه، فأرسل الرومان جيشا عدده خمسة آلاف جندي تحت قيادة "مسيزال".

الاحتلال الوندالي لبلاد المغرب

لقد سيطر الوندال على قرطاج الرومانية سنة 439 م وقد جاء في كتابات (بروكوبيوس) في ثلاثة أقسام " التواريخ" منها حروب الوندال وإفريقيا، بعد اخترق قائد الوندال (جيزريك جنسريق) إسبانيا حين دعاه (بونفاسو) لمساعدته ضد منافسته (غالة بلاكيديا أو بلاسيديا) فطرده جيزريك من مملكته وحكم هو وخلفاءه افريقيا حوالي قرن من الزمان(مائة عام) حتى عام 535 م. ومصطلح وندال تطلق على شعب من أصل جرماني عرف بكثرة الهجرة والترحال والمغامرة، واتصف بالخشونة والحزم والشدة، فقد هاجر الوندال من موطنهم الأصلي على بحر (آزوف). عبر المانيا وفرنسا وإسبانيا.

واعتنقوا خلال هجرتهم أحد المذاهب المسيحية المعروف بالمذهب الأريوسي أو الأرياني فكانوا الأعلام الألداء للمذهب الكاثوليكي واتباعه وأقام جنسريق في شمال افريقية دولة عظيمة وأستمرت حتى سقوط "جليمار".واتبع الوندال منذ سنة 442 م. الحكم المطلق فقد تخلص "جيزريك" لكل من يعارضه في الرأي أو في الحكم.

كما اتبع التقاليد التالية :

1– جعل الملك وراثة العرش لأكبر أحفاده من الذكور دون مراعاة السلالة القريبة إليه.

2– الملك هو الذي له كل الإشراف على شؤون الدولة والموظفين منهم الوزير الأول ويكون من أصل جرماني وكذلك مدير الديوان الذي يحرر المحاضر والقرارات ويشرف حتى على الكهنة الأريوسيين.

3– يختار "ألاف الأمير" COMES وهذه الهيئة عبارة عن مجلس شورى يتكون من الولاة والقساوسة الآريوسيين وكبار الأعيان والألفيين، الذين ترجع لهم في أمور الدوائر التي تسكنها أكثر من مائة ألف عائلة بأرض الوندال.

4– قام الملك بتعيين حاكم من أصل جرماني على جزيرة "سردينيا" وله سلطة الأشراف على كل من جزسرة كورسيكا والبليار .

5– وقام بمنع المفوضين الرومان دخول أراضي الوندال واحتفظ فقط بممثل واحد بروقنصل ويعتبره ملك الوندال من ضمن الأشراف لتمثيل الرومان . المقيمين داخل بلاد الوندال.

6– وضع إدارة البلديات تحت اشراف مجلس بلدي.

7– وضع الخزينة العمومية ضمن الخزينة الملكية التي تعتمد على مداخيل أملاك التاج والأداءات والضرائب التي كان المغلوبون يدفعونها وحدهم دون سواهم .كما ضرب ملوك الوندال العملة النقدية باسم الملك على شعار "صورة امرأة تمسك بيدها سنابل القمح ترمز بذلك "قرطاج السعيدة" .Felix Curthago

8- الملك الوندالي هو القائد الأعلى للقوات المسلحة والأسطول البحري

9- كانت السياسة الخارجية تحت اشراف الملك مباشرة.

10- كانت حياة الوندال حياة ترف عاشها هؤلاء على أساس أنهم المنتصرون على باقي الشعوب.

11- ينقسم المجتمع الوندالي إلى طبقتين :

- النبلاء الذين لا يستمدون ألقابهم بحكم الوراثة بل بفضل رعاية وعطف الملك لهم.

- طبقة العبيد : لا فرق بينهم و بين المتاع الذي يباع و يشترى.

12- اللغة المستعملة عند الوندال كانت اللغة اللاتينية، إلا الشعائر الآريوسية وحدها كانت تقام باللغة الوندالية.

كما شجع الوندال عند دخول سكان الأرياف للأخذ بثأرهم من كبار الملاكين الذين استغلوهم دهرا طويلا استغلالا فاحشا فقتلوهم أو انتزعوا منهم أراضيهم. كما أنهم استولوا على قرطاج من دون مقاومة في 19 أكتوبر 439 م.

كما انتزع الوندال الأراضي من أصحابها ووزعها على الوندال، كما أدار الوندال إمبراطوريتهم من الأرياف لأن المدن معظمها تعرض للتخريب ولدمار.

الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب

التنظيم الإداري لبلاد المغرب في عهد البزنطيين

بعدما تم القضاء على الإمبراطورية الوندالية أصبح من الطبيعي إعداد مشروع تنظيمي من طرف جستنيان لإعادة تنظيم بلاد المغرب من جديد، لا

يختلف كثيرا عن التنظيم السابق الذي كان معمولا به قبل مجئ جنسريك وخلفاءه إذن كان حرص جستنيان على محو كل أثر احتلال الوندال وابعد كل العناصر الوندالية عن الشؤون العامة حتى وإن اعتنقوا الدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي، وأرجع كل أملاك الكاثوليك القدامى لأحفادهم والكنائس والأراضي ويؤكد بعض المؤرّخين أن هذه العمليات لم تخل من السطو والعنف كما هو الشأن في عهد الوندال أو في عهد عمليات إقرار الأمن بالاضافة إلى ذلك أعلن الإمبراطور برنامجا لإعادة تنظيم البلاد في 534 م. وعين جستنيان حاكم عسكري على رأس إفريقيا وجعل مقّره في قرطاجة ومعه رئيس أركان حربية وهذا الحاكم كان بطريقا وهو عوض بروقنصل قائد الامبراطور كما كان واسع السلطة يسهر على تطبيق القوانين ويقضي بين الناس بدون تعقيب وكان يتصرف في أملاك الإمبراطور ويجمع الضرائب من الناس ويوزع المصاريف ويفصل حتى في الخلافات الدينية وكان محاطا بعدد كبير من الموظفين بالاضافة إلى الهيئة الإدارية الحربية يرجعون بالنظر إليه وحده.

وكان له ديوان متألف من المستشارين و المختصين في شؤون القضاء وكان له 10 مكاتب تضم حوالي 118 موظفا بالاضافة إلى الموظفين الإضافيين الذين تجمعهم تسعة تشكيلات أخرى، وكانت تحت سلطته ولاة المقاطعات السبع وكذلك ثلاث قناصل مسؤولون عن جهة زغوان شمال تونس وضواحيها في منطقة المزاق بالاضافة إلى طرابلس ونوميديا الشرقية، وموريطانيا الطنجية وموريتانيا القيصرية، وسردينيا، أما موريتانيا الطنجية فكانت تابعة لإسبانيا ثم حوّلت في تبعيتها لموريتانيا القيصرية، أما من ناحية ميزات الادارة البيزنطية أنها كانت سيئة إذ أرهقت الأهالي البربر بالضرائب الفادحة وأجشع الولاة الذين أخذوا ينبهون أرزاق الأهالي من غير حياء وهذا التعسف البيزنطي أدى إلى انهيار افريقيا على حد تعبير بروكوب، وكانت مهمتها مزدوجة رغم أن الجيش هو الذي يقوم بهذه المهمة إذ يعمل على

استرجاع ممتلكات روما القديمة كاملة، ويعمل على صيانتها من هجومات الأهالي البربر وكان الجيش تحت قيادة حاكم عسكري وكان له وزنه في حكم المنطقة وهو في معظم الأحيان يكون شيخا من الشيوخ ومكان اقامته قرطاج وقد وضعت أربع دوائر عسكرية تحت سلطة أدواق يقيمون في كل من لمطه هذا بالنسبة لمنطقة طرابلس وفي قفصة بالجنوب الغربي التونسي وتلايت بالنسبة للمزاق المنطقة التي هي في جنوب تونس وفي سرتا بالنسبة لنوميديا وفي شرشال بالنسبة لموريتانيا القيصرية، كما يرجع إليهم بالنظر الجيش المتكون من حراس بليزار وفيالق المشاة واحلاف الأقوام المتوحشة في نظرهم والجنود البرابرة المرابطين في مراكز داخل البلاد لنجدتهم إلى الاماكن المهددة و هؤلاء يعادلون الكومندوس في الوقت الراهن ويرجع لهم جيش حماية الحدود الذي يتكون معظمه من الأهالي المعمرين.

ثورات سكان المغرب على البزنطيين

كان السكان في المغرب القديم منذ القرن الرابع قد صمّموا على الاستقلال، وعزموا على تطهير المغرب من المستعمرين، ولما جاء الروم هادنوهم ريثما يقضون على الوندال العسكريين الأقوياء، ثم يثورون عليهم فيتخلصون منهم.

وما كاد بليسير ينتهي من حروب الوندال ويرجع إلى صقلية في سنة 534م حتى ثار السكان على الوالي البزنطي في إفريقية "صولومون" أو سليمان الخصى كما يسميه بعض المؤرخين العرب، واشتعلت الثورة على البزنطيين في كل نواحي المغرب التي يوجدون فيها. وانقض السكان في سنة 535م على المراكز البزنطية في نوميديا، وموريتانيا الشرقية، وفي إفريقية، فاحتلوا الكثير منها، وفتكوا بالبزنطيين فتكا ذريعا.

واستمرت ثورات المغرب القديم التي لم تهدأ ولم تكنف إلى أن زالت الدولة الرومية في المغرب. وكانت أيام البزنطيين في المغرب حمراء بجمع قتلاهم الكثيرين، وزمانهم كله جروح بثورات السكان التي لا تهمد في ناحية حتى تشتعل عليهم في ناحية أخرى، وكانت الغلبة في أكثر تلك الحروب للسكان، لشجاعتهم و تنظيم ملوكلهم لتلك الثورات وقيادتها.

وكان الذي يقود تلك الثورات المغربية هم ملوكهم، والذي يشعل نارها، ويكون قطب معاركها إنما هي ممالكهم، فيهب السكن في المدن والقرى لتأييدها وشدّ أزرها، والتطوع للقتال معها. وكانت الممالك النوميدية الشرقية المتصلة بإفريقيا القريبة من قرطاجنة، حيث العدد الكثير من البزنطيين، وحيث غاصت عروقهم التي يسعى السكان لاستئصالها، كانت تلك الممالك أكثر حروبا مع البزنطيين وهي مملكة أوراس، ومملكة النمامشة، ومملكة قفصة، ومملكة هوارة ولواتة، ومملكة تالة.

وكانت مملكة جدار في موريتانيا الشرقية تثور على البزنطيين فتنقض عليهم في شرشال، وتنس، فتكيل لهم الضربات الشديدة .كما كان هناك أمراء آخرون، سيما في شمال إفريقيّة غير ملوك المغرب القديم يقودون الثورات ضد البزنطيين.

وكانت مملكة أوراس وملكها(بيداس) أكثر ثورات على البزنطيين وأشد ضراوة عليهم، وأكثر فتكا بهم، ونحن لا نستطيع أن نذكر كل تلك الثورات لأنها كثيرة وكانت مستمرة لا تهدأ إلا ريثما تستعد بعض النواحي لتجديدها .

وكان عهد البزنطيين الذي بلغ في المغرب 113 سنة مملوءا بها، ثم إن تفاصيلها قليلة ، إن الغلبة فيها كانت في الأكثر للسكان، وكان البيزنطيّون الروم هم الذين ينهزمون، لذلك سكت المؤرخون الرومان البزنطيّون الذين حفظوا لنا تاريخ هذه الفترة عن ذكرها وتسجيل تفاصيلها.

إن أغلب ما ذكروه هو الذي تساوت فيه كفتهم مع السكان أو كانوا هم المنتصرين فيها، وكان البزنطيون قد صمموا على القضاء على الملك النوميدي القوي "بيداس" ملك جبال أوراس، فأرسل إليه سليمان الخصي الوالي البزنطي في سنة 540 م .جيشه، مع أحد قواده الكبار، ولكن ما إن قرب الجيش البزنطي من جبال أوراس، وشاهد الموت الأحمر في عيون جند بيداس، ورأى السكان من الأهالي يسرعون إليه للقضاء عليه في سفوح أوراس الشمالية حتى لاذ بالفرار، والتجأ إلى مدينة باغاي الحصينة، فحاصره الثوار من الأهالي بها، وأرسلوا عليه الماء ليغرق، وبات البزنطيون في شر حال، ولولا حصانة المدينة، واسراع سليمان بجيش قوي ففك عنهم الحصار لأبيدوا كلهم .

وجدد سليمان الكرة على أوراس في جيش قوي قاده بنفسه، فدخل أوراس حتى بلغ مكان بيداس فحاصره بجيش كبير، ولكنه لم يظفر به، إن بيداس خرج من السبل الخفية ليستعد في مكان آخر للهجوم على البزنطيين، ولم يحصل سليمان على طائل إلا ما قتلوه من السكان الوادعين في أوراس ليشفوا أحقادهم، و إلا ما أخذوه من أموال كثيرة لبيداس مما يدل على غنى ملكته وقوتها .

وكان ارتياس ملك الحضنة قد اتّحد مع بيداس في كثير من الثورات ففتكوا بالبزنطيين وكذلك الملك مصيناس ملك مملكة الجدار.

وثار على البزنطيين في سنة 535م الملك (قطزيناس) ملك مملكة النمامشة، فهجم على ساحل افريقية الخصب، ففتك بمراكزه العسكرية، ونكل بكثير من البزنطيين، فخرج إليه سليمان الوالي البزنطي نفسه لينقذ تلك النواحي فلا يستولي عليها، وكان الملك أنطلاس ملك مملكة تالة في الجنوب الشرقي لقرطاجنة في إفريقية مهادنا للبزنطيين، وكان يتظاهر لهم بالصداقة، وكان هو الذي استنجد بهم لمحاربة الوندال، وكان البزنطيون يعرفون له تلك اليد، ومنّته عليهم في سرعة القضاء على الوندال، لولاه ولولا قابايون ملك هوارة

لطالت حروبهم مع الوندال، وقد ظلّ انطلاس ملكا على ساحل إفريقيّة الجنوبيّ الخصم زمنا طويلا في عهد البزنطيين فلم يزاحموه فيه ، لتقديرهم له، ولطلبهم ودّه كي لا يهاجمهم في عقر دارهم بقرطاجنة.

إنه أقرب إليهم من ملوك نوميديا، وظلّ سليمان الخصي (صولومون) الذي يزمجر على الملوك الآخرين يفتل له في الذروة والغارب ليهدأ فلا يثور، ولكن أنطلاس كان ككل أهالي المغرب القديم يكره البزنطيين المستعمرين ويمقتهم، فثار عليه في سنة 545 م فخرج إليه صولومون في جيشه الكبير، فدارت معركة بينهما في نواحي تبسة، انهزم فيها البزنطيين، وقتل انلاطس " صولومون".

وقد استمرت المعارك بعد صومولون في عهد كل الولاة البزنطيين، وقد بلغ الثوار من السكان في سنة 597 م أبواب قرطاجنة في إحدى ثوراتها فحاصروها ووجهوا ضرباتهم إليها فصالحهم الوالي البزنطي (جناديوس) ففكوا الحصار عنها، إن خضوع الوالي لشروط الصلح يدل على قوة السكان وتفوقهم على البزنطيين في المجال العسكري.

وكانت ثورات السكان المحليين كلها تحررية، يقصدون بها غرضا وطنيا نبيلا، وهو طرد المستعمرين من بلادهم، وإقلاقهم بالحروب ليرتحلوا عنهم، ولم تكن لحب الفوضى والنّهب كما يدعي المستعمرون المتعصبون .

كان ملك مملكة النمامشة "قطزيناس" : "يحارب صولومون في إفريقية ويقول إن اللّه مع الذين يحاربون اللصوص لاسترجاع أموالهم وأراضيهم".

وكان القائد الباسل "سطوزاس" يجمع الجموع ويبلي البلاء الحسن بمبراصة "مجاز الباب" وكان يوقد حماس رجاله بخطبه المؤثرة ويقول : "كيف ترضون بحياة الذل والعبودية والهوان ؟ " كانت ثورات النوميديةعنيفة على البزنطيين، ولكنهم صمدوا في المغرب فلم يجلوا عنه لأن الممالك النوميدية لم

تتحد كلها في ثورة كبرى تكون موحدة القيادة فيحتلوا قرطاجنة ويطهروا أرض المغرب من البزنطيين، كانت ثوراتهم متفرقة تهزم بزنطة في نوميديا، أو في موريتانيا، أو في مراكزهم العسكرية بإفريقية أما أن تتحد فتضرب الرأس، وتحتل العاصمة، فتقضي على البزطيين فهذا ما لم يقع، حيث أضعفت هذه الثورات البزنطيين ولم تقض عليهم.

المراجـع

(1) محمد أبو المحاسن عصفور، (دون تاريخ)، معالم الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، ص 36.

(2) ول ديورانت، (1968) قصة الحضارة المجلد السادس، الفصل الثالث، ص164، بيروت.

(3) ينظر : شارل أندي جوليان، (1969) تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ص51.

(4) ينظر : أسامة عبدالرحمن النور وأبوبكر يوسف شلابى الجا / فاليتا / مالطا / 1995م ص1.

(5) ينظر : فوزي سلم عفيفي، 1980، نشأة الكتابة الخطية العربية ودورها الثقافي والاجتماعي، ط1، الكويت، ص، 14.

(6) أنور الجندي، 1985، فساد نظرية الجنس السامي واللغة السامية، دار بوسلامة – تونس ص 7.

(7) أنور الجندي، المرجع السابق، ص14

(8) الخط المصري : وهو الهيروغليفي الخاص بالكهنة والهيراطقي الخاص بالموظفين والديموطيقي الخاص بالشعب، والكتابة عامة كانت الكتابة الصورية وهي أول مرحلة من مراحل التعبير الخطي عن المعاني والمدلولات وكانت تنقش على الأحجار وما شكلها وقد كتب في مصر القديمة الهكسوس بالخط المصري القديم لأنهم اختلوا مصر على عهد سيدنا إبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام. وكانت الكتابة في هذه المرحلة صورية معنوية تتألف من صور ماديات للدلالة عليها، وماديات أخرى للدلالة على ملزماتها من

المعاني. وذلك مشاهد في الرسوم المصرية القديمة. ثم ترقوا في الدور الحرفي بواسطة الصور، فاصطلحوا على رسم صور وأشكال للدلالة على الحروف التي في أول أسمائها.

(9) اخترعت الكتابة بالخط المسماري الذي يسمى بالإسفسني وكان مستعملا في آشور وبابل في العراق وظهرت الكتابة لأول مرة في الوركاء التي تقع هذه المدينة جنوب العراق. وقد كانت ضمن سياق التطور الحضاري لهذه المدينة التي شهدت عدة إبداعات وإنجازات هامة. منها اختراع الكتابة الذي استعمل ألواح الطين للكتابة عليها. وكانت كل مجموعة من ألواح تتضمن النصوص الأدبية في أشكال مدونات مختلفة. وكانت تحفظ في أوعية من الجرار والخشب والسلال أو توضع في رفوف، ويعلق في كل مجموعة عنوان السلسلة الذي يسجل في بطاقة أو لوح صغير من الطين.

(10) محمد قدوح،2000، الكتابة نشأتها وتطورها عبر التاريخ، دار الملتقى، بيروت، ص،18.

(11) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، من أقدم العصور إلى مجيء الأسكندر المقدوني.ص23.

(12) عثمان سعدي 2001 ،" المسألة الأمازيغية بين المفهوم الوطني والنزعة البربرية" صحيفة صوت الأحرار، الأحد 19 أوت، العدد1054، ص 8.

(13) محمد سعيد القشاط ،1989، التوارق عرب الصحراء الكبرى، الطبعة الثانية. مركز دراسات شؤون الصحراء ليبيا– ص 33. وقد ذهب محمد سعيد القشاط، إلى تحديد وتعريف أبجدية الطوراق قائلا : (وتحتوي هذهالأبجدية على اثنين وعشرين حرفا ولهذا يضطر الطوارق التركيب حرفين لإعطائهم حرفا آخر غير موجود في أبجديتهم، وتلتقي حروفهم مع الحرف الحميري القديم " المسند" في كثير من الحروف. مثل (ل) (اا) والـ(ش) و(التاء) (+) حيث تزال مستعملة في الكتابة الإريترية حتى الآن كما الدال (د) هو نفس الدال العربي.... وهذا كله

– حسب تعبيره– يدل على أن لغة التوارق. وحروف لغتهم من أصل عربي قديم سواء أكان فينيقيا(تيفيناغ) أم (حميريا) يمنيا قديما – ينظر : في ذلك محمد سعيد القشاط، المرجع السابق، ص 34

(14) Gabriel Gardel (Lieutenant), 1961, Les Touareg Ajjer, Edition Baconnier, P. 28.

(15) عثمان سعدي، المرجع السابق، ص 8.

(16) كراوزة : هو غوتلوب ادولف كراوزة الرّحالة الألماني وعالم اللغات الإفريقية. ولد سنة 1850 م واهتم بشؤون إفريقيا. وعرف في غرب افريقيا باسم معلم موسى وتوفي سنة 1938م وترك عدة أعمال علمية تمت ترجمتها من قبل الباحث عماد الدين غانم، دراسات غوتلوب كراوزة عن الدواخل الليبية. ينظر في ذلك نجمي رجب ضياف، 1999، مدينة غات وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر الميلادي، دار الكتب الوطنية ليبيا بنغازي ص34 .

(17) : نجمي ضياف، المرجع السابق. ص،269.

(18) أيوب محمد سليمان، 1983، جرمه وحضارتها، طبعة دار المصراتي للطباعة والنشر، طرابلس ليبيا، ص،179.

(19) باري فل، 1988، اكتشاف أمريكا قبل كولومبس، ترجمة، الدكتور فؤاد الكعبازي، والدكتور عبد القادر المحيشي، (منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي– ليبيا– ص،215.

(20) محمد أبو المحاسن عصفور، (بلا تاريخ) معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر الأكبر، دار النظهة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص 96.

(21) جون يويوت(1966)،مصر الفرعونية ترجمة سعد زهران مراجعة عبد المنعم أبوبكر سجل العرب القاهرة، ص43.

(22) السامية : تسمية حديثة العهد اقترحها عالم اللاهوت الأماني النمساوي (شلوتز Scholzer) عام 1781 م. لتكون علما على عدد من الشعوب التي انشأت في غرب آسيا عددا من الحضارات التي ترتبط لغويا وتاريخيا وترتبط نسبا على حد زعم هذا العلم من صلب سام بن نوح، بناء على ما جاء في التوراة في صحيفة الأنساب الواردة في الإصحاح العاشر من سفر التكوين، من أن الطوفان عندما اجتاح سكان الأرض لم ينج منه سوى سيدنا نوح وأولاده الثلاثة سام، وحام، ويافث وما حمل معه في سفينته من كل زوجين اثنين. وقد شاعت هذه التسمية وأصبحت علما لهذه المجموعه من الشعوب عند عدد كبير من العلماء في الغرب ومن سايرهم من العرب– على حد تعبير الباحث سالم سليمان الخماش من جامعة الملك عبد العزيز بجدة – والذي أشار في هذا الصدد قائلا :

(إن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخي، أو إلى أسس علمية عنصرية صحيحة أو وجهة نظر لغوية. إن هذه الشعوب التي أطلق عليها خطا اسم "الساميين" هي في حقيقة الأمر قبائل عربية هاجرت بفعل العوامل الطبيعية من جزيرة العرب بحثا عن الماء والكلإ، ومنها تفرعت الأقوام الأخرى). سالم سليمان الخماش، 2003 اللغات السامية. (الموقع الإلكتروني، ص.1)

(23) ينظر : فوزي رشيد محمد،(1988) القوانين في العراق القديم : دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ص8.

(24) هنري فرانكفورت(1960) فجر الحضارة في الشرق الأدنى،مترجم بغداد، ص42 .

(25) طه باقر(1955)، مقدمة في تاريخ الحضارة القديمة، ج1، بغداد، ص51.

(26) مجلة النفط والتنمية(1981)، تاريخ العراق عبر العصور العدد 7، 8.

(27) by Nile and Tigris London Budger (1920).

(28) نور الدين حاطوم (بلا تاريخ) تاريخ الحضارة، الجزء الأول.

(29) مجلة النفط والتنمية، المرجع السابق، ص81.

(30) سورة التوبة الآية 30. والمائدة 18. إضافة إلى تبديلهم في أحكام الشريعة المنزلة على موسى عليه السلام وحرفوا نصوص التوراة، وقدسوا آراء أحبارهم المتمثلة بما يسمى عندهم (بالتلمود) ونشيد الأنشاد وهو شروح واجتهادات علمائهم الذين أحلوا لهم لحم الحرام وحرموا عليهم الحلال بأهوائهم، لذلك قال اللّه تعالى شانة فيهم (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه) التوبة. وقال اللّه تعالى عنهم : (وقالت اليهود عزير أبن اللّه) واليهودية ديانة عرقية وهي معتقد يختلف عن معظم المعتقدات والأديان، هي دين مغلق، فلا يحق لأي إنسان أن يعتنق اليهودية ما لم يكون من أم يهودية ومازالت محاكم إسرائيل ترفض الاعتراف بيهودية مواطنيها من أب يهودي وأم غير يهودية.

(31) مراد كامل 1968، الكتب التاريخية في العهد القديم(محاضرات)، تونس الجامعة العربية، معهد البحوث والدراسات العربية.

(32) نعيم فرح 1972، موجز تاريخ الشرق الادنى القديم : السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، دمشق دار الفكر 32.

(33) دولا بورت 1971، بلاد مابين النهرين، حضارة بابل وآشور، تعريب مارون الخوري، بيروت دار الروائع الجديدة ص 40.

(34) الإغريق تحريف كرائي "كوا" : Greak وهو اسم لقبيلة كانت تقطن جبال ذو ذودي سماهم الرومان بذلك الاسم ثم العرب عربوا ذلك باسم "الإغريق".

(35) فيليب الثاني Philippe : ملك مقدونيا ولد سنة 382 ق. م. ارتقى العرش المقدوني سنة 360 ق. م تدرب على الأنماط العسكرية في مدينة طيبة التي قضى فيها ثلاث سنوات. وذلك قبل أن يصبح ملكا على المقدونيين فانصرف لإعادة تنظيم شمال البلاد بهدف القدرة العسكرية وكان على وشك التوجه لمحاربة الفرس. عندما اغتاله أحد النبلاء المدعو "بوزانياس" في سنة 336 ق. م وتولى العرش بعده زعامة مقدونيا ابنه الاسكندر.

(36) - Jhon Junther, Alexander the Great, (New Yourk 1953), P 20
(37) - Plutarque, Les vise des hommes illustres (Paris 1959), P 976
(38) - Diodors de Sicile, Liv, Bibliothéques Historique, par Perd Hoefr, 3éme (Paris S.D), P 304.

(39) بريكليس : رجل سياسي، إثيني قد ساهم في تنمية بلاده في القرن الخامس قبل الميلاد. حيث جمع بين ترسيخ الديمقراطية. وحكم الإمبراطورية في عصره أحسن اليونانيين بالثقة في أنفسهم أمام الغزو الفارسي في عهد، عرفت مدينة أثينا أقوى حلف دفاعي، ضد أعدائها.

(40) دلفي : مدينة قديمة كانت تقام على مكان قرية "كستري" Kastri الحديثة وكانت مدينة دلفي مقر الكاهنة أبولون Apollon-Aythianأشهر كاهنات العالم القديم، ويرجع تأسيسها إلى قبل التاريخ، وكانت أغنى الأماكن الدينية آنذاك والآن قد زالت معالم المعبد من الوجود.

(41) - Plutarque, Les vise des hommes illustres Op. Cit; P 976
(42) - Burgard Raymond, L'expédition d'Alexandre et la conquête d'Asie (Paris 1937), P 19.
(43) - Burgard Raymond, Op. Cit; P 19.
(44) - Arrian, Op. Cit; P 5.
(45) - W.W. Tarn, Cambrige, VI (Cambridge, 1694), P 358.

(46) بارمنيون : قائد مقدوني مشهور وأعدم عام 330 ق. م بأمر من الإسكندر في بلاد الميديين بإيران ينتظر في مقتله إلى أريان.

(47) يوضّح بلوتارخ الأسباب التي منعت فيليب من الاستمرار في الصراع مع فارس إذ يقول : "كانت أوضاع المملكة المقدونية مضطربة داخليا منها بروز قوة نشاط المعارضة ضد فيليب وخاصة معارضة الاثينيين تحت قيادة ديموستينثس وتزايد المظاهرات في المدن فضلا عن ثورة القبائل البربرية إلى جانب وضع الاقتصاد المنهار. ويضيف ديودور الصقلي في الفقرة ص 308 من

(48) على إثر ذلك الانتصار يقول ديودور الصقلي : "لقد تعززت سلطة فليب على بلاد الإغريق إذا استطاع أن يخمد أهم الثورات الداخلية التي كانت ضده، كما حرص على تكوين المجامع الدينية في كل مدينة. وهذه المجامع من صلاحيتها رصد وحصر المشاكل التي تهم المدن التي كانت تحت حكم فيليب. كما عمل على إنشاء رابطة حلف كورنثة la ligne de Corinthe الذي كان تحت زعامته، وكانت من أهم وظائف هذه الحلف النظر في أهم القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وسن القوانين وتهذيب القديمة وإقرار السلم وإعلان الحرب، والتزام كل مدينة من مدن الحلف أن تقدم المساعدات الحربية إلى الجيش المقدوني.

انظر : هذا النص من ديودور الصقلي فقرة 83 من الكتاب 16.

(49) لقد كان لظهور الديمقراطية في بلاد الإغريق سنة 525 ق.م رد فعل كبير أدى إلى نشوب حروب بين الإغريق والفرس. وكانت هذه الحروب في رائي هيرودوت (484– 425 ق. م)، تمثل تصادم طرازين من طراز الحضارة. هي الحضارة الهيلينية والحضارة الشرقية. ولكن هيرودوت لم يتخلص من التعصب الجنسي أو الإقليمي وأن ما ورثه الإغريق من الحضارات الشرقية أكبر مما ابتدعوه وكانوا الوارث المدلل خيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين.

(50) استطاع الإسكندر وبعد معارك طاحنة القضاء على الإمبراطورية الفارسية وأعلن نفسه ملك الملوك وسيد آسيا. وحدث هذا بعد وفاة الملك داريوس 330 ق. م.

(51) بوزنياس : شاب من النبلاء، قام بقتل فيليب الثاني ملك مقدونيا، ومن أهم الأسباب التي أدت به إلى ارتكاب هذه العملية الصعبة والجريمة في الوقت نفسه، هو اعتداء عطال Attale عم زوجة فيليب الجديدة التي تزوجها بعد أولمبياس على بوزنياس فشكي هذا الأخير إلى الملك وعندما أهمل شكواه قام بقتله ولكنه لم يفلت من قبضة حراس القصر.

(52) - Edwyn Robert, Britanica, Encyclopédie,(1951 â, P 567.

(53) أولمبياس، أم الاسكندر المقدوني وأخت الإسكندر Alexandros وبنت الملك الأبيري نيوطلموس Néoptoleme وكانت مملكة أبري Epris مجاورة لمملكة مقدونيا تزوجت الملك فيليب الثاني وعمرها ستة عشرة سنة عندما نزلت لزيادة معهد أخيل Achille في مدينة دلفي وكان هذا المعبد من المقدسات.

(54) - Diodore de Sicile, Op.cit, P42.
(55) - Plutarque, Vies, Alexandre César, Op.cit, P 42.

(56) داريوس الثالث أو دارا كان اسمه قبل أن يعتلي العرش الفارسي قودومانس Godemans ولكنه انتحل اسم داريوس، بعد اعتلاءه العرش سنة 336 ق. م. (ودارا الثالث لا يعود إلى البيت الحاكم مباشرة) لأنه جاء بعد أرسيس (338– 336) ق. م. ولكن من الملوك الذين لا يخو عزائمهم من أول هزيمة تعرض لها. فبقى يقاوم في استماتة حتى آخر لحظة من حياته. فتصدى للإسكندر وفي معركة أربيلا – Arbila سنة 331 ق.م. وبقي مستمرا في المقاومة حتى تم قتله على يد أحد رفقائه بسوس Bessus في سنة 330 ق. م. وبموته سقطت الدولة الفارسية وأصبحت تابعة لإمبراطورية الإسكندر.

(57) - Diodore de Sicile, Op.cit, P340.

(58) تراقيا : إقليم تركيا الأوروبية تم غزوها عدة مرات في عهد فيليب الثاني منها غزو سنة 345 ق. م.

(59) البرابرة : هم الأقوام التي كانت تقطن منطقة ألبيريا allipríe ألبانيا حاليا وهذه اللفظة تطلق على كافة السكان من الشعوب التي تقطن خارج المدن الإغريقية، أو خارج الحضارة اليونانية، ينظر في ذلك أريان Arrian, Op.cit, P15.

(60) طيبة : مدينة إغريقية كانت لها مكانة عظيمة في قيام الحضارة ودارت فيها عدة أحداث تاريخية هامة، منها انتصارها على مدينة إسبرطة في معركة لوكتريس في سنة 371 ق. م.

وهذا يتفق مع أريان Arrain , Ibid., P.15

(61) - Diodore de Sicile, Op.cit, P 311.
(62) - Plutarque, Vies,Op.cit, P 45.

(63) أثينا : مدينة يونانية مشتق اسمها من آلهة الفكر والحكمة عند اليونان والآلهة أثينا بنت الإله زيوس وهذه المدينة كانت في حروب مع مدينة إسبرطة لهذا السبب طلت الإعانة من الملك الفارسي وهي عاصمة اليونان حاليا.

(64) سوسة : مدينة عيلامية أصبحت في عهد الإمبراطور الفارسية مقرا للإمبراطور داريوس الأول أو دارا وخلفائه من بعده.

(65) أرتخششتا : أو أرتاكسركس : ملك حكم فارس من 359 إلى 338ق. م في عهده عرفت الإمبراطور الفارسية قوة معتبرة مكنتها من السيطرة على معظم أجزاء الدولة الفارسية التي كانت دائما تحاول الانفصال وخاصة منطقة آسيا الصغرى كما استعاد ولاية مصر وازدهرت الإمبراطورية الاقتصادية.

(66) - Wilcken Urick, Alexandre le Grand, (Paris 1993 â, P 69.

(67) مدينة كورنثة : مدينة إفريقية كانت مقر لرئاسة حلف المدينة الحرة الإغريقية أو اليونانية وتقع إلى الجنوب من مدينة شيرونة، أعلن فيها الإسكندر المقدوني عن الوحدة الإغريقية سنة 336ق. م.

(68) - Gustave Glotz, Pierre Roussel et Robert Cohen Alexandre et l'hellénisation du monde antique, T IV (p.up, 1938), p. 50.

(69) باكوس : Pagoas– قاد حملة فارسية على مصر 342 ق. م قام سنة 336 م بقتل الملك أرسيس (338–336 ق. م) كما قتل والده من قبل أرتخششتا.

(70) ديمو ستنس : خطيب أثيني مشهور استخدم أسلوب قوته الإقناعية العظيمة في إيقاظ دويلات المدن الحرة للخطر المحدق بها من الشمال وخاصة المقدونيين وكان يدعو إلى تأسيس جيش حقيقي من المواطنين يدافع عن مدينة

أثينا. وكان من المعارضين لفيليب المقدوني إذ هاجمه في عدة خطب منها خطبة قال فيها ״. وإذا اختفى فيليب غدا فستجدون لأنفسكم فيليبا آخر. إلى أن يصل أفتعمى ؟ الآلهة الخالدة وهي تراقب عن عليائها بالخير على مثل هذا الفاسق لهذا الماكر مصاص الدماء.. . ״ ينظر في ذلك Plutarque, Ibid., P.17.

(71) - Diodore de Sicile, Op.cit, P 325.
(72) - Plutarque, Vies, Ibid, P 43.

(73) أنتبارتر : قائد عسكري مقدوني ماهر. وكان متقدما في السن تركه الاسكندر في أوربا على الجيش المقدوني وهذا يرجع للثقة التي كان يحضا بها عند الاسكندر. قتل سنة 301 ق.م.

(74) بيابيلا : مدينة تقع غرب مقدونيا، مسقط رأس الإسكندر المقدوني وأصبحت عاصمة الإمبراطورية المقدونية في عهد فيليب.

(75) - Arrian, Op.cit, P 325.
(76) - WW. Tarn, Combridge ancient history, VI, (Cambridge 1964 P 353.

(77) توكديددس Thucydides مؤرخ أثني (460– 400 ق. م) ووصف لحروب البيلوبونزية التي دارت رحاها بين أثينا وإسبرطة وعالجها بأمانة ودقة معالجة الناقد الحصيف المنصف وكان من المعجبين بالقائد السياسي الكبير بويكليس – Percles الذي وصلت أثينا في عهده ذروة المجد حقيقي أصبحت على حد قوله في الخطبة الشهيرة ״مدرسة هللاس جنة الإغريق״.

(78) انظر : هـ. أيدرس بل، مصر من الاسكندر وحتى الفاتح العربي، عبد اللطيف أحمد علي 1973، ص 29.

(79) عرفت تلك الحروب بالحروب الميدية، والتي بدأت بانتصار الإغريق في معركة مارثون عام 490 ق. م) وبهزيمة لهم في معركة ثرمو بيلاي عام 480 ثم انتصارهم في معركة سلامنس في العالم نفسه 480 ق. م. ثم معركة ميكالي سنة 476 ق. م.

(80) - Percheron, Op.cit, P 325.
Hatzfled, Histoire de la gerce ancient, (Paris 1975) P 264
(81) - Plutarque, Vies, IX, Alexandre César, Op.cit, P 43.
(82) - Arrian, Op.cit, P 7.
(83) - Jean Hatzfiled, Op.cit, P 265.
- Gaustave glotz pierre Roussel et R. Cohen, Op.cit, P 55.
(84) - Maurice Droun, Alexandre le Grand, (Paris 1974) P 223.

(85) المعارضة : التي تسببت في عصيان في كل من مدنيتين شيرونة – Cheronie في إقليم بيوتيا – POITIE وأثينا كما تم تحالف هاتان المدينتان مع مدينة طيبة تحت تأثير المعارض السياسي الأثيني الشهير ديموستينس Demesthanes (384 – 322ق. م) الذي عارض فيليب الثاني بشدة لأنه قضى علك تلك المدن سنة 378 ق. م.

(86) -Gustave glotz, Piere Roussel, et R, Cohen, Op.Cit, P33.
(87) Plitraque, Vies, IX, Ibid, P. 42.
(88) Plitraque, Vies, IX, Ibid, P. 51.

(89) انظر : المقريزي، الخطط المقريزية الجزء الأول (بلا تارخ) ص 268.

(90) انظر : القرآن المفهرس، سورة الكهف، الآية 94 ص 770.

(91) انظر : ابن الأثير، الكامل في التاريخ 1348 هـ. ص 159.

(92) انظر : إسماعيل مظهر، مصر تخت قيصرية الإسكندر، القاهرة ط 1937، ص 94.

(93) انظر : إسماعيل مظهر، المرجع السابق، مكرر، ص 94.

(94) إبراهيم رزق اللّه أيوب، (1996)، التاريخ الروماني، ط1، الشركة العالمية للكتاب، ص 24.

فهرس

الفصـــل الأول

العصور الجيولوجية والعصور الجليدية ومراحل تطور الإنسان

الفصـــل الثاني

حضارة العصور الحجريـة

الفصل الثالث

المدنيات القديمة

الفصل الرابع

الحضارة المصرية القديمة

الفصل الخامس

حضارة بلاد الرافدين القديمة

الفصل السادس

حضارة الإغريق والرّومان

طبع بمطبعة دار هومه
34 ، حي لابروبار - بوزريعة- الجزائر
الهاتف : 021.94.41.19 / 021.94.19.36 الفاكس : 021.94.17.75
www.editionshouma.com
email:Info@editionshouma.com

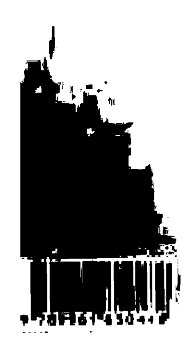
يعتبر موضوع حضارات الشرق القديمة في الحوض الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط، من خلال أهم المراحل قبل التاريخ وحتى المراحل التاريخية، من الموضوعات بالغة الأهمية في التاريخ الحضاري.

تظهر أهمية هذا الموضوع أيضا في كشفه عن رصيد الشعوب الأولى الحضاري، التي كان لها الفضل في ذلك من سومريين ومصريين وعرب وبربر وفينيقيين وغيرهم.

الموضوع يتناول في مجمله دراسة المنطقة من حيث التعرض للأرض والإنسان والدول والممالك التي قامت فيها، وعلاقتها مع بعضها، من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية. والتعرف على أهم المراكز الحضارية التي قامت في منطقة الشرق القديم، ومدى إسهام الإنسان في المنطقة في الحضارة البشرية بشكل عام.

هو إسهام منه أن يستجيب لتطلعات الباحث والطالب والقارئ عموما، وأن يجيب على بعض الموضوعات الحضارية.





ISBN 978-9961-65-044-6 ردمك

www.editionshouma.com
e-mail info@editionshouma.com